

أمين معلوف

حدائق النور



ترجمة:
د. عفيف دمشقية



حداائق النور

أمين معلوف

حدائق النور

ترجمته:
د. عفيف دوشقية



الكتاب : حدائق النور

المؤلف : أمين معلوف

المترجم : د. عفيف دمشقية

الناشر : دار الفارابي - بيروت - لبنان

ص.ب: ١١/٣١٨١ - ت: ٠١/٣٠١٤٦١

: فاكس: ٠١/٣٠٧٧٧٥

تصميم الغلاف : فارس غصوب

الطبعة الرابعة ١٩٩٨

جميع الحقوق محفوظة للناسر
في لبنان وجميع البلدان العربية

الحجر الذي رفضه البنّائون
هو الذي سيكون حجر الزاوية
«المزامير»

تمهيد

«دجلة» نهر وحيد الوجهة، على عكس «النيل» الذي في وسع المرء أن ينحدر فيه مدفوعاً بالتيار أو يصعد حسب مشيئة الأشرعة. ففي «بلاد ما بين النهرين» تنساب الرياح، شأنها شأن المياه، من الجبل إلى البحر، ولا تفعل ذلك قطّ باتجاه الأراضي الداخلية، حتى تُضطرّ المراكب إلى التباطؤ تبعاً لمشية الحمير أو البغال التي ستقطعها في طريق العودة إلى مربطها هياكل مترججة مرتبكة على الدروب الجافة.

وفي أقصى الشمال، حيث منبعه، ينحدر «دجلة» الجموح بين الصخور، والوحيدون الذين يجسرون على امتطائه هم بضعة نوتية من الأرمن وعبوهم شاخصة إلى قوران الماء المخادع. وإنه لشریان عجيب لا يتلاقى فيه العابرون ولا يتجاوز بعضهم بعضاً ولا يتبادلون التمنيات ولا الحمولات. ومن هنا كان الشعور المُسكِر بأن يُبحر المرء وحيداً، من غير عفريت حارس ولا مواكبة غير مواكبة النخيل على الضفاف.

وإذ يبلغ «دجلة» (المدائن) عاصمة بلاد (بابل) ومقرّ الملوك «الپارتیین» فإنه يصبح وديعاً ويستطيع الناس الاقتراب منه بلا حذر، ولا يعود سوى ذراع عملاقة مائعة تُعبر من جُرف إلى جُرف في قُفْ مَدَوْرَة مسطحة القعر يتكدّس

ففيها الناس والبضائع وتوغل نحو الضفة مدومة أحياناً من غير أن تفرق مع ذلك، سلالاً مبتدلة من الأسل المضفور تنتزع من نهر الطوفان كل شموخ. وعندها يكون من الساحة والحلم بحيث ترى فيه أزواج كثية متعانقة وهي تتخبط: جلود بهائم مذبوحة ومفرغة ونخيلة ثم منفوخة، وقد تعلق بها سباحون جسداً إلى جسد وكأنهم في رقصة للبقاء على قيد الحياة.

تبدأ قصة «ماني» في فجر العهد النصراني، بعد أقل من قرنين على موت «المسيح». وعلى ضفاف «دجلة» ما يزال حشد من الآلهة يتباطأ. فبعضهم برزوا من الطوفان والكتب الأولى، والآخرين قديموا مع الفاتحين أو مع التجار. وقليل من المؤمنين في (المدائن) يحتفظون بصلواتهم لوثن أوحد، ويحجرون من معبد إلى معبد لإقامة القداديس. ويسرع بعض الناس إلى قربان «ميترا» لاستحقاق نصيبهم من الوليمة؛ ويبحث بعضهم في ساعة القيلولة عن ركن ظليل في حدائق «عشتار»؛ وفي آخر النهار يأتون للطواف حول محراب «ناناي» مترقبين مقدم القوافل؛ وبالتقرب من «الآلهة الكبرى» يحصل المسافرون على محطة لقضاء الليل. ويستقبلهم الكهنة ويقدمون لهم الماء المعطر ثم يدعونهم للانحناء أمام تمثال ربّتهم المحسنة. وفي وسع القادمين من بعيد أن يطلقوا على «ناناي» اسم ربة مألوفة لديهم، فالإغريق يدعونها أحياناً «أفروديت»، والفُرس «أناهيتا»، والمصريون «إيزيس»، والرومان «فينوس»، والعرب «اللات»، وهي لكل واحد منهم الأم المُرْضِع، ولثديها السخي حرارة الأرض الحمراء التي يرويها النهر الخالد.

وغير بعيد من هناك، على تلة تُشرف على جسر (سلوقية) ينتصب معبد «نبو». وإذا كان إله المعرفة، إله الشيء المكتوب، فإنه يسهر على العلوم الغيبية والجلية. وشعاره يَرَأخ، وكهنته أطباء ومنجمون، وأتباعه يُلْقون عند قدميه بالألواح أو الكتب أو الرقاع التي يتقبلها أكثر مما يتقبل أي قربان آخر. وفي أيام (بابل) المجيدة كان اسم هذا الإله يسبق أسماء الملوك الذين كانوا يُسمون على هذا «نبونصر» أو «نبوپولصر» أو «نبوخذنصر». واليوم يغشى المتعلمون وحدهم

معبد «نبو»، ويفضّل عامة الشعب تبجيله من بعيد؛ وحين يمرّ الناس من أمام رواقه للذهاب إلى أرباب آخرين فإنهم يحثّون الخطى ويوجّهون إلى المحراب نظرات حائرة. ذلك أن «نبو»، إله الكتّبة، هو أيضاً كاتب الآلهة، وهو وحده مكلف أن يكتب في كتاب الأبدية الأحداث التي غبرت والتي ستكون في مستقبل الأيام. وعندما يُخاذي بعض الطاعنين في السنّ جدار المعبد الأمغر فإنهم يُسرّعون في ستر وجوههم. فربما كان «نبو» قد نسي أنهم لا يزالون في هذه الدنيا، فلماذا تذكره بالأمر؟.

يسخر المتعلّمون من مخاوف العامة. فهم الذين يحبّون المعرفة أكثر من حبّهم القوّة أو الثروة، بل حتى السعادة، يفاخرون بتقديس «نبو» أكثر من أي إله آخر. ويجتمعون يوم الأربعاء، اليوم المخصّص لوثنهم، في حرّم المعبد، فيشكّلون، بوصفهم ناسخين أو تجاراً أو موظّفين ملكيين، حلقات صغيرة نشطة وبليغة تتسكّع كلّ منها تبعاً لتقاليدها. فبعضها يسلك الممشى المركزي ويطوف حول المحراب وصولاً إلى الحوض البيضوي الذي تسبح فيه الأسماك المقدّسة. وبعضها الآخر يفضّل الممشى الجانبي الأورف ظلالاً والمفضي إلى الحظيرة التي تحتجز بهائم الأضاحي. ويُسرّح الغزلان والحملان والجداء عادةً في الحدائق؛ ويُحبس فقط الثيران وذئبان أسيران؛ بيد أنه، عشية الاحتفالات، يجمع العبيد الملحقون بالمعبد البهائم لإخلاء المباشي وأتقاء أعمال الصيد المحظور.

يتعرّف المرء من بين متنزهي يوم الأربعاء بسهولة إلى «باتيغ». إلى ساقيه المغلقتين في سراويل من الحرير الأخضر المثقّى على الطريقة الفارسية، وذراعيه النحيلتين المحوّمتين تحت معطف من القطيفة، وفوق هذا الطيف الهزيل المتلفّع على هذا النحو بالألوان الزاهية، يتعرّف إلى رأس يبدو وكأنه سُرق من أحد تماثيل العمالقة: لحية كتّة سمراء مصفورة وكأنها عُنكول، وشعر غزير منسدل ومربوط فوق الجبين بعصابة من نسيج صوفي متين مطرّز بشعار طبقته، طبقة

المحاربين. ومع ذلك فإن هذا المظهر ليس سوى ذكرى لأن «پاتينغ» لم يعد يمارس الحرب ولا الصيد. وقد انطفأ في عينيه كلّ عنف، وأخذت رعشة تهزّ شفّتيه باستمرار وكأنّ سؤالاً طالماً كُتِبَ يستعدّ للبروز.

وعلى الرغم من أنه لمّا يكّد يبلغ الثامنة عشرة فإن ابن طبقة الأشراف «الپارتيين» العليا هذا كان سيحاط بتقدير لا يُوصف لو لم يكن يحمل في نظراته براءة طفولية تحرمه من كلّ مهابة. فكيف لا يُستقبل بابتسامات متوقّدة مَنْ يبرز أمام شخص لا يعرفه ويقدمّ إليه نفسه بهذه العبارة: «إنني أحد الباحثين عن الحقيقة!».

وبهذه الكلمات بالذات خاطب «پاتينغ» في ذلك الأربعاء شخصاً يرتدي البياض ويقف بعيداً عن الناس منحنيّاً فوق الحوض البيضوي ويحمل في يده عصاً مخضرةً بالعثد يعلوها مقبض عَرَضِيّ يربّت عليه بحركة توحّي بشّشدان الحماية.

ويردّد الرجل من غير تهكّم ظاهر:

- باحث عن الحقيقة. وكيف لا يكون المرء كذلك في هذا العصر الذي يحاذي فيه قدرٌ كبير من الورع قدراً كبيراً من الكُفْر!

ويشعر الشابّ الهارقي أنه في أرض صديقة.

- اسمي «پاتينغ». وأصلي من (أيكبتان). [هي اليوم (همدان) في (إيران)]^(*).

- وأنا «سيتايي»، من (تدمر).

- لباسك ليس لباس أبناء مدينتك.

- وأحاديثك ليست أحاديث أبناء طبقتك.

(*) جميع الكلام الواقع بين [] في هذا الكتاب هو تعليقات وحواشٍ من المترجم.

أرْفَقَ الرَّجُلَ رَدَّهُ بِحَرَكَةِ انْزِعَاجٍ. وَتَابَعَ «بَاتِيخُ» الَّذِي لَمْ يَلَاظِ شَيْئاً: .
- (تَدْمِرُ) ! أَصَحِّحْ أَنَّهُ أَقِيمَ فِيهَا مَحْرَابَ بِلَا صَنْمٍ مُهْدَى إِلَى «إِلَهِ مَجْهُولٍ»؟ .
وَتَرَكَ الْآخَرَ لِحَظَةٍ طَوِيلَةٍ تَمَرُّ قَبْلَ أَنْ يَجِيبَ بِفَتْوَرٍ مُتَعَمِّدٍ: .
- يُقَالُ ذَلِكَ.

- عَلَى هَذَا فَانْتَ لَمْ تَزُرْ قَطُّ ذَلِكَ الْمَكَانَ! لَا بَدَّ أَنْكَ تَرَكَتَ مَدِينَتَكَ مِنْ زَمَنِ طَوِيلٍ.

بَيَدَ أَنَّ التَّدْمِيرِيَّ اكْتَفَى بِتَنْحِنَةٍ. وَتَصَلَّبَتْ قَسَمَاتُ وَجْهِهِ وَسُرَّحَ بَصَرُهُ بَعِيداً وَكَانَهُ يَرِيدُ أَنْ يَلْمَحَ صَدِيقاً مُبْطِئاً، وَلَمْ يُلْجَفِ «بَاتِيخُ». وَهَذَا هُوَذَا يَمْسُ بِكَلِمَةٍ وَدَاعٍ وَيَنْضَمُّ إِلَى أَقْرَبِ حَلْقَةٍ وَهِيَ لَا يَزَالُ يَرِاقِبُ الرَّجُلَ بِطَرَفِ عَيْنِهِ.

لَا يَزَالُ الرَّجُلُ الَّذِي قَالَ إِنَّ اسْمَهُ «سَيْتَايِي» وَاقِفاً فِي الْمَكَانِ نَفْسَهُ وَحِيداً مَدَاعِباً عَصَاهُ. وَعِنْدَمَا قُدِّمَ إِلَيْهِ قَدَحٌ مِنَ الْخَمْرِ تَنَاوَلَهُ وَاسْتَنْشَقَ عَطْرَهُ وَتَظَاهَرَ بِحَمَلِهِ إِلَى شَفْتَيْهِ، وَلَكِنَّهُ - كَمَا لَاحَظَ «بَاتِيخُ» - مَا لَبِثَ، بَعْدَ أَنْ اسْتَدَارَ السَّاقِي، أَنْ أَفْرَغَ الشَّرَابَ حَتَّى الثَّمَالَةِ عِنْدَ أَصْلِ إِحْدَى الْأَشْجَارِ؛ وَتَصَرَّفَ التَّصَرَّفَ نَفْسَهُ عِنْدَمَا قُدِّمَ إِلَيْهِ سَفُودٌ مِنَ الْجِرَادِ الْمُحَقَّقِصِ: بَدَأَ بِالرَّفْضِ، ثُمَّ أَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ جَرَّاءِ الْخَاحِمِ، وَمَا لَبِثَ أَنْ أَسْقَطَهَا خَلْفَهُ وَأَغْرَقَهَا فِي التَّرَابِ بِضَرْبَةٍ مِنْ عَقَبِ حَدَائِهِ قَبْلَ أَنْ يَنْحَنِي فَوْقَ الْحَوْضِ لَغَسْلِ أَصَابِعِهِ.

وَإِذَا كَانَ «بَاتِيخُ» مُسْتَغْرِقاً فِي هَذَا الْمَشْهَدِ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَصْغِي إِلَى غَاطِبِيهِ الَّذِينَ أَحْفَظْتَهُمُ الْأَمْرَ فَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ. وَكَانَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي أَلْهَاهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ صَوْتُ كَاهِنٍ فَتِيٍّ جَاءَ يُعْلِنُ أَنَّ الْإِحْتِفَالَ سَيَبْدَأُ وَيَدْعُو الْمُرِيدِينَ إِلَى الْإِسْرَاعِ نَحْوَ السَّلَمِ الْكَبِيرِ الْمُقْضِي إِلَى الْمَحْرَابِ. وَكَانَ لَا يَزَالُ فِي يَسَدٍ بَعْضُهُمْ قَدَحٍ أَوْ لُمَازَةً فَأَخَذُوا يَتَحَدَّثُونَ وَهُمْ سَائِرُونَ، بَيَدَ أَنْ خَطَاهُمْ لَمْ تَلْبِثْ أَنْ تَسَارَعَتْ لِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ أَنْ تَفُوتَهُ اللَّحْظَاتُ الْأُولَى مِنَ الْإِحْتِفَالِ.

الْيَوْمَ عَلَى الْأَخْصَصِ. فَقَدْ سَرَتْ بِالْفِعْلِ شَائِعَةٌ مُفَادِمَا أَنَّ «نَبُو» قَدْ تَمْلَمَلِ

البارحة فوق قاعدته، وهذه أمانة واضحة على رغبته في التحرك. بل لقد رؤيت قطرات من العرق تكبر فوق صدغيه وجبينه ولحيته، وقد وعده الكاهن الأكبر جاثياً على ركبتيه بتنظيم مسيرة هذا الأربعاء عند مغيب الشمس. وتبعاً لتقليد قديم فإن «نبو» يقود مواكبه بنفسه؛ ويكتفي الكهنة بحمله بأطراف أذرعهم عالياً جداً فوق رؤوسهم، ويدلهم الإله بنخزات خفية على الاتجاه الواجب اتخاذه. ففي بعض الأحيان يجعلهم يؤدون رقصة ماء، وفي أحيان أخرى يجعلهم يقومون بمسيرة طويلة بخط مستقيم تقودهم إلى مكان يطلب بأن يوضع فيه. وأدى حركاته عبارة عن وحي يبدل العرافون الحليقو الرؤوس قصارى جهدهم في تفسيره؛ إذ إن الوثن يتحدث عن غلال وحروب وأوبئة موجهاً أحياناً إلى هذا الشخص أو ذاك أمارات الفرج أو الموت.

وإذ بقي «سيتاي» وحيداً في الخارج والمؤمنون يدخلون المحراب أفواجاً وترتل المحتفلين يضحك فقد أخذ يذرع الفناء المفضي من الدرج الكبير إلى الباب الشرقي.

ولم تكن الشمس سوى عُرِف من القرميد المتقد، ويعيداً خلف «دجلة» اصطفت حلة المشاعل قوساً حول المذبح، وأخذ الكهنة يبخرون ثمثال «نبو»، والمرتلون ينشدون ترنيمة مصحوبة بإيقاع طبل رتيب:

يا «نبو» بن «مردوك» إننا ننتظر أقوالك!
جئنا من جميع البقاع لتملّ من صورتك!
وحين نسال فانت من يُجيب!
وحين ننشد الملاذ فانت من يحمي!
أنت الذي يعلم، أنت الذي يقول!
ومن ذا يستحق أن يتبع أكثر مما تستحق؟
ومن ذا يستحق قرابيننا أكثر مما تستحق؟
يا «نبو» بن «مردوك»، أيها الكوكب المتألق،
إن مكانك بين الآلهة لكبير.

ويبتسم «نبو» على ومضِ المشاعل المضطرب، وتبدو عيناه وكأنها تحضنان تقاطر المؤمنين. وها هو ذا يتصدّر واقفاً، وتمتدّ لحيته إلى منتصف صدره الملفوف بمخصر ضيقٍ، ويتسع رداؤه المصنوع من الخشب المضلع ليؤلف القاعدة التي يقف عليها. ويتقدّم ستة كهنة فيزيحون التمثال ويقيمونه على نقالة من الخشب يرفعونها فوق أكتافهم ثم أعلى فوق رؤوسهم. وبينما يتشكّل الموكب يرتفع الإله عند كلّ خطوة إلى أن يسبح في الفضاء. ويحده حاملوه خفيفاً جداً، وتكاد أيديهم الممدودة تلامسه، ويبدو وكأنه يُحوم فوق الحشد الذي يحث الخطى صائحاً من النشوة. ويدور الحاملون حول أنفسهم ثم يرسمون دائرة أوسع قبل أن يتوجّهوا إلى المخرج. ويتنحّى المؤمنون.

ها هو ذا الموكب الآن في الخارج، في الفناء الصغير. ويقوم الإله برقصة قصيرة حول بثر الماء الطهور قبل الاندفاع إلى السلم. وفي تلك اللحظة يتعثر أحد الكهنة ويجهد في استعادة توازنه قبل أن يدوم التالي بدوره ويتهالك. وإذ ترك التمثال فقد بدا وكأنه يثب نحو السلم الفخم فيهبط درجاته متقافراً تتبعه أعين الحشد الذي حجّره الدهول.

لم يستطع «باتيغ»، بالرغم من كونه محارباً، وبالرغم من كونه «پارتياً»، أن يحبس دمه. ولم يكن نذير شؤم هو الذي سبّب كربه - فالأمر بالنسبة إليه غير هذا، إنّ حماسه هي التي أهنت. فلقد رغب في الإيمان بـ «نبو»، وأحسّ بالحاجة إلى تأمله أسبوعاً إثر أسبوع، ضحياً فوق عرشه ومعصوماً وبلا عُمر وهائلاً من أفول الإمبراطوريات ومستخفّاً بالكوارث والتكبات. وفجأة هذه السقطة!

ومع ذلك فقد برزت فكرة منعه من الاستسلام إلى الشكوى والنحيب. فإذا وضع إحدى ركبتيه على الأرض في مكان المأساة فإنه لم يجد صعوبة في أن يلمح طرف عصاً مزروعاً بين بلاطتين من الرخام. وانتزعه. وتفحصه. ولم يكن هناك من شك، فلقد كان الطرف الأعلى قد نُشِر. وغمغم «باتيغ» قائلاً وهو يستعيد رؤية «سيتاي» متنزهاً في الفناء، ثم متوقفاً وغارزاً عصاه في التربة قبل

أن يلويها وينزعها بحركة فظة كما يفعل بعشب ضار: «يا للتدمري اللعين!». ثم اعتدل ويبحث بعينه حواليه عن الرجل ذي الملابس البيضاء. بلا جدوى. وأرعد مرة أخرى قائلاً «يا للتدمري اللعين!»، وساورته رغبة في أن يصرخ «إلى القاتل»، «إلى قاتل الآلهة»، وفي أن يرسل الحشد الفائر للملاحقة المُجَدَّف.

ولكن ها هم الكهنة أولاء يعودون حاملين بحيطة وحذر لا نفع منها قطع التمثال المحطمة، قطعة من الذراع ما تزال ملتصقة بالكثف، وخصلة من اللحية معلقة إلى شحمة أُذن. وانقلب غضب «باتيغ» إلى حزن مستسلم. وإنه ليجد تقريباً على «نَبو» أن يُقدّم مثل هذا المشهد. وابتعد حاضراً للتيه حتى انفجر في ممرات المعبد. ورجعت خطاه بشكل غريزي إلى طريق الخوض الضاوي. ونظر بعينه اللتين لا تزالان مغرورقتين إلى المكان الذي كان يقف فيه الرجل اللعين.

إنه هناك، «سيتاي». فوق البلاطة نفسها. في الوقفة عينها. ولا يزال يمثل البياض الذي كانه من رأسه إلى أخمص قدميه. ويده تربّت على مقبض عصاً قصرت بشكل فريد. وأقبل «باتيغ» فوقف في مواجهته وشده من رداءه وهزه.

- الويل لك أيها «النسمري»! لم فعلت ذلك؟.

ولم يُبَدِ الرجل دهشة ولا انزعاجاً، ولا حاول تخليص نفسه. وانطلقت كلمات هادئة واثقة.

- إذا كان «نَبو» هو الذي قاد حقاً خطى كهنته فهو إذن مَنْ جعلهم يتعمّرون. أم أنه كان يجهل، على الرغم من علمه بكل شيء، أي كنت قد كسرت عصاي في هذا المكان؟.

- لماذا أنت واجد على الآله «نَبو»؟ أيمكن قد عاقبك بشكل من الأشكال؟ أيمكن قد رفض إنقاذ ابن مريض؟.

- أجد على هذه العارضة الخشبية المنحوتة؟ إنه ليس في وسعها أن تُعاقب ولا

أن تَشْفِي . ماذا في وسع «نَبو» أن يفعل لك أو لي إذا لم يكن في وسعه أن يفعل شيئاً لنفسه ؟ .

- ها أنت ذا الآن تُجَدِّف . ألا تحترم الربوبية ؟ .

- الربّ الذي أعبدّه لا يسقط ولا يتحطّم ، وهو لا يخشى عصاي ولا سخرياتي . وهو وحده الذي يستحقّ وَرَعاً مثل ورعك .

- وما اسمه ؟ .

- إنه هو الذي يُطلق الأسماء على الكائنات والأشياء .

- ومن أجله هو حطّمت الصنم ؟ .

- لا ، وإنما من أجلك أنت أيها الرجل القادم من «أيكْتَبان» . أنت يا مَنْ تبحث عن الحقيقة ، أما زلت تنتظرها من فم «نَبو» ؟ .

ويستسلم «باتيغ» ويأتي فيجلس على حافة الخوض شارد اللبّ . وقد سَقَطَ في يده . ويتقدّم منه «سيتاي» ويضع راحة يده مبسوطة على رأسه . وإنما لحركة تمكّك تصحبها هذه الكلمات : .

- الحقيقة سيّئة مُتطلّبة يا «باتيغ» فلا تتسامح في أية خيانة ، وكل إخلاصك حقّ لها ، وكل لحظات حياتك هي ملكها . فهل الحقيقة هي ما تبحث عنه بالفعل ؟ .

- لا شيء غيرها ! .

- هل ترغب فيها حتى لتتخلّى عن كل شيء من أجلها ؟ .

- كل شيء .

- وإذا طُلب منك أنت غداً أن تحطّم صنماً فهل تفعل ؟ .

- وأجفل «باتيغ» وعدّل عن رأيه قائلاً : .

- ولماذا أحقد على «نَبو» ؟ لقد استُقبلتُ أرحاً في هذا المعبد وقاسمتهم نبيذهم

وأنصبتهم من قطع اللحم . وفتحت لي نساءً أذرعهن في بعض الأحيان حول هذا الخوض .

- منذ هذا اليوم لن تشرب الخمر أبداً ، ولن تأكل اللحم ، ولن تقرب أية امرأة ! .

- أية امرأة؟ لقد تركت زوجة في قريتي (ماردين) ! .

ولأنه لتوُسِّل ، فأفكار «باتيخ» مضطربة . غير أن «سيتايي» لا يدع له أية مهلة :

- عليك أن تتخلَّى عنها .

- سوف تلد بعد بضعة أسابيع . ولأنني لمتعجِّل أن أحمَل من وجهه وليدي الأول ! أيَّ أب سأكون إذا أنا تخَلَّيت عنها؟ .

- إذا كانت الحقيقة هي التي تشدها حقاً يا «باتيخ» فلن تجدها في معانقة امرأة ولا في صُراخ وليد . لقد قلت لك إن الحقيقة مُطلَّبة ، أما زلت راغباً فيها ، أم تراك قد عدلت؟ .

* * *

عندما ارتمت «مريم» لاهثة على صدره - وكانت قد هرعت إلى الطريق العليا للقائه - فأبعدها عنه بفتور بكلتا يديه قالت في نفسها إن زوجها فعل ما فعل بدافع الحياء ، فهو لا يريد أن يكون الغريب الذي يرافقه شاهداً على جَيْشان عواطفهما .

ومع ذلك فإنه يبدو أنها أهينت بعض الشيء . غير أنها تحرص على عدم إظهار ذلك وتحمل إلى الرجلين طسقي ماء ومنشفتين لإزالة غبار الطريق . وأما هي فقد احتجبت خلف ستارة . وعندما عادت إلى الظهور بعد ساعة فلنما لحمل مادية حقيقية إلى الشرفة . وبينما هي تتقدَّم حاملة طلائع المأدبة ، قدحين من خيرة الخمر من أرض (ماردين) ، تبعها خادمان وعلى أذرعها صينية واسعة

من النحاس فوقها أطباق وقدر. وإذا كان «باتيغ» يُصغي بكليته إلى الرجل اللابس البياض وهو يحدثه بصوت خافت فإنه لم يسمع وَقَعَ الأقدام المقترية.

وأشارت «مريم» إلى الخادمين ألا يُحدثا أي صوت وهما يصفآن ألوان الطعام فوق المائدة الواطئة. وإذا حدث أن اصطدم طبقان ارتسمت فوق وجهها تكشيرة؛ ولكنها تأكدت في اللحظة التالية من منظر هذه الهدايا الصغيرة التي يحبها «باتيغ» بِشَرِّهِ، مُحَّ بيض مسلوق متوج بقطرة عسل، سفائن تُدْرَج بمعجون التمر. ففي الأيام التي يذهب فيها رَجُلُهَا إلى «المدائن» تشغل نفسها على هذا النحو متفنتة بتحضير أشهى الأطعمة له؛ وعليه فسوف يكون دائماً على عجلة من أمره للعودة، وإذا ما كان بصحبة بعض الأصدقاء فإنه بدلاً من الذهاب لنسيان أنفسهم في بعض الحانات يقودهم باعتزاز إلى بيته وهو واثق من أنهم سيلقون من الحفاوة فوق ما يلقاه ندماء ملك من الملوك.

ألقت «مريم» نظرة أخيرة للتأكد من أن كل شيء كان في مكانه، ثم ذهبت للجلوس فوق حشية في طرف الحجرة الأخرى. فعندما يكون زوجها وحده تتعشى معه في بعض الأحيان؛ ولا تفعل ذلك قط حين يكون عنده ضيوف. إلا أنها لا تبتعد قط حرصاً منها على التأكد في كل لحظة من أنه لا ينقص الضيوف شيء.

ومضت دقائق طويلة و«باتيغ» و«سيتاي» منصرفان إلى ثروتهما فلم يمدا بعداً يديهما إلى المائدة. ولكن أيكونان قد لاحظا المأدبة المبلولة لهما أو شيئاً رائحة الطعام التي تملأ أرجاء الشرفة؟ وتأسى «مريم» في سكون. فحتى لو كانا قد توقفا في أثناء الطريق للأكل فإن عليهما، على الأقل، وبدافع الأدب وحسب، أن يتناولوا كُرْبِيَّة لحم أو حبة زيتون أو جرعة صغيرة من هذين القدحين اللذين وضعتهما أمامهما تماماً.

ولكن ما هوذا الضيف يُخرج من تحت رداءه نوعاً من منديل فيسطه فوق ركبتيه، ويتناول منه رغيفاً أسمر فيشقفه ويحمل قطعة منه إلى فمه. ويُنسي المشهد «مريم» أن تتنفس. كذا يُهمل هذا الشخص كل ما حضرته ليزدرد

قطعة خبز مبتذلة ! ثم إن الأمر لما ينتهِ . فها هو ذا يزيد من حلّ المنديل ويُخرج منه قثاءتين ذابلتين فيغمسهما في إبريق ماء قبل أن يُعطي إحداهما لمضيفه . ويحتفظ «پاتيغ» ، وقد بدا عليه الارتباك ، بقثاءته في يده ، وأما «التدمري» فيخضم قثاءته جهاراً .

وإذ لم تعد «مريم» تطيق صبراً فإنها تتقدم من الشخص العجيب وتقول : .
- أياكون في هذه الوجبة ما يزعج ضيفنا؟ .

ولا يجيب الرجل بشيء . ويسرح بصره بعيداً . وها هو ذا «پاتيغ» يتدخل قائلاً : .

- لا يقدر زائرنا أن يأكل من هذا الزاد .

وتتأمل «مريم» المائدة في أسي .

- عن أي زاد تتحدث؟ إن هذا أشياء كثيرة مختلفة . أطباق مطبوخة بالزيت وأخرى بالسمن وثالثة مشوية أو مسلوقة ، وهنا لحوم وخضّر نيئة ، بل حتى قثاء . ألا يستطيع ضيفنا مس شيء من هذا كله؟ .

- لا تُلحفي يا «مريم» ، اذهبي ولا تضايقي زائرنا .

- وأنت يا «پاتيغ» ، ألسنت جائعاً بعد الرحلة؟ .

وأعاد زوجها بحركة من يده إشارة الإبعاد التي بدرت منه لدى وصوله . وذلك قبل أن يضيف : .

- أرجعي هذا كله يا «مريم» فلا أنا ولا هو جائعان ، ولسنا نرغب في أي طعام . أليس في مقدورك يا تُرى أن تتركينا وحدنا؟ .

لم تنتظر أن تغادر الحجرة لتنفجر باكياً . وهرعت إلى مخدعها وهي تمسك بطنها بيديها وكأنه سيتدحرج عند قدَمَيها . وسارعت إليها «أوتاكيم» خادمتها

العجوز وصديقتها الوحيدة فوجدتها جالسة على الأرض ذاهلة حائرة الزفريات مُتَّجِبة.

- صحيح إذن ما يُقال عن الرجال من أنه تكفي رُقية مؤذية أو لقاء أو إكسير لكي يُقْبِلَ حُبهم أو يُدْبِرَا.

لقد شهدت «أوتاكيم» ولادة «مريم». وعندما ماتت أمها على فراش الولادة، كانت هي التي أرضعتها، وهي التي ألبستها وزيّنتها عشية زفافها. فمن خيرٍ منها لمؤاساتها؟

- تعرفين زوجك، فما إن تشغلّه فكرة حتى ينسى معها أن يأكل، ويأخذ بالشحوب والنحول حتى يُظَنُّ أنه عاشق. ألا تعرفين أنه كذلك؟ اليوم عنده هذا الزائر وهو يتغذى بكلماته، ولسوف ينساه غداً ويعود عبثاً ملحاحاً وأباً نافذ الصبر! لقد كان هكذا دائماً، وهكذا أحببته.

- عيناه يا «أوتاكيم»، أنتِ لم تَرَيِ عينيه! إنه ليكفيني في العادة أن ألتقيهما لحظة لكي أنسى الآلام والهواجس. ولو حدّثني عيناه لكنت أهملت بنات شفّتيه وحركات يديه. بيد أن عينيه لم تقولاً لي شيئاً هذا المساء.

ووبختها «أوتاكيم» بحرّح: .

- ألا تعلمين أنه ما من رجل يكون رقيقاً عطوفاً بحضور شخص غريب؟ لن يلبث الزائر أن يذهب للنوم فيُقبل سيّدنا للقائك. هيّا، دعيني أحلّ ضفائرك.

واستسلمت «مريم» لليدين اللتين لم تنفكا عن هدهدتها. وها قد خيم الليل وسوف يأتي رجُلُها. إنه لم يسبق له قط أن ابتعد عن جانبها. واستلقت ورأسها فوق وسادة ورجلاها العاريتان فوق أخرى أرفع منها. وجلست «أوتاكيم» بطرف عجزتها فوق صندوق بجانب السرير وأمسكت بأصابع سيّدتها وأخذت تداعبها على مهل وترفعها أحياناً إلى شفّتيها. وغمرت بناظرها الوجه الوردّي الذي يوطّره شعر ذو انعكاسات بلون الحُبّازي. ولقد ودّت أن تقول لها:

«أعرفك جيداً يا «مريم». إن لك لَيْدَيَّ بنات الملوك الناعمين وقلباً هشاً من قلوب اللواتي مَحْضُهُنَّ أَب حَبّاً كثيراً. لقد أحاطت بك الدُمى من كل صوب وأنت طفلة، وغطتكَ الحَلِيّ إذ أدركتِ ورُففتِ إلى الرجل الذي اخترته. ثم جئتِ تعيشين على هذه الأرض السخية وقد أخذ زوجك بيدك. وكما في اليوم الأول فإنكما تسيران في البساتين التي تملكناها، وهناك في كل موسم آلاف الثمار برسم القُطاف. وها هو ذا بطنك يحمل الطفل. يا للُبْنَةِ المسكينة إنك لتعيشين في سعادة غامرة منذ زمن طويل بحيث يكفي أن ترتابي في صِيفِي رَجُلِكَ بأدنى غياب، بابتعادٍ أكثر ما يكون عابراً، لكي تميد بك الأرض وتُظْلِمَ الدنيا من حولك».

وتعيد «أوتاكيم» بإبهامها تزجيج الحاحيين اللزجين فوق جبين التي ستبقى في نظرها صبيّة صغيرة. وتفتح «مريم» عينيها بعد أن كانت قد بدأت تهوّم في النوم وتتوسّل إلى الخادم فتأخذ هذه بسرّد الأخبار.

- إنها يتحدثان، لا يتوقّfan عن الحديث. أو هو الزائر بالحري الذي يتكلّم وسيّدنا يتجنّب أن يقاطعه.

لو كان رأس «مريم» أقلّ ضبايية لاكتشفت في صوت «أوتاكيم» ارتجافة الكذب. فلقد سمعت هذه بالفعل أصوات محادثة، غير أن الرجلين لم يكونا على الشرفة، وقد فرش «باتيغ» حصيراً في غرفة الضيوف لقضاء الليل فيها.

ولقد قلقت «أوتاكيم» بدورها حتى جافاها النوم، ولكنها تتظاهر به وهي خُدعة قديمة من خُدَع المراضع كانت تفعل فعلها في «مريم» الطفلة ولا تزال ناجعة. والحق أن سيّدتها لم تتجاوز الرابعة عشرة على الرغم من كونها زوجة وأماً عمّا قريب. وسرعان ما غدا تنفّسها أبطاً وأشدّ انتظاماً، حتى وإن بدر فُواقٍ من حين إلى حين مذكّراً بأن الصبيّة قد نامت من غير أن يُطَيّبَ خاطرها.

كان المصباح المعلق على الجدار يستنفد زيتَه عندما اعتدلت «مريم» دفعة واحدة.

- ابني ! انهم يأخذون ابني !.

ها هي ذي تصرخ وتشتبث بالأغطية . وتمسك بها «أوتاكيم» بشدة من كنفها .

- إنه كابوس يا «مريم» ! لم يأخذ أحد ابنك، إنه هنا في بطنك، تحمي تماماً، وما زلنا لا ندري إذا كان ابناً أو ابنة .
ولا تهدأ «مريم» .

- لقد ظهر لي ملاك، وكان يطير ويطنّ وكأنه يعسوب ضخم، ثم حطّ أمامي . وفي اللحظة التي أردت أن أهرب فيها قال لي ألا أخاف، ولقد كان على كلّ حال من الرقة واللفظ بحيث تركته يدنو مني . وفجأة مدّ كلمح بالبصر يدين ذواتي مخالب كأنها ملاقط وأخرج الطفل من أحشائي ليطير به إلى السماء عالياً جداً، وما لبثت أن عجزت عن تبنيها .

ولا تجد «أوتاكيم» الكلمات اللازمة لتطبيب الحاطر . فهي تعلم أنه ما من حلم يتحلّى قطّ بالبراءة، وتعدّ نفسها بالذهاب إلى شيخ البلد لاستفسارهم عن هذا النذير .

ويدخل ضياء الصباح الأول من كوة مشبكة . و«مريم» تتحبب . فزوجها لم يأت . وتنهض الخادم وتدخل غرفة الضيوف بخطوة مسعورة . و«سيتايي» الذي كان قد استيقظ يصلي جاثياً على ركبتيه؛ و«باتيغ» نائم . وتمرّزه متظاهرة بالدعر :

- سيّدي ليست على ما يرام ! إنها بحاجة إليك !.

ويهرع «باتيغ» والنوم لا يزال يعكّر وجهه إلى زوجته فتأخذ بالنشيج إذ تراه .

- لقد حلمت حلماً مُفزعاً وناديتك ولم تكن موجوداً .

- لم أسمع شيئاً .

- لم أنت بعيد عني جداً يا «باتيغ» ؟ لماذا تهرب مني ؟ .

وإذا كان «باتينغ» قد اندفع إلى سرير زوجته بفعل عفوية الاستيقاظ فلإنه استعاد البرودة التي كان عليها في العشيّة إذ ثاب إلى رصده. وإذا بدا جلياً أنه يشعر بالانزعاج وهو في غرفة «مريم»، فما هو ذا يتحاشى بغتة الجلوس على فراشها، فراشه الزوجي، وما هو ذا عاجز عن إبعاد نظره عن الباب وكأنه يخشى قدوم رقيب. وإنه ليقسو بإزاء لوم زوجته لإياه فيقول:

- عندما يستقبل المرء ضعيفاً فإن عليه أن يبقى إلى جانبه، هل تجهلين هذا؟.

- من هو هذا الرجل؟ إنه يُخيفني.

- سوف يقلّ خوفك منه إذا كنت قادرة على تلقي كلماته الحكيمة.

- وما تلك الكلمات التي تتحدّث عنها؟ إن هذا الرجل لم يكلمني مرة واحدة!.

- ليس في وسع امرأة فهم ما يقول.

- وما الذي يقوله ليكون بمثل هذه الأهمية؟

- إنه يحدثني عن إلهه، الإله الواحد الأحد، وقد وعدني بأن يقودني إليه. بيد أن عليّ أن أستحقّ ذلك، أن أكفر عن أعوام عبادة الأوثان. فلن أكل طعام الكفرة، ولن أشرب الخمر، ولن أتمدّد أبداً بجانب امرأة. لا أنت ولا أية واحدة أخرى.

- لستُ طعاماً ولا شراباً وأنا أم ولدك. أو ما كنت تقول أيضاً إنني رفيقتك، صديقتك؟ وهل عليك كذلك أن تهجر جميع الناس لتعيش عيش ناسك؟

- سأعيش مع جماعة من المؤمنين ليس فيهم إلّا الرجال. ولا تُقبل فيها أية امرأة.

- حتى زوجتك؟

- حتى أنت يا «مريم». إنه إله متطلّب.

- ما هو يا تُرى هذا الإله الذي يغار من امرأة؟

- هذا الإله إلهي، وإذا كنت ستُجدّفين فسوف أخرج من هنا في الحال ولن تُرني أبداً!

- ساعني يا «باتيغ».

وسالت دموعها، دموع الصبيّة، بصمت، وخلا ذهنها من كل انتظار، ووضعت جبينها فوق ذراع الرجل بخَفَرٍ ولطفٍ من غير أن تضغط، جاعلة من نفسها كيئاً بخفّة خصلة من خصلات شعرها. تُرى هل ستعيش مع الزوج من جديد ذات يوم. هذه اللحظات الوادعة التي تكون فيها الحرارة انتعاشاً والدبق عطراً والبقظة نسياناً؟ ويبدو لا تزال خرقاء، وإن كانت قد ازدادت حناناً لأمس «باتيغ» شعرها؛ واستعاد في السكون والعتمة حركات الحنن والرفق التي تصدر عنه بلا تكلف؛ ونفرت من عينيه أيضاً بعض الدموع.

وفي هذه الأثناء تغلغل خلال الباب الموارب صوت «سيتاي» منادياً مضيفه وقد أنهى صلاته.

- «باتيغ»! علينا أن ننطلق فالطريق أمامنا طويل.

أما كان على الزوج أن يلعن العَدُول؟ لا، بل هي «مريم» التي دفعها عنه بخشونة. وما هو ذا يركض من غير أن يلتفت قط.

القسم الأول

بستان نكيل «أصحاب الملايس البيضاء»

وسط هؤلاء الناس
برزتُ بحكمة وحيلة...
(مالي)

- ١ -

الطفل الذي كانت «مريم» تنتظره إنما هو «ماني».

ويقال إنه وُلِدَ في عام ٥٢٧ من تقويم فلَكْيي «بابل»، في اليوم الثامن من شهر «نيسان» - اليوم الرابع عشر من شهر «أبريل» عام ٢١٦ م بالنسبة إلى التقويم المسيحي، وكان يومَ «أحد». وكان يترَبَّع «أرطبان» على عرش (المدائن)، ويحكم «كركلّا» بقسوة في (روما).

وكان أبوه قد رحل. لا إلى بعيد جداً بطريق السفر، ولكن إلى عالم غريب ومُغْلَق. فنزولاً من (ماردين)، على مسيرة يومين من القناة الكبرى التي حفرها الجدود شرقي «دجلة»، كان يقوم بستان النخيل الذي يحكمه «سيتاي» سيداً ومُرشداً. وكان يغيث فيه زهاء ستين رجلاً من مختلف الأعمار والأصول، رجالاً ذوو طقوس تتجاوز المألوف، رجال كان التاريخ سيهملهم لو لم يتقاطع دربهم ذات يوم ودرب «ماني». وكانوا، على غرار جماعات أخرى ظهرت في تلك الأيام على ضفاف «دجلة» أو «العاصي» أو «الفرات» أو «الأردن»، يدعون أنهم نصارى ويهود في الوقت نفسه، ولكنهم النصارى الوحيدون الحقيقيون واليهود الوحيدون الحقيقيون. وكانوا يتنبأون كذلك بأن نهاية العالم كانت وشيكة؛ وأنه لا ريب في أن عالماً ما كان يُخْتَضَر...

وكانوا يُسَمُّونَ في لغة البلاد «حَلَّة حوارة»، وهما كلمتان آراميتان تعنيان «الملابس البيضاء».

وقد اختار هؤلاء الرجال جوار الماء وهم يتوقعون منه الطُّهر والسلام، ويبتهلون إلى «يوحنا المعمدان» و«آدم» وإلى «يسوع الناصري» و«توما» الذي يقولون إنه توأمه، وأكثر من أولاء جميعاً إلى نبيٍّ مجهول اسمه «إيسع» وعنه كتابهم المقدس وتعاليمهم: «أيها الناس احذروا النار فإنها ليست سوى خيبة وخداع، ترونها قرية في حين أنها بعيدة، ويعيدة في حين أنها قريبة، النار سحر وكيمياء، إنها دم وعذاب. لا تجتمعوا حول المذابح التي ترتفع منها نيران الأضاحي، وابتعدوا عن أولئك الذين يذبحون المخلوقات وهم يظنون أنهم يُرضون الخالق، ولا تقربوا من يقربون القربان ويقتلون. تجنبوا مظهر النار واتبعوا بالحري طريق الماء فكل ما يمسه يستعيد نقاءه الأول، ومن الماء تُولدُ كل حياة. وإذا عَصَبْت أحدكم بهيمة مؤذية فليهرع إلى أقرب مجرى ماء فيغمس نفسه فيه وهو يُسَبِّح اسم «الربِّ الأعلى» بإخلاص؛ وإذا مرض أحدكم فليغمس نفسه سبع مرَّات في النهر فتبتدِّد الحمى في برودة الماء».

في اليوم التالي لوصره إلى بستان النخيل اقتيد «باتيغ» في موكب إلى خيمة المعمودية. وقد صحبته الجماعة بأسرها، فكان هناك قلة قليلة من الأولاد وبعض الرؤوس الشائبة، بيد أن معظم الموجودين بدؤوا في سنِّ تراوح بين العشرين والثلاثين. وكان كل واحد منهم قد اقترب من القادم الجديد للتفرَّس في وجهه وترتيل مقطع من دُعاء له.

وبإشارة من «سيتايي» خاض «باتيغ» عندئذٍ ماء الترعة بجميع ملابسه وغاص فيه حتى غمر جبينه، ثم اعتدل وأخذ يخلع ثيابه قطعة قطعة على أنها زينة تعود إلى زمن الكفر وقد تخلص منها مشمئزاً بانتظار أن يحملها تيار وادع إلى غير رجعة. وبينما كان نشيدٌ يتعالى سعى الشاب، وقد وجد نفسه نحيلاً وعارياً بين هذا القُدْر من العيون المحدقة، إلى سَرَجسده يبيديه المرتعشتين.

لأن مياه «دجلة» كانت لا تزال تحتفظ بذكرى ثلوج جبال «طوروس» وبرودتها، على الرغم من أن شمس الربيع كانت قد بدأت تنشر الدفء والحرارة.

بيد أنها لم تكن إلا تجربة أولى. فقد كان ينبغي عليه أن يغوص مرة ثانية في التربة ويترك أحدهم يميز لحيته وشعره قبل أن يغمس له رأسه مرة أخيرة تحت سطح الماء فيما تدوي هذه الكلمات: «ها قد مات الرجل القديم، ها قد وُلِدَ الرجل الجديد وقد عُمد ثلاثاً في الماء المُطَهَّر. أهلاً بك بين إخوتك. وما دمت حياً فتذكر هذا: إن مثل جماعتنا كمثل شجرة الزيتون. يقطف الجاهل ثمرتها ويخضمها؛ وإذا يجيد طعمها مرّاً فإنه يطرحها بعيداً. إلا أن هذه الثمرة نفسها تتكشف، إذ يقطفها المدرّب الذي أنضج وتُعهد، عن طعم للذيذ، وتقْدَم فوق ذلك الزيت والنور. كذلك هو ديننا. فإذا جَبِنتُ أمام طَعْمِ المارة الأول لم تبلغ السلامة أبداً».

لقد أصغى «باتيغ» معلناً التوبة، ومرّر يده بلا أسف على شعره الحليق وبقيّة لحيته، وعاهد نفسه على أن يُدير ظهره لحياته الماضية ويخضع من غير رعدة من شكّ لأنظمة الجماعة. ومع ذلك فقد كان يعلم أن الوقت لم يكن في بستان النخيل سوى سُبْحَةٍ من أعمال الإكراه: هناك أولاً الدعاء والترتيل وإقامة الشعائر والعبادات اليومية العابرة أو الاحتفالية، وعمليات النُضج والوضوء المختلفة، على أساس أن أدنى تدنّس حقيقيّ أو مُرتاب به ذريعة إلى عمليات تطهّر متجدّدة؛ ثم تأتي دراسة النصوص المقدّسة، الإنجيل برواية «توما» والإنجيل برواية «فيليب»، أو «سفر الرؤيا» برواية «بطرس»، وقد أعاد «سيتايي» قراءتها وعلّق عليها مشات المرّات ونسخها بلا كَلَلٍ مَنْ يتميّزون بجودة الخطّ من «الإخوة»؛ وكان يضاف إلى هذه الواجبات التي تدغدغ حميّة «باتيغ» وفضوله النّهم واجباتٌ أخرى لم تكن قطّ لتروق له.

كان «أصحاب الملابس البيضاء» يباهون في الواقع بأنهم يملكون خير أراضي الجوار تعهداً وأكثرها خصباً، فقد كانت تُغدق عليهم القوت وفائضاً وافراً كانوا يذهبون لبيعه في النواحي المحيطة بهم. وكان «باتيغ» يستفزع هذا النشاط

الأخير وَيَسْتَهْوِئُهُ: الذهاب في الصباح الباكر بحمل من الشَّام أو الفِرْع، ونشر هذه البضاعة في ساحة إحدى القرى، وانتظار بعض الزبائن القُرْعان في الشمس، وتحمل ألف سُخْرية... كيف كان لابين من أبناء الطبقة النبيلة «البارتية» أن يتحمل هذا كله؟ وفاتح «سيتاي» ذات يوم بالأمر، غير أن جواب هذا كان بلا جدوى: «أعلم أنك تحب الصلاة والدرس، وأنتك تجد فيهما ما يَسْرُكُ ويُرضيك. إن العمل في الحقول وبيع ثمارنا في القرية هما النشاطان اللذان تُلْزم بهما نفسك لإرضاء «الله تعالى»، وتريد أن تُعفى منهما؟». لقد كانت المسألة محسومة. فسوف يفضي «باتيغ» سنوات طويلة في حرث حقول الجماعة في حين أنه، على بُعد مرحلتين من هنا، وعلى ضفاف هذه التربة بالذات، يقوم فلاحيه بحرث الأراضي التي يملكها ولكنه كان قد استنكف عن الاغتداء بخيراتها.

فلقد كان «أصحاب الملابس البيضاء» يتقيدون بأنظمة غذائية صارمة؛ وإذا لم يكتفوا بتحريم اللحم والمشروبات المخمرة على أنفسهم، وبالاقتصار على الصوم في كثير من الأوقات، فإنهم لم يكونوا يَطْعَمُونَ قط ما يأتي من الخارج. فلم يكونوا يأكلون إلا الخبز الخالي من الخميرة والخارج من قُرْنَم، ومن هشم الخبز الرومي كان في نظرهم كافراً. وبالطريقة نفسها فإنهم لم يكونوا يتسهلون غير الشار والخُضَر التي تُنتجها أرضهم متحدثين بصدها عن «نبات مُذَكِّر»، في حين أن كل ما يُزرع في الخارج «نبات مُؤَنَّث» ومحظور على أفراد الطائفة.

فيم الدهشة من هذه التسمية؟ فما هو أنثى محظور، وما هو محظور أنثى، وقد كان في هذا لهؤلاء الرجال معادلة كاملة. وقد كانت هذه الكلمة تتردد بلا انقطاع في عظات «سيتاي» بمعنى «مشؤوم» أو «شيطاني» أو «كدير» أو «خطير على النفس». وكان هو نفسه يتحاشى تسمية النساء المذكورات في الكتب المقدسة، إن لم يكن للتذكير بالكوارث التي كنَّ السبب في حدوثها. وكان يذكر مختاراً «حواء» و«باتشيع» [زوجة «داود» وأم «سليمان». وقد خطفها «داود» من زوجها «يوري» بعد أن قتله فأنجبت له أربعة أولاد أولهم «سليمان»]، ولا سيما

«سالمويه»، ولكنه نادراً ما كان يذكر «سارة» أو «مريم» أو «روبيكا». وسرعان ما تعلّم «باتيغ» أنه لا يحسّن بالرجل في بستان النخيل أن يذكر زوجته أو أمّه؛ وحتى كلمة «ولادة» لم تكن لائقة إلا إذا تكلم المرء عن العمادة أو عن الدخول في الجساعة؛ وإلا كان من الأفضل أن يقول «القدوم». ومع ذلك فإن حظر الزواج لم يكن مستعملاً في جماعة مجرى الماء؛ ألم يتخذ «يوحنا المعمدان» زوجة؟ بيد أن «سيتاي» كان قد رغب في سنّ قاعدة أكثر تشدداً، وقد كانت مدعاة زهو وافتخار من مريديه: عندما يختار الإنسان أضيق الطرق لبلوغ النساء، أفلا يكون أكثر الناس استحقاقاً لها من هو أكثرهم عذاباً واستنكافاً وحرماناً؟

وهذا هو السبب في أن «باتيغ» لم يسعَ إلى معرفة ما إذا كانت «مريم» قد وضعت حملها في غيابه، ولأيّ طفل هو بعد اليوم أبّ. وكيف السبيل إلى استئذان «سيتاي» بزيارة الوليد من غير أن يجعله يظنّ أنه نادم أو متردّد، أو أنه يفكر في إعادة الارتباط بحياته السابقة. وعندئذٍ استسلم وذبل فضوله وانتهى به الأمر إلى عدم التفكير في الموضوع، أو إلى التقليل جداً من التفكير فيه.

وما كانت أشدّ دهشته عندما أمره «سيتاي» نفسه بعد عدة أشهر بزيارة أهله:

- إذا كان مَنْ أبصر النور بتأّ فلتبقَ مع أمها؛ ولكن إذا كان صبيّاً فمكانه بيننا، وليس في وسعك أن تتركه إلى الأبد بين أيدي دنسة.

وسار «باتيغ» في الطريق إلى (ماردين) يحرسه في واقع الأمر اثنان من «الإخوة».

ما إن وصل أمام منزله حتى جمد خارج السياج ليصرخ:

- «أوتاكيم»!

وكان على الخادم وقد خرجت حافية وفي يدها قياط أن تقترب عن كَثْب من

الزائر لتتعرف إلى رأسه الحليق الذي بدا وكأنه قد اختُزِل. وفسح «پاتينغ» في المجال للتفرّس فيه.

- قولي لي يا «أوتاكيم»، هل وضعت سيّدتك؟

- إنك لا تريد أن تبقى حاملاً ثلاثة عشر شهراً!

وابتسم رفيقا «پاتينغ». واكتفى هو نفسه بطرح أسئلته:

- أهو صبي؟

- أجل، صبي سمين كثير الجوع والصباح.

وإذ ذكرت الخادُم الوليدَ فقد أشرق وجهها بفتوةٍ مباغتة لم يكلف «پاتينغ» نفسه عناء ملاحظتها.

- هل مُنح اسماً؟

- اسمه «ماني» كما كنت قد قرّرت.

- قولي لسيّدتك إني سآتي لأخذ ابني ما إن يُفطم.

وإذ أبلغ رسالته فقد استدار ليرحل في حركات تشبه حركات إنسان مُروّص، في حين صرخت «أوتاكيم»:

- هل تريد فقط أن تعرف ما إذا كانت صاحبتك قد بقيت على قيد الحياة؟

فعل الأمر فعله على الأثر. وأجفل وعاد على عقبيه وقد بدا جلياً أنه ممتعض لعدم ثمّكته من إتمام مهمّته على الوجه الذي كان قد انتواه؛ وقد كان عليه أن يبذل جهداً ليقول:

- كيف حال «مريم»؟

وعندئذٍ حان دور «أوتاكيم» لكي تُشيع وقد اكتسى وجهها فجأة بالغمّ. ومن غير أن تزيد حرفاً توجّهت بخطى حثيثة نحو البيت فيما أخذ «پاتينغ» يتململ ويناديهما ويبتهل إليهما أن تتوقّف وأن تحبيه. بيد أن الخادُم كانت قد غدت

صمّاء. وتردّد هو، واستشار بناظريه رفيقيه اللذين نصحاه بالرحيل وقد ألقفهما
جبرى الأحداث. ولكن كيف كان في مقدوره أن يفعل؟ فلم يكن له بدّ من أن
يعرف ما حدث. واجتاز السياج واندفع إلى المنزل وكأنه عاد ملكه من جديد.

وفي هذه اللحظة هرعت «مريم»، وكانت منهمكة في العمل في مسكية
الخضّر بالحديقة خلف المطابخ، وقد وضعت يديها حول فمها بشكل بوق؛
وأشارت إليها «أوتاكيم» بحركات يائسة، وقد طار صواها، أن تصمت
وتخفي. فلقد كانت تريد أن يدخل «باتيخ» المنزل، وأن ينفك لحظة من
حيطته وحذره، غير أن «مريم» لم تشاهدها. وقد سبق أن كانت تصيح باسم
زوجها الذي ظنّت أنه عاد. وإذ اطمأنّ إلى أنها ما زالت حيّة، ولم يكن يطلب
أكثر من ذلك، فقد ولّى الأدبار لملاقاة «أخويه».

وابتعد الثلاثة وهم يشمّرون أذيال أثوابهم البيضاء. وأدركت «مريم» أنه
ليس في وسعها اللحاق بهم.

لم تكن الأم الشابة لتعرف، في غمرة البلبال الذي كان يستولي عليها مدّاك،
بأي إله تستجير، حتى وإن استبعدت على الفور إله «سيتاي». أكان عليها أن
تحمل ابنها بعيداً من هنا، إلى (ميديا) مسقط رأسها؟ ولكن لتقيم في أي منزل؟
فلقد مات أبوها واقتسم إخوتها الممتلكات. ولم يكن في مقدورها تبعاً للرّشاد أن
تترك ملكها وأراضيها وخدّمها، وأن تتخلّى عن كل أمل في استعادة زوجها
لتهيم في الطرق بحثاً عمّن يرغب، ذكراً كان أو أنثى، في استقبالتها. فما العمل
إذن؟ أن ترضع ابنها بانتظار أن يأتي أب لا يرى لانتزاعه منها إلى الأبد؟

كانت أيام الكرب هذه بالنسبة إلى «مريم» أيام خراب أيضاً بالنسبة إلى (ما
بين النهرين). ومع ذلك فقد حُكي عن السلام في تلك السنة بين «الرومان»
و«الپارتين». بل لقد طلب الإمبراطور «كركلّا» من «أرطبان» أن يزوجه ابته
فوافق. وكان مقرّراً أن يتمّ ارتباطهما في احتفال بـ «المدائن» في معبد «ميترا»
الربّ الوحيد الذي كان يجلّه العاهلان على قدم المساواة. وعليه فقد كانت

المدينة تستعدّ للاحتفال بالسلام وبالزفاف في آن معاً.

وعليه فقد وصل «كركلّا» ذات يوم مرتدياً قميصه الغالي الطويل يحيط به عن قرب حرسه وتبعه كتائبه. ولكنهم لم يكادوا يجتازون جسر «سلوبية» حتى دوت صرخة في صفوفهم. وكانت تلك الإشارة المتفق عليها لكي ينقض كل «روماني» شاهراً سيفه على أقرب «بارتي» إليه. وذبح أبناء الطبقة النبيلة الشبرجون الرافلون في أثوابهم الاحتفالية، وبينهم عدد كبير من عشيرة «كسارغام» التي منها «مريم»؛ ثم أتى دور البلديين فأخذ عدد من الرجال والنساء يندافعون ليكونوا شهوداً على تلك اللقاءات المشهودة. ونهب «الرومان» وأحرقوا القصور والمعابد، وأولها معبد «نبو»، كما لو كان لإنجاز نبوءة الصنم المشؤومة.

وعندها حشد «أرطبان» وزعماء الأسر الكبيرة السبع عساكرهم في حديقة «أسپانابر» لدفع المجتاحين. ولكن ما الجدوى؟ فلم يكن الأمر أمراً جنيحاً وإنما هي غارة على طريقة «كركلّا» بكل ما في الكلمة من معنى. فها هي إلا ساعة حتى كان «الرومان» يغادرون المدينة لملاقاة معظم عديد جيشهم الذي كان يعسكر حول ممر (ماهوزيه) الجبلي. وأراد «الخالدون»، وهم صفوة القتاتلين، أن يلحقوا بهم، غير أن «أرطبان» منعهم خوفاً من الوقوع في كمين، إذ كان مقتنعاً بأن عمل «كركلّا» لم يكن يستهدف سوى إثارة الجيش «البارتي» لكي يخرج خارج المدينة فيُمزق إزباً.

وإذ خاب رجاء «الرومان» لأن المواجهة لم تحدث بعد انتظار ثلاثة أيام فقد قرّروا الانتقام. وخلال أسابيع وشهور، وخلال السنة الأولى بأكملها من حياة «ماني»، ضرب إعصار «كركلّا» (ما بين النهرين) عظمًا نواويس الملوك القدماء، محرقاً حقول القمح، مُقتلِعاً أكروم، مُطليحاً رؤوس الفلاحين والنخيل.

وإنها لمعجزة أن تنجو (ماردين). فقد وصلت الجيوش الرومانية إلى أطراف البلدة، واحتبست «مريم» في المنزل مع ابنها و«أوتساكيم» وخَلمها وبعض الفلاحين والعييد. وكانوا ينتظرون ما لا بدّ منه. غير أن ما لا بدّ منه كان قد تحوّل. وذات يوم سرته شائعة لا يُندرى كيف، عبر الأزقة المقفرة: لقد مات

«كركلاً» مقتولاً في (حرّان) شمالي (ما بين النهرين). بين جنوده بالذات.
واستقبل خبر الموت من (روما) حتى (المدائن) من غير فيض من الحزن.

لم يأتِ «باتيغ» قطّ طوال هذا العام من الاضطراب لوطء أرض (ماردين)،
ولا حاول قطّ تسقط أخبارها. ولم يعد إلى الظهور إلا بعد ذلك بكثير وقد
قارب «ماني» أن يُنهي عامه الثالث. وكما في السابق فقد حضر بصحبة «أخوين»
حارسين؛ وكما في السابق فقد ظلّ خارج السياج.

- «أوتاكيم»! لقد جئت أخذ ابني.

ولم تظهر الخادم أية حفاوة. وخاطبته وهي مستندة إلى الباب، من طرف
الفناء الصغير الآخر بصوت أهل الريف الزاعق من بعيد.

- إن «مريم» تُرضعه ثديها. في وسعك الانتظار في الخارج. إلا إذا أردت
الدخول لرؤيتهما.

واحرّ «باتيغ» لمجرد التفكير في وجدان نفسه أمام زوجته عارية وهي تُرضع
ابنه وأدار نحو رقيقه نظرة كارهة وكأنه يُبرئ نفسه وهو يسعى في الوقت نفسه
إلى الاحتفاظ برباطة جأشه.

- لا أريد الدخول يا «أوتاكيم» فليس في الأمر ما يستحقّ العناء. أتظنّين أنها
ستُرضعه طويلاً بعد؟

- لقد شرعت امرأتك للتوّ في إلقامه الثدي. وعندما يستنفده فإنها ستُلقمه
الآخر. الأمر يحتاج إلى بعض الوقت.

قال «باتيغ» نافذ الصبر:

- لست أتحدّث عن اليوم فقط. فالطفل يوشك أن يدخل عامه الرابع وأريد
أن أعرف كم من الوقت ستغذّيه بعد على هذا النحو.

- اذهب إذن واسألها عن ذلك، ادخل! هي لا تستطيع النهوض في هذه الساعة، بيد أنه ليس ما يمنعها من محادثتك.

- لم آتِ لدخول هذا المنزل. ألا تستطيعين أنت نفسك أن تحييني؟ لقد حدث لك كثيراً أن أرضعت في أيام صباك!

- رأيت عشرات الأمهات يُرضعن، وليس هناك اثنتان تشابهان. فبعضهن يملكن قليلاً جداً من اللبن بحيث يترك أبنائهن صدرهن من غير شبع؛ وأخريات يغذّين طوال سنوات أربعة أطفال دفعة واحدة. إن «مريم» سخية، وئديها مملكتان وناصعا البياض، ولن ينضب لبنها عما قريب.

- ومع ذلك فإنه ينبغي إطعام الطفل ذات يوم!

- الحقّ معك يا سيّدي فلن يكون من الخير له أن يرضع طويلاً؛ وينبغي إطامه قبل «النوروز».

- «النوروز» القادم؟ لقد انقضى العيد لتوّه، وعليّ أن انتظر عاماً آخر!

- من الممكن أن يُفطم «ماني» قبل ذلك، ولكن ما الفائدة من القيام بعشر رحلات للآشيء. وإذا أتيت في «النوروز» فسيكون الطفل لابساً ثيابه للذهاب وتكون أشياءه جاهزة، أعدك بذلك.

ما إن ابتعد «باتيغ» وضرب في الطريق العالي في ظلّ أشجار اللوز ذات الأغصان المرشوشة بالتويجات الشبيهة بندف الثلج حتى أخذ «الأخوان» في تقيعه:

- لا بدّ أن تكون ساذجاً جداً لكي تترك لهذه الساحرة العجوز الحافية أن تهزأ بك. لقد كابدنا نهارين طويلين في حاة الشمس وأمامنا نهاران آخران للعودة، وأنت تترك نفسك تُطرّد ببعض الكلمات المعسولة. ماذا سيقول «مار سيتاي»، أبونا؟ فحقّ لو انبغى أن ننتظر فقد كان عليك أن تُلجّ على رؤية الطفل، ولو للتأكد فقط ممّا إذا كان لا يزال هنا!

وإذ كان «باتيغ» شديد البلوى بحيث عجز عن اتّخاذ أي قرار فقد وافق على العودة أدراجه. وفي الفناء الصغير، في المكان الذي كانت تستند فيه «أوتاكيم» بظهرها، كانت «مريم» جالسة فوق بلاطة وفي يدها إصمامة من النعناع الأخضر تفصل منها العروق الميتة.

وسخر «الأخوان» من جديد. وشعر «باتيغ» بالمهانة.

- لقد ضحكت عليّ «أوتاكيم» إذن.

واحمرّ وجه «مريم».

- كنت أضيع ابنك؛ لقد انتهى للتوّ.

- عندما وصلت كان قد بدأ لتوّه، وكان سيظل وقتاً طويلاً؛ وما إن أدت ظهري حتى كان قد انتهى، وكنت قد قطفت هذا النعناع وانتقيت نصفه! هل في مقدوري رؤية ولدي على الأقل؟

وإذ سارعت «مريم» إلى نداء «ماني» فقد برز من خصائص الباب. حيث جمد متفحّصاً وتاركاً نفسه يُراقب. وكان بالإمكان بالطبع أن تلمح في وجهه القسّات الدقيقة التي بدأت ترتسم، وهي خاصة جداً بوجوه الأطفال. ومع ذلك فإن أوّل ما كان يُرى هما الحاجبان العريضان الأسودان المقفلان المقوسّان لكي يُشكّلا فوق الأنف حاجباً ثالثاً؛ ثم النظرة المستقيمة المباشرة، وإن متفجرة بالانفعالات المكبوتة وبالأسئلة التي لا تنتهي.

وعندما تقدّم بعد بضع لحظات باتجاه المجهولين فلانما وهو يجرّ ساقه، ساقه اليمنى. لا كما يُجرّ غصن ميت، بل بمهابة كما يجرّ المرء خلفه ذيل ثوب احتفالي.

ولاحظ «باتيغ» قائلاً بنبرة فيها شيء من الاتّهام.

- إنه يعرج.

- لقد وُلد بهذه الساق الملتوية، وسوف يطلع طول حياته. أما زلت تريده؟

وإذ خُنَّ الطفل كلّ الفظاظة التي أودعتها أمّه كلماتها فقد عاد يشدّ نفسه إليها. وذلك قبل أن يسدّد إصبعاً نحو «باتيغ» وهو يشغغ.

- كلا كلا كلا.

- ماذا يقول؟

- «كركلأ»! إنه الاسم الذي يُفزع به الأطفال في (ماردين) عندما لا يكون هناك أب لجعلهم يُطيعون. فإذا أبوا أن يناموا أو يأكلوا، أو ابتعدوا كثيراً عن البيت، أو وسّخوا أغطية الفراش، فسوف يأتي «كركلأ» لذيبهم. كما ذبح أبناء عمومتي، كما كان سيذبحنا جميعاً هنا كباراً وصغاراً منذ أقلّ من ستين.

- كنتُ أجهل أن «الرومان» قد وصلوا إلى (ماردين).

- في أي عالم تعيش يا «باتيغ»؟

- في عالم ليس فيه نار ولا حرب.

وأضاف من جديد غير متأثر:

- في هذا العالم سوف يكبر «ماني».

- وأنا يا «باتيغ»؟ في أي عالم سأعيش من غير زوجي ولا ابني؟

- توكلّي على ما يدبّر الله. ولا تحتجزي هذا الطفل بل أعطيني إياه فأنا أبوه وهو يخصني.

واقترّب لأخذ الطفل فجعلت «مريم» ترتعد. وهرعت «أوتاكيم».

- لقد وعدتني أن تعود لأخذه في «التوروز» القادم.

- أنتِ التي كذبت عليّ وخدعتني، فكيف تحرّوين على الحديث عن الوعد؟

وانتحبت «مريم» قائلة:

- أضرع إليك يا «باتيغ». لن نجد له مرضعة حيث تعيش فاتركه لي بضعة

الأشهر هذه، ألن تحتفظ به مدى الحياة؟

وبألف تحذير وتوبيخ فرض رفيقا «باتيخ» عليه اصطحاب ابنه من غير تأخير، وأما هو فقد ضعف من جديد بإزاء دموع امرأة سبق أن عذبها كثيراً، وإزاء نظرة مذعورة من طفل كان يحسبه وحشاً سفاحاً.

ما إن رجع المذنب إلى بستان النخيل حتى استدعاه «سيتاي» وأمره أن يصغي جاثياً على ركبته إلى ما سيقوله له:

- إذا كنت قد كلفتك بهذه المهمة فلأنني اعتقدت بأنك خير من يقوم بإنجازها. ولكن لا تتخددع يا «باتيخ»، واعلم أن هذا الابن ليس ابنك وإنما هو ينتمي إلى جماعتنا، ينتمي إلى الله، وإلا فلماذا جاء به إلى هذه الدنيا في الوقت الذي تركت فيه امرأتك وبيتك؟ ألا ترى في هذا أية أية، أية وصية من وصايا الله تعالى؟ لقد قرّرتاري، فلن تذهب من الآن فصاعداً إلى (ماردين)، وأنا من سيجلب الطفل. غداً سأكون في الطريق يواكبني اثنا عشر أخاً، ولن أضيع وقتي في مفاوضة النساء.

لقد تحبَّب «ماني» ولا ريب يوم جاء كل «أصحاب الملابس البيضاء» هؤلاء لاختطافه. بل لا ريب في أنه جأ بالصراخ عندما غمسوه ثلاث مرات في ماء التربة ونزعوا عنه ثيابه. ولكنَّ على الرغم من صغر سنه فقد كان عليه أن يلتزم بقانونهم ويرتدي الجبَّة البيضاء ويأكل من طعامهم ويتمتع حركاتهم ويحاكي صلواتهم. وسرعان ما جهل الطفل مَنْ يكون وبأية معجزة قد حطَّ رحاله وسط هؤلاء الغرباء.

وأَمَّه، إنه لم يكن ينبغي له أن يراها ثانية. بل إنه لن يسمع بها طوال سنوات. وأبوه، هل بالإمكان القول إنه كان يعيش معه؟ لقد كانا يتعايشان جنباً إلى جنب كما يتعايش جميع «الإخوة» في بستان النخيل، بيد أن «ماني» لم يكن ابنَ أحد، لم يكن إلا ابنَ الجماعة. وكان عليه أن يقول لـ «سيتاي» وحده «أبت»، وأن يُسدي جانب الطاعة له وحده، مثلما يقول له «پاتينغ» «أبت» ويُسدي له الطاعة.

الطاعة، الإذعان، الجثو، إن الطفل لم يكن يستطيع أن يفعل غير ذلك. ومع هذا فإنه منذ اللحظة الأولى على خِتانهِ ظلَّ في نفسه شيء ما يتمرد. مثل خِزَّة من روح ناثرة.

وأي جُحَر سوى الوحلة يمكن أن يكون في مشهد المتسكّين المنبسط؟
وسرعان ما تعلّم «ماني» أن يفوز بها ويتعهدها وتحميها من الجميع . وأقام لنفسه
بعيداً عن الجماعة فضاءً عُزلةً، مملكةً طفل لا تطأها قدمٌ رَجُل قط . وكان يهرع
إليه ما إن يتسنى له ذلك . وكان ذلك في مكان تتلوى فيه ترعة «دجلة» وسط
دغل من النخيل المنتصب بعضه لصق بعض مرصوباً بشكل نصف قمر،
المنحني بعضه الآخر فوق الماء وكأنه يشرب . وكان ينبغي التجرؤ على تخطيه
ليجد المرء نفسه في شبه جزيرة من العَبَق والظَلّ، ولكنه ظلّ لا يطرد النور بل
يمتصّه على العكس من ذلك ومُرْشحه ويُقَطِّره لِيُغِدِّقه على أولئك الذين يُحْسِنُونَ
جناءه . وهناك كان «ماني» يجلس أو يستلقي، يبكي أو يتهلّل أو يحلم . وكثيراً ما
كان يناجي نفسه بصوت جهير غير هيّاب من افتضاح سرّه .

غير أن هذه اللحظات كانت نادرة، فلم يكن الزمان طليقاً قط في بستان
النخيل . فقد كان العيش يتمّ فيه على الدوام بين شعيرتين، بين عمليْن من
أعمال السُّخرة . وكان على «ماني» أن ينتزع نفسه باستمرار من ملاذه للاختلاط
على مضض بجمهور «أصحاب الملابس البيضاء» الذي لا يُعرف له شكل .

ولم يعرف أيّ واحد من هؤلاء الناس الذين يسمّون أنفسهم «إخوة» أن
يكون صديقاً . وقد ظلّوا طوال ثمانية أعوام في عَيْني الطفل المذعورين سَجَانين
غامضين يلبسون ملابس غير بهيجة ويتفوّهون بكلمات فظّة . وإذا كان «ماني»
يحاكي طقوسهم في ورع حتى ليبدو مماثلاً لهم فذلك لأنه قد ذاق العقوبات التي
كان «سيتايي» يُنزِلها بالكبار والصغار على السواء عند أقلّ تقاعس : صوم
إجباري، جُلْد، نقل ماء براميل كبيرة طافحة، صلوات تكفير لا تنتهي .

ولم تكن العقوبة في بعض الأحيان ممّا هو مألوف كثيراً، وكانت عندئذٍ
مناسبة للابتسام أو للضحك ذات شأن عظيم لدى «الإخوة» ، مثلاً حُكَم على
«سمعان» العجوز، وقد أذنب بكيّل شتائم داعرة، بتسلّق نخلة والتشبّث بها
بانتظار ترخيص «سيتايي» له بالنزول .

إلا أن أكثر الضحايا مواظبة على هذا العقاب الفيكه ظلّ «مالكوس» ، وهو

«صُورِيَّ» وأعظم «الإخوة» كرشاً وأصغرهم سنّاً إذا استثنينا «ماني». بل لقد كان أحدث من هذا الأخير عهداً بالجماعة. وكان أبوه، وهو تاجر تبدو عليه مظاهر النعمة، قد وصل على غير انتظار إلى بستان النخيل قبل ثلاث سنوات من غير أن تُعَلِّم في الواقع الدوافع الحقيقية إلى مثل هذا الإيمان الطارئ. وعندها سرى الهمس بأن الدهر قد قلب له ظهر المِجَنِّ، وبأنه فَقَدَ أسرته وممتلكاته، وإذا لاحقه دائنوه فقد جاء يلوذ بهذا المكان لستر مصائبه وإسدال ستار النسيان على نفسه. ولقد مات غريقاً بعد بضعة أشهر، ولا بدّ أنه كان قد فَقَدَ طَعْمَ الحياة. وعلى هذا النحو وجد «مالكوس» نفسه، مثل «ماني»، وليس ابنَ أحد.

وهناك فارق مع ذلك، وهو أن «ماني» قد غادر (ماردين) صغيراً جداً، وأن أعماماً طويلة قد انقضت منذ الاكتمال الطفولي الذي عرفه بين «مريم» و«أوتاكيم» وتمثّل في الأيام الهنيئة القابعة في ركن كدير من ذاكرته. وقد ظلّت أجل ذكرياته الخاصّة بالروائح والطعوم معجونة بالمرارة الكأداء، مرارة الطفل الذي أسلمه أو تركه أو تخلّى عنه أو - على الأقلّ - أساء حمايته أعزّ مخلوق على قلبه. ومذّاك كانت وحدها ماثلة أمامه هذه المحنة اليومية الغامرة، ذلك الجدار الصفيق المنتصب من بستان النخيل إلى السماء ولا يجسر شيء على أن يقوم خلفه. في حين أن «مالكوس» كان قد عاش في العالم الرحب طفولة حقيقية ما يزال يحنّ إليها ويحتفظ بعاداتها.

وكان يكفي للافتناع بذلك سماعُ ضحكته. ولقد كان الضحك يبدأ عند «أصحاب الملابس البيضاء» بالتَّخَنُّج ويبلغ مداه في هِنَافٍ أشبه بالفُواق وينتهي بشكل إماتة للنفس. وكانت ضحكة «مالكوس» تُقَبِّلُ من خارج هذا المكان. فقد كان ينشرح ويُرْعِدُ ويتبختر؛ وإذا لم يتجاوب معه أحد مدّ في شأو ضحكه بنفثاته هو؛ وإذا ظُنَّ أنه قَمَعَ انفجر ثانية، ولا سيّما في لحظات الاحتشاد الجماعي الكثيف. وكانت تلك الانتهاكات تعود على الفتى «الصُورِيَّ» بعقوبات تكاد تكون أخفّ من التي تنزل به لدى عودته بعد هربه في كل مرّة؛ ولم تكن مع ذلك غير غييات لبضع ساعات، بيد أن «سيتايي» كان يتهم المراهق بأنه

يستغلها لملء بطنه بكل أنواع الأطعمة المحظورة. ولا ريب في أنه لم يكن مخطئاً. فرؤية «مالكوس» متكرراً تمتلئ الوجه بين جميع تلك الوجوه الغائرة باستمرار كانت تكشف بوضوح أنه لم يكن يخضع تمام الخضوع لنظام الطعام السائد.

كما في ذلك اليوم، في وقت الوجبة الثانية، وجبة الغسق التي يجتمع فيها كالعادة جميع «الإخوة» في قاعة الطعام وقد انقسموا حول ثلاث موائد طويلة متوازية يترأس أوسطها «سيتاي» يحيط به أقدم الأعضاء، و«مالكوس» في طرفها الأوسط قريباً جداً من الباب. ولقد شرع القوم في الدعاء من أجل الاستهلال. وإن التفكير في أن الأمر مجرد دندنة متسرعة معناه الجهل بتقاليد بستان النخيل. فبعد أن ذكر «سيتاي» بواقعة النعم المألوفة اندفع في عظة طويلة. وكان جميع «الإخوة» واقفين حاني الرؤوس وهم ينتظرون أن ينتهي لكي يهجموا على الطعام. بيد أن سيدهم لم يكن قط على عجلة من أمره. وقد شرح قائلاً إن الجوع عدو مبین، وأن على الإنسان الفاضل أن يكبح جماحه بدلاً من إشباعه، كما أن عليه كبح جماح جميع رغبات الجسد. وكان ذلك موضوعه الأثير في ساعة الشهوة إلى الطعام؛ وكان يقول: إن الجسد بغل وراكبه هو العقل، وعلى المرء أن يقف أحياناً لإطعام البهيمة، بيد أنه ليس لها هي أن تختار الطريق ولا المراحل، وأن العار والويل للراكب الذي ينصاع لنزوات مطيته.

كانت موائد «أصحاب الملابس البيضاء» شديدة التقشف: زيتون وقتاء، ولوز ولفت وبعض الفاكهة وخبز وماء. ومع ذلك فقد كان ستون زوجاً من العميون ترنو إلى ذلك الغذاء المتواضع. وكان قد أعقب آخر وجبة تناولت بعد صلاة الفجر مباشرة يوم شاق في الحقول. ومع ذلك فقد كان يجب التحلي بالصبر والتأمل وإماتة النفس لأنه كان ينضاف إلى الجوع العار من الجوع والندم سلفاً على كل لقمة تورث اللثة.

وإذ لم يتمالك «مالكوس» نفسه فقد مدّ يداً مرتعشة إلى أقرب سلة، ولكن

ليس من غير أن يتحقق من أن جميع الرؤوس حوله كانت محنية وجميع الجفون مُسْبَلَة. وتناول بَلْحة صفراء طازجة ورطبة وسارع إلى دسّها في فمه قبل أن يستعيد أكثر السّحرِ نقوى.

وانتظر بضغ لحظات قبل أن يشرع في مضغها على مهل وبلا صوت متراجعاً برقبته حتى إن فكّه كان يلامس صدره عند كلّ مضغّة. وكانت أسنانه وهي تغوص على مَهْل في الثمرة تُطْلِق عصيراً سكريّاً أخذ يجمعه فوق لسانه ويحيله في فمه ثم يتركه ينحدر في بلعومه بتلذذ أثيم.

وكان لا يزال يتلذذ به عندما أنهى «الأب» خطابه آخر الأمر وأخذ «الإخوة»، باستعجال لم يُحْسِنُوا السيطرة عليه، أماكنهم فوق المقاعد العالية وكأنهم رجل احد. وإذا انتشى «مالكوس» بالصخب المحيط به فقد جعل يمزغ بلا حذر، بيد أنه فيما كان يجلس بعد لحظة على جلوس الآخرين فقد أخذت تحدجه عينان مغممتان بالأتهم هما عينا الجالس قبّالته، «غارا» ابن أخي «سيتاي». ووجّه إليه «مالكوس» نظرة ملائكية، إلا أن الرجل الذي لم يكن يُطِيع غير صوت الواجب انحنى على أذن جاره وممس له بأتهم؛ وبعد أن حذج الآخر الفقى بنظرة الاستنكار عينها غمغم الخبر إلى جاره متابعاً بذلك سلسلة حقيقة من الوشاية حملت نصّ الجريمة من طرف المائدة إلى طرفها الآخر.

ووصل الدور إلى «باتيغ». واستمع إلى الوشاية بوقار واستنكر هفوة المراهق التي لا تُغْتَفَر بتقطعية من حاجبيه، ولكنه بدا متردداً في اللحظة التي انحنى فيها على أذن جاره. فكيف يمكن أن ينصاع، هو الذي تربّى على تقاليد طبقة الأشراف «الپارتيين»، لأخس أنواع الوشاية؟ ومع ذلك، ولأن «سيتاي» كان بالضبط قد أخذ عليه كثيراً أصله وعجرفته واحتقاره بعض الأعمال، فقد كان يفرض الآن على نفسه تحاشي كلّ تصرف يميّزه من عامّة المرئدين. فنلك هي روح «الجماعة» التي كانت تنظر بعين الارتباب إلى كل تعاطف وكل تسامح وكل رحمة، ويبدو لها كل تصرف كريم مُدْنَساً بالغرور.

يا ك «باتيغ» الذي لا سبيل إلى إصلاحه، يا ك «باتيغ» المستعدّ على الدوام

لأتباع أسوأ السُّبُل من أجل أفضل الأسباب في العالم! لقد كان يرتجف أمام «سيتاي» أكثر من ارتجاف أي «أخ» آخر، فيجشو على ركبتيه ويقرع صدره ويذل نفسه، في حين كان يكفيه أن يغادر بستان النخيل هذا أخذاً بيد ابنه لبلوغ حياة رغبة. غير أنه لم يكن يفكر في ذلك. بل إنه لم يمرؤ خلال ثمانية أعوام على أن يكشف لـ «ماني» رابطة الدم التي تجمعهما مكتفياً بأن يرسل إليه من بعيد ابتسامات مُلغزة كانت تُحني الصبي وتثير حذره. ولم يكن «باتيغ» مع ذلك جباناً، أو أنه إذا كان جباناً فقد كان جُبنه بالخري من نوع فريد جداً: لقد كان مستعداً للتضحية بجسده، وأما بروحه فلا. وكان ذلك الخرع الورع في أصل جميع دناءاته.

وعندما أبلغ «سيتاي» قضية التمرة التي خضمها «مالكوس» وقف متجهماً، متكلفاً الجِدَّ، مستفظعاً وقال:

- مَنْ مَنَّا يرغب في الأكل بمحاذاة التتانة؟ أَلَمْ نأتِ إلى هذا المكان المبارك للتخلص من أدران الدنيا؟ يَدُ أَنْ جميع جهودنا تضيع سُدى إذا استسلم واحد مَنَّا فقط إلى الغواية الخبيثة، وإذا تمكَّنت أدران الدنيا من السيطرة على جسده وروحه لأننا نُصاب جميعاً بالدُّنس.

وعندها انهال الحكم:

- «مالكوس»، سوف تمرّ بين «الإخوة» مزوداً بطاسة يلقي فيها كل واحد نواة ثمرة يكون قد أكلها. وسيكون ذلك غِذاءك الوحيد، ثم تأتي فترتي الطاسة فارغة. ولأن التمرة هي التي قادتك إلى الإثم فسوف تتمكّن من تقدير حقيقتها العظيمة فيما وراء طعمها اللذيذ.

وتبعت الحكم جَلْبَةً مِرحة، على الرغم من توقفها بسرعة. فقد كان يرافق الوَجَبَات طقوس صارمة لدى هذه الجماعة المشغولة بهذا القدر بالمحرّمات الخاصّة بالقم. وكان القوم هنا بعيدين عن مآذب «نبو» و«ديونيزوس» و«ميترا»، هذه المقاصف المجنونة التي كان الجسد يتحوّل فيها إلى هيكل للاحتفال بصَحْب: جميع مذاقات الأرض. فقد كانت غرفة الطعام مكاناً عبوساً ينبغي

أن يعوّض فيه حرمان النفس كلّ لذة لأنها جانية. وبينما كان أحد «الإخوة» يتلو نصّاً من النصوص المقدّسة كان المريدون الجاثمون على مقاعد مرتفعة، والمضطّرون من جرّاء ذلك، إلى الانحناء بشكل عنق البجعة فوق الموائد، يتناولون الأطعمة بالابهام والسبّابة ويغمسونها في قدر ماء وهم يتمتمون عند كل لقمة «ما رام بارخ»، «بارك أيها الربّ».

وعلى هذا النحو مرّ «مانكيس» بطاسته في جوقه من التمتّعات، ومنّ عليه كلّ من «الإخوة» بنواة من غير أن ينس بكلمة، ولكن بسخنة حيوان مجترّ مْهان ومُحتَقِر. وإذا أدرك أحد هؤلاء الصالحين أن النواة التي ألقاها كانت هزيلة جداً فقد سارع إلى إضافة أخرى فرحاً بأنه لم يُخلّ بدوره في تطبيق العقاب.

«ماني» وحده تميّز من الآخرين. ففي لحظة إيداعه نصيبه أدخل أصابعه بجرأة في الطاسة وانتشل منها حفنة كبيرة من النوى فدسّها خفيةً في جيبه زاماً شفتيه أمانة على التعاطف والتعزية. وإذا حرص «مالكوس» من ناحيته كل الحرص على عدم إبداء عرفانه بالجميل فقد غادر إلى مكانه وشرع في تناول وجبته غير اللاتقة. غير أن مجرد معرفته بأن له صديقاً بين هذه الجماعة كان من شأنه أن نَقَعَ غَلْتَه. وتُحِيلُ إليه أن النوى قد احتفظت بمذاق سُكّري متخلّف وبِقُصْمَةٍ لَبَنَةٍ. وإذا لاحظ بعض «الإخوة» سخنته الهادئة النائمة عن قليل من الندم، بل المفعمة أحياناً بحبّور وقح، فقد حسبوا أن الشيطان يسكنه.

كان ما يعتمل في نفس «مالكوس» منذ ذلك اليوم تجاه المحسن الفقيّ إليه أكثر من عرفان؛ لقد كان تفانياً حقيقياً. فقد عاهد نفسه على أن يتعه إلى كل مكان، وأن يحميه من الجميع، وأن يتلقّى عنه آلاف الجلّدات وما لا يُحصى من أيام الصوم. وكان مستعدّاً، لقاء حفنة مخطوفة من نوى التمر، ومن أجل زمة متواطئة بشكل غامض من الشفتين، لمقاسمة «ماني» أغلى ما كان يملكه في الدنيا.

وغداة الحادث بالذات، في اللحظة التي كانت الجماعة تجتمع فيها لصلاة

الفجر، هرع «مالكوس» بحماسة، وكان يعلم أن عليه مرة أخرى أن يردّد بتلجّج الشعيرة التي لا تنتهي، ولكن ما همّ، فاليوم سيكون له صديق يكرّر، في اللحظة ذاتها، وفي القاعة الباردة الجرداء عينها، الحركاتِ نفسّها. وإذا كانا سيران معاً لدى خروجهما فقد سأله «الصُّوري» برصانةٍ ما إن ابتعدا عن سائر «الإخوة»:

- إذا أنا أطلعتك على سرّي فهل تعِدني بالأّ تخونني أبداً؟.

وانزعج «ماني» للأمر. وإذا كان قد فهم يُسر أن «مالكوس» يبحث عن صديق فإنه هو لم يكن كذلك. فلقد نجح بعد هذا العدد من السنين التي قضّاها وسط «أصحاب الملابس البيضاء» في إقامة عُزلة، تلك العُزلة العزيزة التي لا تُعوّض، والتي كان يتدرّع بها وكأنّها درع من الزرد. ومشاطرتها معناها فُقدانها. وكان يحبّ، في كل مرةٍ يسنح له فيها وقت للدّعة، أن يعود إلى ملاذه الخفيّ وحيداً من غير رفيقٍ سوى شخصيه. فلماذا يزحم أذنيه بطنينٍ بشريّ؟ وإذا لم يكن راغباً في الاصطدام بالمراهق الذي كثيراً ما اعتبره «سيتاني» وعدد من «الإخوة» كبشٍ محرقة فقد وجّه إليه طيف ابتسامة رقيقة. إلا أنه تجاهل أمر إجابته وحثّ الخطى. وفيما كان «الصُّوري» يتشبّث به ويلاحقه من أمامه ومن خلفه متفافزاً من جانب إلى جانب، وهو يقول من غير أن تُنْهكه جميع التحفّظات أو يُصغّي إليها:.

- عِدني ألاّ تشيء بي أبداً!

فقد رفع «ماني» كفيه هذه المرّة وأطلق بمرحٍ، وبلهجة مَنْ لا يتذكّر قطّ موضوع الحديث:.

- أشي بك؟ أو سبق أن وشيت يوماً بأحد؟.

وإذا اطمأنّ «مالكوس» في ظاهر الأمر فقد التقط أنفاسه قبل أن يقول دفعة واحدة وكان الأمر يُعبّر عنه بكلمة واحدة:.

- افي - أعرف - امرأة.

ثم انتظر فاغر الفم وابل الأسئلة الذي لن يتخلف صديقه الفتي عن صبه عليه .

بيد أن شيئاً لم يحدث . فما اعترت «ماني» دهشة ولا صَدْر عنه أدنى تعَجَب . فهل يشعر «مالكوس» بالمهانة أو تخور عزيمته ؟ لقد جرى الأمر عكس ذلك تماماً . وبدا له عدم تأثر رفيقه وكأنه تعبير عن اندهال ما بعده اندهال . وخاله مسحوراً متلشياً من الدهشة والإعجاب ، وشعر بأنه قاب قوسين من الانتصار فاستفاض قائلاً : .

- لن أبقى طويلاً في بستان النخيل المشؤوم هذا . وسوف أرحل ما إن أتم أعوامي الخمسة عشر . ولسوف تأتي هي معي . ونعيش في (المدائن) . وسأجد عملاً بصفة أجير لدى تاجر «صوري» أو «تدمري» . وأرافق القوافل إلى (مصر) و(الهند) و(أرمينية) . وإني لأراها من هنا ، جميلة كتمثال إغريقي ، ملتفة بثوب طويل من الحرير المطرز بالذهب والأحجار الكريمة ، وهي تهبط على مهلٍ درجٍ قصري في (المدائن) ، وحولها عشر إماء بيضاوات وسوداوات .

وفارق «ماني» صمته وشارك مخاطبة لعبته لحظةً ، لا لشيء إلا ليزرع فيها الشك : .

- وكيف بنيت لنفسك قصرًا ، أنت يا مَنْ ليس إلّا أجيرًا عند تاجر من (المدائن) ؟ .

لقد كان ينبغي لـ «مالكوس» أكثر من هذا لكي يُصاب بالاضطراب .

- لن أظلّ أجيرًا مدة طويلة ، فسرعان ما ستكون لي تجارتي الخاصة وعملاء في (أنطاكية) و(تدمر) و(البتراء) و(دب) و(بريتيس) . وسأتمكن عندها من بناء قصرٍ لي في (المدائن) وآخر في (صور) . وثالث إذا شئت في جبال (ميديا) حيث أَسكن السيدة في كل مرة تريد فيها الحرب من القبط والأوبئة .

لم يكن يمضي يوم من غير أن يتحدث «مالكوس» عن «السيدة» بأعذب الألفاظ، وإن كانت أكثرها تكلفاً أيضاً في معظم الأحيان. وإذا لم يكن «ماني» يشجعه قط على ذلك، وإذا كان يُغفل دائماً سؤاله عنها، عن اسمها، عن عمرها، فإنه لم يُعدّ يبدي قط اللامبالاة عينها، بل كثيراً ما كان يُصغي إليه بانتباه، ويشاطره بعض انفعالاته؛ وعندما كان «الصوري» يُبحر في أحلامه الثرثرة فإنه كان في بعض الأحيان يُبحر معه في صمت. بل لقد كان يحدث له أن يفكر هو أيضاً في السيدة متفاجئاً في وحدته برغبته في تخمين ما يمكن أن تشبه، وتحت أية أشجار استطاع «مالكوس» أن يتعرف إليها.

كان من عادتهما كليهما أن يذهبا، شأن جميع «الإخوة»، إلى سوق القرية لعرض مُنتجات الجماعة. وكان ذلك هو المكان الوحيد المسموح لهما فيه بالتقاء النساء، وكُنَّ في معظم الأحيان فلاحاتٍ أشبه بشمرة الكرنب، مُثَقَلَاتٍ بالقُفَف ويخبُطن في الأرض بخطوٍ موجع. وكُنَّ من جهة أخرى يَحْدِجْنَ بنظرة ازدراء «أصحاب الملابس البيضاء»، هؤلاء الرجال الذين ليسوا رجالاً، هؤلاء الأشخاص الضامرين ذوي الوجنات الشاحبة الذين يجمعون عاماً بعد عام ذَهَبَ غلالهم الوفيرة من غير أن يُشركوا فيه البتة امرأة ولا ولداً، هذا الجُحْفَلُ المتهرب غير المرغوب فيه، وإليه تُنسب أشنع الرذائل وأكثر الممارسات استعصاء على أن يُباح بها.

والحق أن الشفقة كانت تستولي على بعضهن لرؤية «ماني» وحيداً مقرفصاً وسط بضاعته المعروضة متفكراً بائساً فيلمسن جبينه قائلات «يا ولدي» ويشترين منه في نهاية الأمر آخر ما بقي من زعروره بأخر فلس معهن. وكان «الابن» يجهد في افتعال الشرود، بيد أن صدره كان يمتلئ دفئاً من جرّاء حنانهن، ولكم ودّ لو يحتجز بضع لحظات أخرى هذه العيون المتغضنة التي ابتسمت له.

وكانت نساء أصغر منهن سنّاً يرافقنهن في بعض الأحيان. وإذا كنَّ في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، وقد تبرّجن، فقد كنَّ يتمايلن في هذه المشية التي تنم تارة

عن المحاكاة وطوراً عن الخضوع وثالثة عن التمرد، وهي مشية خاصة بأولئك اللواتي انتهى صباهنّ وتقرّر مصيرهنّ وسوف يُرَيّن في العام القادم حوامل ثجيلات الخطو، ويُخلط في العام الذي يليه بينهنّ وبين أمهاتهنّ. ومن هؤلاء على الأخصّ كان «سيتاي» يُحذّر «الإخوة»: «لا تأخذوا منهنّ أيّ شيء يداً بيد، ولا تجلسوا في المكان الذي يمكن أن يكنّ قد جلسنّ فيه، ولا تطيلوا على الأخصّ النظر إليهنّ، فهنّ جيلات على مدى موسم واحد للقطف، ويذبلنّ ما إن يُقطفنّ».

أتكون واحدةً منهنّ «سيدة» «مالكوس»؟.

وذات يوم، وبينما كان الصبيان راجعين من سُخرة قادتها إلى نخوم القرية، لامست حصاةً أدنّ «ماني» فأجفل. بيد أن «مالكوس» كان هو الذي صرخ والتقط بسرعة حجراً بحجم البيضة وأخذ جذره رافعاً ذراعه بشكل ترس وهو يصيح: .

- ابرز إذا كنت رجلاً!

وتناهى إليها ردّاً على ذلك صغير غلام، ولحا بين أغصان شجرة درّاق يداً صغيرة تلتوح. وإذا اطمأنّ «مالكوس» فقد أرسل القذيفة من خلف كتفه وهو يكيل شتيمة. ودهش «ماني» وقال: .

- أتعرفه؟.

وأجاب «مالكوس» وقد بدا أنه كان يُؤثر أن يكون في مكان آخر: .

- ربّما.

- ومن هو؟.

- بنت.

وعندما أصبحت أمامها رأى «ماني» أن ركبتيها ما تزالان تحملان آثار

سقطات حديثة العهد، وأن شعرها الفاتح مجموع في طاقية ممزقة، وأنها تتقلد بشكل جلية عقداً من عروق الكرز المصفورة. وفي يدها التي لم تكن تقذف بالحصي كانت تمسك ذراقة سُرقت للتو من بستان «الجماعة» وهي تخضمها بجماع أسنانها. ورفعت ذيل بلوزتها لمسح ذقنها. ولم تكن سوى جُويرية. وقالت له «ماني» : .

- أرجو ألا أكون قد جرحتك.

وأجاب «مالكوس» : .

- ليس هناك دم. ولكن كان بالإمكان أن تفقأي له عيناً.

واستأنفت الصبيّة : .

- وما اسمك؟

وأجاب : «مالكوس» مرة أخرى : .

- «ماني» .

- الصديق غير المفارق الذي حدّثني عنه؟

قالت ذلك وهي تدنو من «ماني» وتتفرّس جهازاً في وجهه.

- قلت لي إنه يقرأ كثيراً وله خطّ جميل وثلاثة حواجب وساق مُلتوية ونسيت أن تقول لي بأنه أبكم.

واستأنف «ماني» سيره بوقار. وناداه «مالكوس»، وركضت البنت خلفه.

- اسمي «كُلُوييه». وأنا و«مالكوس» نلعب في كثير من الأحيان وباستطاعتك أن تأتي معنا.

وتابع «ماني» طريقه، وهزّت «كُلُوييه» كتفيها. وظلّ «مالكوس» هنيهة في الخلف، ثم ركض للحاق بصديقه.

- ما كان ينبغي أن أقول لها عن ساقك. سامحي. لقد حدّثتها كثيراً عنك،

وأردت أن تعرفك إذا ما رأتك يوماً تَمَرَّ.

- ليس عليك أن تعتذر من أجل أمر تافه، فأنا لم أفكر قط في أن احتفظ بعامتي طيَّ الكتان.

وإذ بدا أبعد ما يكون عن الامتناع فقد كشف، على العكس، عن سحنة مبالغة في الاغتياب. وذلك قبل أن يُطلق:

- على هذا فإنها هي السيدة التي طالما حَدَّثْتَنِي عنها. وأظن أنك إذا كنت قد وصفتها لي بكلِّ ذلك الصديق فلكي أتمكَّن أنا كذلك من التعرف عليها إذا رأيته يوماً تَمَرَّ. إنها إذن هي التي كنت تشبَّهها بتمثال إغريقي؟
قال «مالكوس» متباهياً: .

- إنها هي أ.

- الحقُّ أن هناك تماثيل من جميع الأحجام...

لكنه غمر وهو يقول ذلك، وكما ليلطف من تأثير سُخْرِيَّاته، كَيْفِيَّـيـِـرِ «الصُّورِيَّ» بذراع وذِيَّة. وتشجَّع هذا الأخير وقال: .

- لنسلِّم، فقد أخفيت عنك بعض الأمور، غير أنني لم أكذب في شيء ممَّا قلته. فلو رأيتُ على شجرة الخوخ هذه بُرْعاً مُزْهِراً وقلتُ «تلك خوخة» فهل أكون قد كذبتُ؟ كلاً ثم كلاً، إني أكون ببساطة قد استبقت الحقيقة بفضل واحد.

كانت «السيدة»، نصف الصبيّ الصافر ذاك، تسمّى إذن «كلّويه». ومع ذلك فإنّ أحداً في قريتها التي تجاور أراضيها أراضي بستان النخيل لم يفكر قطّ في أن يدعوها كذلك. لا النساء اللواتي كانت تساعدنّ في شقّ حبّات التين لتجفيفها فوق السطوح، ولا الفلاحون الذين كانوا يَدْعُونها تقطف من أشجارهم الثمرة التي ترغب في خضمها. وكان في مقدورها أن تدخل أي مكان من غير أن تقرع الباب ما دام لا يزال في وسعها أن تفعل، وما دامت لم تبلغ بعدُ مرتبة الإدراك المزعجة. وكانوا يحبّونها، «كلّويه» السارقة والسخية، سارقة التفّاح والسخية بالبسات. ولقد كانت في نظرهم، وستبقى على الدوام، «ابنة اليوناني».

كانت في الواقع تنتمي إلى أسرة من أسر المستعمرين الذين كان سلفهم قد جاء قديماً للحرب في الشرق ضمن جيش «الإسكندر»، ثم اختاروا بعد موت «المقدونيّ» أن يبقوا في الأرض المحتلة، وأن يتخذوا المزارع والنساء ليكونوا لأنفسهم أرومة. وكان والد «كلّويه» لا يزال يحمل بزهر اسم جدّه، «شارياس»، ويظنّ أنه لا يزال يحيا، مثله، في كَنَف «الإسكندر». وكانت اللحظات العاطفية النادرة التي يحدث أن يقضيها تتمثّل في توفيقه للحصول على جمهور من المستعمرين يحكي لهم مرة أخرى قصة معركة «أربيل» الكبرى التي

مَرْقَ فيها جيشُ «الغازي» إرباً إرباً جيوشَ «دارا»، والتي تلاقى فيها عدد كبير من الشجعان، «التراسيون» و«الأودريزيون» والفرسان «البيونيون» والنبالون «الكريتيون» ومرترقة «أندروماك» و«الكتيبة» و«الرفاق». ولا سيما أولئك «الرفاق» الذين لا يديل عنهم، والذين كان والد «كُلُوييه» يتحدث عنهم بألفة، مقلداً أحدهم مُبَكِّتاً الآخر، إلى أن تمحين اللحظة الحاسمة من روايته، اللحظة التي يُدخل فيها سَلَفَه قاتلاً «نحن»، «شارياس»، ويستمتع عندئذٍ بالتأثر الذي يقرأه في عيني سامعه.

كانت معركة «أربيل» قد جرت، كما ينبغي التذكير، قبل ذلك بعشرين جيلاً، ولكن ما هم، فليس الزمن سوى الغُمد الذي تنضج فيه الأساطير، وأسطورة «الإسكندر» أكثر من أي أسطورة أخرى، ولا سيما في (ما بين النهرين)، هذه الأرض التي شهدت انتصاره ثم موته. فلقد وارته شاباً، وشاباً حفظته، عروساً أبدت بلا غضون، وظلّ عدد أعوامه، ثلاثة وثلاثون عاماً، هو عمر الخلود. وكان هو، «الإسكندر»، من يتحكّم بالزمان. أفلم يكن فلكيو (بابل) قد اختاروا تاريخ موته بداية للعهد الجديد؟ ومذّك تعاقب ملوك كثيرون، بيد أنهم لم يفعلوا سوى أن حكموا في ظلّ «المقدوني»، وكان أوائلهم معاونيه ثم ذريتهم، وبعد أن آل الحكم إلى «البارتيين» حرص ملوكهم على أن يُلحقوا على الدوام بأسائهم لقب «صديق الإغريق» لكي يشبّثوا هم أيضاً أنهم الحراس الشرعيون لإرث «الإسكندر» المجيد.

وإذا كان الشاهنشاه قد شعر شخصياً، بعد خمسة قرون، بالحاجة إلى التذكير بذكرى «الفتاح»، فهل بالوسع العجب من رؤية أبي «كُلُوييه» يُنمي حصته من الأسطورة، هو الذي لم يكن يملك أدنى مظهر من مظاهر العظمة، فلا أراضي ولا ذهب ولا خيول ولا جوارٍ؟ لقد كان عجوزاً نحيفاً أصهب اللحية يهيم في منزل ضخم ولكنه خرب، وكان يعيش فيه وحيداً مع «كُلُوييه»، التي رزقها على كبر من أمة لم يُعُد لها اليوم من أثر. ولم يكن الأب وابنته يشغلان من ذلك البيت غير جناح واسع جداً عليهما فوق ذلك، في حين لم

يكن سائرهُ سوى سقوف متداعية وجدران منقوبة وأبواب مُتَزَعَة بفعل التآكل والديدان.

كانت البنية تغشى هذه الأطلال المؤلفة من غايء لا تنضب وتنوءات من الغبار والحجارة كانت تدوسها من غير ما حنين. وكان «مالكوس» قد جاء إليها للعب أحياناً في لحظات هربه، ولقد أقنع «ماني» بمرافقته إليها في يوم قائل من أيام «تموز». وكانا في سُخرة إلى سوق القرية وقد اشترى منها تاجر من «نيبور» جميع الحمولة منذ وصولها مُتِيحاً لها بذلك فرصة التسكع. وكانا يأملان في لقاء «كلويو»؛ وكان أبوها هو المتجول ساهماً، وفي يده عصا.

- ابنا من أنتما يا ولدي؟

وآثر «ماني» أن يقول:

- لقد جئنا لرؤية «كلويو».

- بنتي؟

- أجل، ليباركها الله.

وكرر «شارياس» في مَرَح أَدْرَد بعض الشيء:

- ليباركها الله! ليباركها الله!

وكان يتأمل من أعلى إلى أسفل الغلامَ العجيب الذي كان يتكلم على هذا النحو.

- اقرب أكثر لكي أراك يا ولدي، ألا تكون أحد أولئك المجانين في بستان النخيل؟

بيد أن اليوناني رأى في قَسَمات المراهق من العذوبة والبراءة والرصانة الكنية ما قاده إلى الاطمئنان.

- إنكما لا تبدوان لي مُريبين كثيراً. اتبعاني فلا ينبغي أن تكون ابنتي بعيدة جداً. ستحظيان بشراب التوت فينعش جُمُجتكما.

وإذ أخذوا يتخططون الخطاطم والأنقاض فقد وجدوا أنفسهم في الجناح المسكون من المنزل. ولم تكن «كلوويه» فيه بعد، غير أن أباهما لم يكن مهتماً كثيراً بالأمر. وقد سرَّ كثيراً إذ وضع يده على جمهور من المستمعين طازج ساذج يمكنه أن يسرد على مسامعه مرةً جديدةً مآثر السُّلف وأجساد «الإسكندر». وكان يحكي مُرتقاً حديثه بعدد كبير من الحركات بلهجة البلد الأرامية مزخرفةً كما ينبغي بكلمات يونانية، ولا سيما فيما يتعلق بالتعابير العسكرية. وكان «مالكوس» يُصغي إليه مأخوذاً. بعكس صديقه اليافع الذي لم يكن ليتأثر كثيراً بالبطولات الحربية فأخذ يُسلي نفسه بآثار عجيبة على الجدار.

كان من الممكن ألا تكون هذه سوى لطخات كان سيُقدِّر للمالك أسعد حفظاً أن يُغطّيها بطبقة من الكلس. غير أن عين «ماني» كانت تلمح فيها خطوطاً والواناً. وإذ اقترب فقد أخذ يحكّ بظفره حكاً سطحياً ذوراً مُزرقاً نثره على ظاهر يده، ثم شرع يُعيد رسم الحواف المكشوفة بسبابة مضطربة. وقطع «شارياس»، وكان يُتبعه نظره منذ برهة، سرد روايته ليُجيب عن أسئلته غير المعبر عنها بالكلام:

- إنَّ جِرَافاً من (دورا أوروبوس) هو الذي رسم هذا المشهد. ويُقال إن الألوان كانت مُشرقة ومزينة بأوراق ذهبية. ولقد توقّف كثير من الزوّار المشاهير في هذا المنزل الأميري. وهنا بالذات، في هذه القاعة، كانوا يقيمون مآدبهم، أسعد مآدب (ما بين النهرين) وأسخاها بالشراب، في وسعك أن تُصدّقني.

مضت عدّة أسابيع قبل أن تُتاح للفتيّين الفرصة مرةً جديدةً لزيارة «شارياس» في منزله حيث تكرر المشهد نفسه: كان «مالكوس» يُصغي بشيء من السرور - في القاعة الفسيحة التي كانت تُظِلُّ، حسب أقوال «اليوناني»، المآدب الباذخة - إلى حكاية كوكبة الفرسان المقدونيين، في حين كان «ماني» المتربّع قبالة الجدار على بُعد خطوات منه غارقاً في تأمل لوحة جدارية كان الوحيد الذي يلمحها. وكانت «كلوويه» تندفع، كلما سمح لها نصّبها، من ركن إلى آخر مُصغيةً إلى طَرَف من الملحمة، ثم ساعيةً بلا جدوى إلى أن تُخَمِّن في عيني «ماني» المُنْدَهَشَتَيْن الرؤية التي لا يُسبَرُ غَوْرُها وكانت تبهره.

والحق أنه خلال هذه اللحظات الطويلة من الصمت والنشوة أحس «ماني» للمرة الأولى برغبة لا تقاوم في الرسم تعتمد داخل كيانه . وإنها لرغبة عجيبة بالنسبة إلى واحد من «أصحاب الملابس البيضاء»، رغبة مُلجدة، رغبة آثمة . فبأية معجزة أمكن أن تتفتح موهبة «ماني» وأعماله في ذلك المحيط المتمرد على كل جمال وكل لون وكل أناقة تُبديها الأشكال، وفي وسط تلك الجماعة التي ترى في أبسط أيقونة معلماً من معالم الوثنية؟ «ماني» الذي يبدو بمرّ القرون وكأنه المؤسس الحقيقي للرسم الشرقي، هو الذي سوف تخلق كل ضربة من ضربات ريشته، في (فارس) و(الهند)، وفي (آسيا الوسطى) و(الصين) و(التبت)، ألف موهبة فنية . حتى إنه ما يزال يُقال في بعض النواحي عن أحدهم إنه «ماني» عندما يُراد القول بعدد من علامات التعجب إنه «رسام، رسام حقيقي» .

عندما أذفت ساعة الانصراف بدرت من الغلام الذي كأنه بادرة غريبة كان من الممكن أن تبدو عجيبة لو لم يكن مُفعماً بالانفعال . فقد انحنى بتصلب أمام والد «كُلويوه» والتمس منه إذناً بترميم الرسم الجداري . وحرص «شارياس» على الإمساك عن الضحك لأنه شعر بأن الصبي كان على وشك البكاء . ولم يتمالك من تمتمة قبول مُخرج ردّ عليها «ماني» بمصافحة لائقة بإنسان بالغ .

وإذ رآه «اليوناني» يتعد وهو يظلع في مشيته، فقد ظلّ موزعاً بين الانزعاج من أنه عهد بمثل هذه المهمة إلى طفل، والشعور - على الرغم من كل شيء - بأنه يتعامل مع شخص فذ كان، لسبب من الأسباب، يهزّ شعوره هو، «شارياس» العجوز، بل يُخيفه .

انصرف «ماني» خلال الأسابيع التي تلت إلى اتخاذ التحضيرات . الفراشي أولاً، وقد صنعها بيديه من قصبات ربط إلى أطرافها أوبار ماعز حصل عليها من القرية للحصول على لمسات ناعمة، أو أوباراً قاسية مأخوذة من الأرناب البرية . ثم كانت الألوان، مسترّة أو صارخة، التي استنبطها أو ركبها بنفسه بشغف ومهارة: رمل، وقد فصل الحبيبات ذات اللون الأحمر أو القرميدي؛

وإذ دقّ قشور البيض فقد وقع على لون العاج؛ وأكمل الظلال والفوارق المختلفة بالتؤنجات أو الثمار العنبية أو ورائم الأزهار؛ ولكي يُلصقها فقد خلطها بالصمغ الذي انتزعه من جذوع أشجار اللوز.

عندما سنحت الفرصة لزيارة جديدة إلى «اليونانيين» حضر «ماني» ومعه مجموعته التي شرع يفكّ غلافها من غير تهيج. وفي أتون صيف (ما بين النهرين) عبت الأصباغ والصمغ بروائح شتى. وعندها ذهب «شارياس» و«مالكوس» إلى الشرفة للحديث كما يتحدث أب وابنه في ظل نخلة سامقة، في حين كانت «كلوييه» تقطع قطع البطيخ لينغمسوا فيها جميعاً أفواههم الظامّة.

وإذ اقتربت من «ماني» لإعطائه نصيبه فإنها لم تلمح غير ألوان مختلطة، أزرق غائم في البعيد، ثم شواطئ غير محدّدة، ترائية أو بلون الدم. وظلّت واقفة خلفه تنظر. وما هي إلّا أن ظنّت أنها تكتشف وجهاً من خلال تشابك الخطوط والألوان. وكانت أصابع «ماني» تستدير حوله فتوضّح قسّماته مع كلّ استدارة. وظهر شخص ربّما قيل فيه إنه مسافر يبرز من ضباب خريفيّ، وبدأ حاجبيه وأنفه وشفتاه وكأنها تمّتاز الجدار للجلوس إلى وليمة الأحياء.

زادت «كلوييه»، وقد سُحرت، اقتراباً من المراهق الذي قطع عمله وتفهم خطوة لتأمل بطله. وكان وجهه مُبلّلاً فرفعت ابنة «اليوناني» بحركة بريئة ذيل قميصها لتجفّف قطرة قطرة العرق الكثيف عن الصدغين وحول العينين وفوق الزُغَب الخفيف حيث كانت تتلألأ أيضاً بعض القططرات تتلألأ الندى وقد احتجزه العُشب. ولقد كان «ماني» يُحبّ شميم رائحة «كلوييه» اللطيفة، عَرَفَ الثمار الكيس ذاك، بيد أنه لم يكن يشمّها في تلك اللحظة، بل كان يستشقيها، وكانت تملأ الهواء من حوله وتلفّه وتمّتاحه. وفي كل مرة كان ثوب الفتاة يلامس فيها وجهه كانت حركاته تفتّر وتفسّسه يرقّ وعيناه تضيقان. وسرعان ما لم يعد يرى سوى فرشاته، تلك القطعة من القصب التي كان يحملها بغياء مرفوعة إلى مستوى شفيته. وتعلّق بها نظره وكأنّ كلّ ما تبقي قد توقّف فجأة عن الوجود. فمن جميع أعضائه، من بدنه برمته، لم يكن يشعر، لم يكن يعرف غير هذه اليد

التي تُمسك بالفرشاة وتشدّ عليها وتتشبّث بها بشغف. وعندما ابتعدت ابنة «اليوناني» لكي يتمكن من استئناف عمله رأته جامداً والفرشاة معلقة في الهواء وكأنه يستعدّ لوضع لمسة اللون الأخيرة.

أشارت «كلّوييه» عندئذٍ إلى أبيها بأن يقترب من غير ضجّة. إلا أن «شارياس» أطلق العنان لسعادته وهو يدخل الغرفة:

- لقد كان الأمر على هذا النحو! لا بدّ أن هذا الركن من الجدار كان على هذا النحو في أيام أجدادي.

بديهيّ أنه ما كان بالإمكان في نظره إزجاء إطراءٍ خير من هذا. فالوجه المنبعث من تحت الفراشي بدا وكأنه يشهد بالحقبة المجيدة التي اعتاد التذكير بها. وسأل «مالكوس»:

- مَنْ يكون هذا الشخص؟

ولفظ «ماني» وكأنه يتهجّى الاسم على الجدار:

- «يوحنّا المعمدان».

وسخر «اليوناني»:

- كلّاً على الإطلاق، لم يوجد قطّ «معمدان» في هذه القاعة. قد تكون بالبحري الإلهة «ديميتر»، وأمّ الشعير، أو «أرتميس الصيادة» أو ربّما الإله «ديونيسوس»، كلّ أولئك الذين كانت تؤمّ لهم جميع ولائمتنا. أو حتى...

واقترّب من الصورة التي عادت إلى الظهور.

- كان هناك أيضاً الإله «ميتر»، وكان الرسّام القادم من (دورا - أوروپوس) على علم بجميع «أسراره». إنه هو المائل هنا، وأنا متأكّد الآن من ذلك. انظر، ما زال يُرى أثر أشعة الشمس المرسومة حول وجهه!

وغمغم «ماني» وقد أصابه الرعب فأفلت فرشاته وخرج راكضاً من غير أن يودّع:

- «ميترا».

ولم يفتأ يردد: .

- ملعون! ملعون! ملعون!.

أَو لم يَعْلَمُوهُ منذ طفولته أن يهرب من «اليونانيين»، ألم يحظروا عليه أن يأكل خبزهم أو يدخل منازلهم؟ فبأيّ غرور مجنون أجاز لنفسه حقّ انتهاك ذلك؟ وما هو ذا بعدُ منهمك في رسم الأوثان. مُلجّد، كافر، ملعون.

إلى أين كان بإمكانه اللجوء إن لم يكن إلى شبه جزيرته التي لم يكن «مالكوس» نفسه يعرفها. ولقد ودّ لو يمتس فيها وينسى نفسه ويدفن فلا يعثر إنسان أبداً على جثمانه. ومن غير أن يلتقط أنفاسه انحنى فوق الماء لتهدئة عينيه.

ها هو ذا الآن ممدّد ومرفقاه مستندان إلى حافة التربة ووجهه ملتصق بصفحة الماء وقفازه الجلديان الواسعان عائمان مثل مركبتين شراعتين على وشك الفرق. وظلّ وقتاً طويلاً على هذا النحو مُسترخياً، بل ربما أخذته سِنَّة من النوم. وعندما نظر من جديد رأى صورته، وقد انعكست مشوشة بادئ الأمر، ثم أكثر فأكثر صفاء كلما زایل التغصن صفحة الماء. ولم يكن قد سبق له قطّ أن رأى وجهه من مثل هذه المسافة القريبة. وقد علقت بشفتيه المنفرجتين قطرة ماء.

وقال مرّة جديدة «ملعون!» بيد أن شفتيه ظلّتا في الماء بلا حراك.

وفكّر عندئذٍ في أن يقلصهما في تكشيرة موحشة، فلم تنقلص الشفتان في الماء. بل ابستمتا. وحاكتهما شفتاه على مهل. ولم يكن الماء قطّ هو الذي يعكس صورته، وإنما كان وجهه هو الذي يحاكي حركات شخصه الآخر المتراخي في الماء.

وسالت من شفتيه فجأة كلمات، كلمات لم تكن صادرة عنه، ولكنّه كان يتلفظ بها مع ذلك بصوته: .

- سلام عليك يا «ماني» يا ابن «باتيغ» ا.

واضطرب فكّه وتألّم. ولقد ودّ أن يجيب وأن يطرح أسئلة، بيد أن كلماته، كلماته هو، ظلّت في حلقه، في حين كانت كلمات الآخر تخرج من فمه المروّض: .

- سلام عليك يا «ماني»، منّي ومن «الذي» أرسلني.

إن المشهد الغريب على ضفة الماء قد وصفه «ماني» بنفسه. ففي نظره كما في نظر من سيُدْعَوْنَ يوماً «المانويين» فإنه يسجّل بداية «الوحي» إليه. فهكذا تولد المُتَقَدِّدَات كما يقول بعضهم: انزلاق الخيال عند منعطف سنّ البلوغ؛ لقاء مع المرأة، المرأة المحرّمة؛ وإذا الرغبة تطفح . . .

بلا ريب. ولقد كان «ماني» بحاجة إلى تأمل ذاته في مرآة الطفل هذه ليعيد لصق قطع ذاكرته المهشّمة. فالحقيقة بشأن مولده، بشأن قدومه إلى بستان النخيل، إنما كان يحبس بها، وكان قد جمع أجزاء منها، غير أنه لم يكن يمرّو على وضع كلّ منها بحذاء الآخر؛ وقد انبغى أن يُقِيلَ ذلك «الصوت» فيناديه «ابن باتيغ»؛ وانبغى أن يسمع من فم «التجلي» اسم «مريم».

«في الثانية عشرة من العمر علمت في نهاية الأمر من المرأة التي حملت بي وولدتني، وكيف تكوّنت في هذا الجسد المكوّن من لحم، ومنه كان بذار الحبّ الذي بعثني حيّاً».

تلكم هي أقوال «ماني» التي نقلها بعد ذلك بأعوام حواريوه.

ومع أنه كان ابن عصره فقد نظر إلى هذه الأمور نظرة ساذجة ومُفَعِّمة بالحميّة. فالصورة التي رآها، أو ظنّ أنه رآها، ذلك الرميض الراسي على صفحة الماء، يسمّيها في كتبه «توأمي»، «صنوي»، ويتحدّث عنها وكأنه يتحدّث عن رفيق حقيقي. وإنه لرفيقٌ تعاسيٌّ بالنسبة إلى المراهق المتمرد. وحليفٌ عزيز جداً على الأخصّ في مواجهة «أصحاب الملابس البيضاء ومعتقداتهم وعظوراتهم».

وهكذا فإنه في اليوم الذي تمّ فيه ذلك اللقاء الأول، يوم أفزعه التجليّ على الرغم من كل شيء، أراد التكفير عن رسمه على الجدار وجه الإله «ميتر» فسمع من فم «التوأم» الردّ الذي كان يرجوه: .

«ارسم ما حلا لك يا «ماني»، ف «الذي» أرسلني لا منافس له، وكلّ جمال يعكس جماله «هو».

- ٤ -

هل كان في وسع الصبيّ إذن أن يرسم بلا وَجَل، حتى ولو صورة وَثْن؟ إن «توأمه» يقول له أشياء أخرى كثيرة كان متعطشاً لسماعها: أن معتقدات «أصحاب الملابس البيضاء» ليست معتقداته، وأنه لم يتم يوماً إلى ديانتهم، وأن نقاوتهم ليست سوى ادّعاء وانحراف. وأنه عندما يصبح ذات يوم ناضجاً لمواجهة الدنيا فسوف يُغادر بستان النخيل ذاك.

عاهد «ماني» نفسه على عدم البوح بشيء من كل هذه الأشياء لأحد. إلا أن نفسه كانت تفيض بفرح غامر يُخِيل معه أن روحه قد تلاحت بعد طول ارتبان بدلاً من أن تنقسم أو تنصدع أو تنشطر. أفلم يغادر بيت «شارياس» وكأنه ينجو بنفسه من ماخور اشتعلت فيه النيران؟ وما هو ذا يعود إليه بعد بضعة أيام ويعود إلى جلسته أمام الجدار ويلتقط فرشاته التي كان قد ألقاها من يده فيؤجج ببضع ضربات نشيطة الأشعة التي تكلّل رأس «ميترا». أفلم يكن قد هرب من «مالكوس» من غير أن يُقيم له أي اعتبار؟ وما هو ذا يعود فيلتفت إليه أشدّ مراعاة وأكثر إمعاناً أيضاً في الصداقة.

وكان «الصُوريّ» يعلم جيداً أن صديقه قد تغيّر، وأنه بات مختلفاً عمّا كان، ولكنّ مختلف في أي شيء؟.

عندما جثا المراهقان أحدهما بجانب الآخر في «البيت المقدس»، المكان الذي تقام فيه الشعائر، لم يكن «ماني» يُرْتَل. بل كان يحرك شفّتيه وذقنه وحاجبيه ليُوهّم بأنه يُرْتَل، بيد أنه لم يكن يخرج من فمه أي صوت. وإذا كانا معاً في سُخرة ذات يوم في بستان الجماعة فقد لاحظ «مالكوس» أن «ماني» لم يكن كذلك يعمل. بل كان يرفع بعزّفته بثاقُل ويخفضها ببطء، ببطء شديد بحيث تكاد وهي تلامس التربة تخدشها. ثم كان يتظاهر من حين إلى حين بأنه من العباء وكأنه قد عَزَقَ حقاً، فيتوقّف ويُسند أذنيه بأناة إلى جذع شجرة رمانٍ أُمّلس لكي يستعيد أنفاسه.

ولم يتمالك «مالكوس» في ذلك اليوم عن سؤاله عما كان يفعل. وعندما التقط «ماني» غصناً مقطوعاً كان قد بدأ يذبل وإن لم يزل أخضر فلوّح به وفرّق وكأنه سوط.

.. اسمع هذا الصغير إنه الهواء يُعَوِّل لأني أهُتته. ولو كنت تُحسِّن الإصغاء إليه لسمعتَه يقول: تخفّف فوق هذا الثرى، سِرّ من غير أن تشدّد الوطء، تمهّب الحركات الفظة، لا تقتل الأشجار ولا الأزهار. تظاهر بحرث الأرض ولكن لا تمجرّحها بل اكتفِ بمداعتها. وعندما يرفع الآخرون عقائرهم حرّك شفّتيك ولا ترفع عقيرتك.

لسوف يقول «ماني» فيما بعدُ وهو يذكّر بأعوامه في بستان النخيل التابع لـ «أصحاب الملابس البيضاء»:

«لقد سِرْتُ وسط هؤلاء الناس بحكمة وحيلة، محافظاً على الراحة، غيرَ مقتربٍ ظُلماً، غيرَ مُنزِلٍ أي نوع من العذاب، غيرَ مُتَّبِعٍ شريعتهم، غيرَ خائضٍ في أي حديث على طريقتهم».

فأما الحيلة فقد انبغى اللجوء إليها للعيش يوماً بيوم في كتف هذه الجماعة من غير التقيّد قطّ بممارساتها، ولكن من غير التظاهر أيضاً بمناقضتها. وذلك لأنه كان على المراهق أن يُخفي حقيقته الخبيثة، وأن يتعلّم ويتأمل وينضج خلال

سنوات طويلة إلى أن يُصبح جاهزاً لمواجهة الدنيا. وكان عليه بانتظار ذلك أن يحيا في المراءة والتظاهر والتخفي. ولقد أتبع ذلك بشدة على كل حال، وعندما كان يُحدث أن يفقد الشجاعة أو المواظبة فإنه كان يردّد في نفسه: «إنه بمحاكاة حركات الناس يتعلّم المرء عدم جدواها».

ومع ذلك فقد بقي مضماراً كان يحرص فيه «ماني» على عدم التظاهر. فمن بين جميع أبنية البستان كان هناك واحد، المكتبة، لم يكلّ قطّ عن اجتياز عتبة. والمؤسف أنّ «سيتاي» كان قد اختار الإقامة في ذلك المبنى بالذات. ولم يكن يشغل منه غير خلية متواضعة جداً. ولكنّه كان هناك على كل حال، قريباً جداً من الكتب والقراء. ولم يكن أحد ليزعج «ماني» ما دام مرجعه مقتصر على المؤلفات التي كان «الأب» يوافق عليها. ولكنّ ما إن تُسوّل له نفسه تصفّح مخطوطات أخرى حتى يكون على ثقة من قدوم «سيتاي» أو أحد «الإخوة» القائمين على خدمته، في الدقائق التالية، وهما يلوحان بالتهديدات واللعنات.

والحق أن المؤلفات المسموح للمريدين، ولا سيّما أصغرهم سنّاً، بأن تصل أيديهم إليها كانت نادرة في هذه المكتبة الغنيّة إجمالاً وغير المتّظر العثور عليها في ركن منعزل من وادي «دجلة». وكان يكفي أن يكون المؤلف وثيقاً لكي يُحکم بالطبع على كتاباته بأنها مُلحّدة. والمؤلفات الوحيدة التي لم يكن يشملها الحظر هي بعض الأبحاث القديمة في الطبّ والنبات والنجوم والرحلات. وإذا كان المؤلف يهودياً فإنه ينبغي التأكّد ممّا إذا لم يكن قد قدّم - على غرار «إبراهيم» - قرايين من الحيوان على أحد المذابح، ولا وافق بشكل خاصّ على مثل هذه الممارسات؛ وهذا يُفسّر أن «التوراة»، كما كانت تُقرأ في بستان النخيل، قد بتر جزء لا يُستهان به من نصوصها. وإذا كان المؤلف في نهاية المطاف مسيحياً فإنه يُواجه على الفور بشبهات قاسية في الهرطقة؛ وعليه فإلّا من بين الأناجيل العشرين التي كانت المكتبة تملك نسخاً منها، ظل إنجيلان أو ثلاثة فقط مسموحاً بها، وأما الباقي فكان يكاد يُعتبر أحسن من رسائل «بولس الطرسوسي» الذي لم يُغدّو عليه أفراد الجماعة قطّ نعت «القدّيس»، وإنما نعت

الكافر والخائن وأمير المهرطقة، لأنه، حسب ما قال «سيتاي»، «قد بهرج عقيدة يسوع» لكي يستسيغها الإغريق.

وأما الكتب القليلة التي لم تكن محظورة على «ماني» فقد قرأها، وأعاد قراءتها، قبل أن يحفظ عن ظهر قلب مقاطع طويلة منها كانت قد أعجبته أو استرعت انتباهه أو حيرته. وكان يُفاجأ أحياناً، وهو يتصفح بعين كسول نصاً سبق أن عرفه كلمة كلمة، بأنه يرى بالصُّور المشهد الذي يتحدث عنه ذلك النص. وعندها كانت تعتلج في نفسه الرغبة في الرسم. وكان ذلك يبدأ على الدوام بمواجهة طويلة بينه وبين الصفحة، ثم لا تلبث هذه أن تكتسي فراغاتها حول الكتابة الأرامية بمشهد حافل بالأشخاص والأزهار والحيوانات الخرافية. ومع ذلك فإنه لم يكن يُراوده في لحظة من اللحظات أن يصطحب نصاً أو يزينه بالصور أو يزخرفه، على الرغم من أن هذا التعبير الأخير كان سيملاً نفسه حبوراً؛ بل كان مقتنعاً، على العكس من ذلك، بأنه لو قرئت رسومه عن كُتب لفُهمت مادتها من غير ما حاجة إلى الاستعانة بالكلمات.

وعلى هذا النحو كان فنّ «ماني» يتفتح في هوامش الكتب، من غير سابق تصميم، ولكن بالجموح الماهر الذي يرافق النضوج المبكر. وكان يخطّ بادی الأمر بمداد النساخ الخطوط النحيفة التي تُحدّد هيئة الأشخاص والأشياء ثم ينفخ فيها الضياء والوضوح. وإنها لدقائق من السعادة يختطفها يوماً بعد يوم من يقظة «الإخوة» وحذرهم.

لكن لم يكن بدّ من أن يُكتشف الأمر. فما إن رأى أحد «أصحاب الملابس البيضاء» للمرة الأولى «ماني» وهو «يلطّخ» صفحات أحد الكتب المقدسة حتى هرع يُخطّر «سيتاي» بالتجديف المُقترَف. ولم يشأ الصبي أن يتوسّل ولا أن يهرب. وإذا كان متشياً بلحظة الإبداع فإنه لم يستسلم للخوف ولا حتى للحذر الذي كان قد رصده لنفسه. وعندما انتصب المعلم أمامه خاطر باعتراّف وقبح.:

- لم أنّه بعدُ رسمي.

وإذا أخذ «سيتايي» الكتاب، وهو نسخة من إنجيل «توما»، فقد توقّف منذ التوطئة عند رسم يمثّل «يسوع» وسط حواريّيه. ولم يكن أي واحد من أولئك الأشخاص مرسوماً بالجسد، فيما هم سوى ثلاثة عشر وجهاً، وفي الوسط «الناصري» وخلف رأسه قرص شمسيّ على شاكلة آلهة (تدمر). وقریباً . ما «توما»، تَوَأمه بحسب اعتقاد الجماعة؛ وحوّلها الوجوه الأخرى دائرة وكأنها كواكب في سماء زرقاء وسوداء. وكنتم «سيتايي» أنفاسه. وكان المريدون خلفه ينتظرون حُكمه بصمت.

بيد أن صدور الحكم تأخّر.. فقد مضى المعلّم يضع الكتاب فوق إحدى الطاولات، أقرب واحدة من النافذة، وغرق في تأمله من جديد على ضوء النهار. كانت الصورة التي ينظر إليها تنظر إليه أيضاً، وكانت وراء الورقة بكثير، وأدرك أنها لا يمكن أن تكون قد وُلدت من خيال المراهق. فلقد تعمّقت ملاحظها وازدادت نظرتها كدراً وكأنما أصابها الخوف.

وفي حين ظلّ الرجل خائراً، كان «ماني» يجول بنظره على الجدران التي تكدّست لصقها الرُّقاق وأوراق البرديّ الملفوفة والكتب المؤلفة من سعف النخل والمحزومة بحَبِيلَات رثّة. وكان الصبيّ يعرف كل مُصنّف من جلده فآخذت شفتاه تتمتمان لاهِيتَيْن بأسماء المؤلفين: «بطليموس»، «أريان»، «مارسيون»، «بردوزان»... وكان في مُكنّته أن يظلّ كذلك ساعات من غير كَلَل، مراجعاً في ذاكرته ما حفظه من كل منهم، وفي بعض الأحيان ما كان قد أغري برسمه أيضاً. وأقبلت ابتسامة أشرق معها وجهه الطفولي المفتون. وكان قد سبق ذلك أن غاب كل شيء عن الوجود حواليّه... إلى أن تحطّمت هذه الدُّعّة الهشّة عند أول كلمة سمعها. فقد قال «سيتايي» الذي نمت عيناه وصوته عن تأثيره: .

- هذه الرسوم، آلهة أم الشيطان هو الذي ألهمك إياها؟

واستدار من لحظته وخرج ليُدلّل بالتأكيد على أنه لم يكن ينتظر أي جواب من فم «ماني».

ظلّ المعلّم متجهماً في الأيام التي تلت وكأنه يتفكّر في عبرة تنحفر إلى الأبد في ذاكرة المراهق الغضة. وكذلك حرص «الإخوة»، باستثناء «مالكوس»، على ألاّ يبادلوا المذنب كلمة واحدة خوفاً من أن يُصيّبهم غضب «سيتاي»، ويسبب الرعب الشديد الذي كانت توحى به إليهم جميعاً الخطيئة التي لم يُعاقب عليها بعدّ.

كانت الأيام تمضي، وغدا هواء بستان النخيل مُحرقاً، ولم يكن لشمس صيف (ما بين النهرين) يدّ في ذلك. وما كان جوار «دجلة» ليلطفه قطّ هذه المرة. فلقد كان المعلّم يشعر بأنه مهتدّ في سلطانه. وكان يقول في نفسه: «ألسْتُ أنا الذي قرّر، مستجيباً لاندفاعة مباغثة، أن يذهب ذات يوم إلى (المدائن)، إلى معبد الوثن «نُبو»، ليصطاد عند حافة الحوض أميراً «بارتياً» عجيباً يبحث عن الحقيقة؟ ألسْتُ أنا «سيتاي»، مَنْ ألحّ على جلب هذا الصبيّ إلى هذه «الجماعة»، وحين ضعف «پاتينغ»، ألم أكن أنا الذي ذهب شخصياً لجلب الصبيّ؟ ألم أكن بذلك أداة «مشيئة سامية»؟ ثم ألم أُصيخ، بشكلٍ ما، عراب «ماني»، أباه في «الجماعة»؟.

«ومع ذلك فإن هذا الصبيّ الذي أعتقد أن «العناية الإلهية» قد أشارت به هو نفسه الذي يتتهك شريعتنا، هو نفسه الذي يجرؤ على رسم ملامح «الوجه القدسي» بأصابعه القدرة! بأية لغة أُكلّمه، وأي سلوك أسلك معه، وكيف أمتعه، على الأخصّ، من نشر الاستهتار والاضطراب في بستان النخيل هذا؟».

إذ كان الاضطراب قد أخذ يعمّ بين «الإخوة». فكان بعضهم، وهم قلة قليلة والحق يُقال، يتساءلون: ألا تبدو، في الثانية عشرة من العمر، عند مفارقة الطفولة، تخايل «المختارين» وتنفجر حكمتهم في وجه من يكبرونهم؟ فكما «يسوع» في وجه فقهاء الشريعة في (هيكل القدس)، كذلك هو «ماني»! وكان هذا التشبيه يثير حفاظ معظم «أصحاب الملابس البيضاء» الذين بدأوا يأخذون الآن على «سيتاي» قلة تشدّد بإزاء المُلحد. وإنها المرة الأولى منذ

تأسست الفرقة، قبل أربعين عاماً، يُعَارَض فيها مُرَشِدُهَا. وكان خصومه يقولون: «لو كان «ماني» ذلك الشخص الطاهر الذي أشارت به «العناية الإلهية» لكان اختار رفيقاً له، من بين هذا العدد من المريدين الفضلاء، شخصاً غير هذا الفاسد «مالكوس» الذي يتهك كل يوم أنظمة حياتنا ولا يعلن سوى الاحتقار لجماعتنا».

والحق أن الفتى «الصُوري» ما كان من الممكن أن يكون نموذجاً للتقى. فقد كان يناهز أعوامه الخمسة عشر، أي سنّ النضج المعترف بها، ولم يكن يُنفي قط رغبته في مغادرة بستان النخيل. ولا كان يتحرّج كذلك من الحديث إلى الجميع عن (المدائن)، وعن تجارته في قابل الأيام، وعن قصره وقوافله. ثم إن «سيتايي» وأصحاب الملابس البيضاء الآخرين كانوا قد كفّوا عن منع اختفائه مدركين أنه لم يكن يتمي قط إلى شريعته.

ما أشدّ إذن ما كانت دهشة «مالكوس» لدى عودته من القرية ذات مساء عندما انقضّ عليه ثلاثة من أعتى «الإخوة» وثبّته إلى الأرض ثم جرّوه إلى فناء «البيت المقدس» حيث أوثقوه إلى نخلة النادمين وأخذوا يَكِيلون له الضربات من غير أن يقدّموا له أي تفسير.

وعندما هرع «ماني» كانت السّياط الثلاثة المصنوعة من نبات معترش مضفور تنهال على ظهر صديقه وفخذه بانتظام شرّس مصحوبة بالمواعظ المعتادة: «اعترف بذنوبك!»، «اعترف!»، «أظهر توبتك!». وفي كل مرة كانت صرخات «الصُوري» تطول وتزداد إيلاًماً.

وبإشارة من «سيتايي» ازدادت أيدي الجلادين وطأة، فصرخ المراهق بغتة في سورة غضب: .

.. لست الوحيد الذي يفرّ هنا، فلماذا أعاقب أنا؟.

وأشرق وجه «سيتايي» بابتسامة. فها قد جاءت آخر الأمر الوشاية التي كان يصبو إليها. وهكذا اقترب من المُتَكَلِّ به، وكأنه لم يكن يتنظر سوى هذه

الكلمات، لكي يتوقف الجلّادون على الفور عن الضرب.

- مَنْ كان معك إذن؟

وإذ ثاب «مالكوس» إلى رشده فقد تمالك نفسه.

- لا أحداً! كنت وحدي!

- هذا المساء ذهبت وحدك، أعلم ذلك. ولكن في غير هذا اليوم مَنْ مِنْ هؤلاء الإخوة رافقك؟

- لا أحد منهم!

لم يكن يُسمع غير لهات المراهق المنكّل به عندما التفت «سيتاي» بجلال إلى «ماني» وقال بصوت متتصر: .

- أعرف أنه أنت يا «ماني» مَنْ يصحبه في مغامراته، ومعظم الإخوة يعرفون أيضاً. بيد أني أردت أن أسمع ذلك من فمك.

كان «سيتاي» قد صرخ تقريباً، ثم أشار إلى الجلّادين بأن يتابعوا عملهم. وأسرع «ماني» يحيب: .

- إذا كانت كلمة من فمي تُجنّب «مالكوس» هذا العذاب فسأقولها.

وصاح «سيتاي»: .

- حسناً قلّها، انطق بها.

- هذا صحيح، لقد رافقت «مالكوس» في بعض النزعات.

- وإلى أين كنتم تذهبان؟

لم يكن ما يطلبه «سيتاي» اعترافاً جسوراً، بل كان وشاية.

وأجاب «ماني» بتسليم: .

- كنا نذهب إلى القرية.

- هذا شيء مؤكد، ولكن إلى مَنْ ذهبتما؟

- إلى أشخاص شقيّ.

- إلى «اليونانيين»؟

- أحياناً.

- إن مرة واحدة لكثيرة. لقد انغمستا في النجاسة والكُفْر.

كانت تصاحب كل جملة يقولها «سيتاي» الآن جملة تنم عن الموافقة. وتابع هذا بصوت لا يني يظهر مزيداً من الاستنكار ومزيداً من الوشاية: .

- وعندما كنتما تذهبان إلى «اليونانيين»، ألم يحدث قط أن أكلتما من خبزهما؟

كان جواب «ماني» حاضراً في رأسه فتقدّم خطوة ورفع رأسه وتبهاً ليقول بصوت مفاخر: «أجل، لقد أكلت من الخبز اليوناني كما فعل قبلي رُسُل «يسوع». فعندما أرسلهم للتبشير بين الأقوام لم يأخذوا معهم رحي ولا قِدرأ. ولم يكن لهم من متاع غير الثوب الذي يلبسونه». ولن يكاد يقول هذه الكلمات حتى يحمرّ وجه «سيتاي» وترتفع جملة «أصحاب الملابس البيضاء» انحيازاً إليه. ولكنه في اللحظة التي همّ فيها بالكلام، وكان قد تقدّم بخطوة متحدية، حتى تبلبل ذهنه وتراخت أطرافه، ولم يعدّ يتحكّم بشفثيه ولا يبيديه فظلاً في مكانه لا يريم وفي حالة يُرثى لها. وأخذ يتنحب.

وانتصر «سيتاي». فلقد استعاد سلطانه وأسكت المِقْلَاع. وقاس «ماني» بنظره من أعلى إلى أسفل قبل أن يستخلص بوقار الأمير: .

- إن بعضكم أيها الإخوة يريدون أن أطرّد في هذه اللحظة من جماعتنا الفتيّن الجاهليّن اللذين انتهكا شريعتنا واستخفّا بتقليدنا وبرهنا عن قدر كبير من الغرور والادّعاء. بيد أنه ليس في وسعي أن أعامل هذين المخطئين بالطريقة ذاتها. فـ «مالكوس» لم يَعتنّق يوماً ديانتنا بملء خاطره. والذين اتّوا إلى

هذا المكان وكانوا بالغين اختاروا اختياراً ورعاً سوف يُجَازُونَ عليه، والذين قلعوا أطفالاً كبروا في كنف شريعتنا. ولا ينتمي «مالكوس» لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك، ولقد أبقيناه وفاءً للمرحوم أبيه، ولكن لنعرف أن نتقبَّل أنه لن يكون أبداً واحداً من جماعتنا، إنه ينتمي إلى قذارة الدنيا وعليه الآن أن يعود أدراجه إليها. والاحتفاظ به هنا معناه المخاطرة برؤيته يُفسد أكثر مريدينا قابلية للعطب، ولقد كان لنا برهان على ذلك هذا المساء.

«ومن غير تأثير «مالكوس» المشؤوم، من غير الإغراءات المستمرة التي يُخضعها لها، سوف يعود «ماني» سريعاً أودَّعَ حَمَلٍ في هذا القطيع».

عندما تمّدد «ماني» في ذلك المساء على الحصير الذي كان فراشه منذ أن قدم، كان المَهْجَع معتماً وخالياً، إذ كان «الإخوة» لا يزالون مجتمعين في «البيت المقدس» لصلاة الغروب. وكانت أصواتهم المختلطة تترامى إليه في نفثات. ثم انتشر مناخ ثقيل من السكون. وعندها اعتدل «ماني» وطوى تحته ساقه اليسرى، الساق المعطوية، وأدار وجهه إلى النافذة باتجاه البدر إلى أن غسلت هالته عينيه فما لبث أن أغمضهما وكأنه يهضم النور الذي التقطه على هذا النحو.

عندئذ ارتسمت في ذهنه الصورة التي سبق أن رآها في ماء القناة، صورته هو، صورة «توأمة». ليتمكّن المراهق وقد انفرد بها من البكاء.

- لماذا أذلت نفسي هكذا أمام «الجماعة» بأسرها؟ لم أستطع الردّ على «سيتاي» وإفحامه؟

وأجاب «الآخر»: «لم تأزف الساعة بعد».

- لم أقول لهؤلاء الناس حقيقتهم؟

«ألم تقرأ أقوال «يسوع»؟ لا تُرمى اللّائى للخنازير إنه لا يكشف عن الحقيقة إلا لمن يستحقونها. إن رسالتك فتنة الملوك وقلوب المعتقدات وهز العالم،

وأنت لا تفكر إلا في بهر بعض «أصحاب الملابس البيضاء».

- لكنني هنا عشت على أي حال منذ طفولتي، وهؤلاء الناس هم الوحيدون الذين أخالطهم.

«إنك لم تنتم قط إلى «أصحاب الملابس البيضاء»، ومصيرك هو غير هذا، ولن تشيخ بين هؤلاء الناس».

وتوقف عن البكاء عندما تكونت هذه الأقوال فوق شفتيه، وعلى مدى برهة داعب حُلماً: ماذا لو رحل هو و«مالكوس» منذ الآن؟ ولكن «الآخر» تقنع جبال نزقه بقناع الزمن المُلغى الوادع.

«لا يا «ماني»، لا تستطيع أن تكشف نفسك، فما يزال الوقت مبكراً جداً لكي تواجه العالم، ولن يُصغي أحد إلى صبي».

على الرغم من أن «مالكوس» كان مطروداً شرعاً فقد سُمح له بالبقاء بضعة أسابيع أخرى في بستان النخيل. وإنه لتسامح لم يكن ليخلو من علاقة ظاهرة بالجروح البارزة التي ألحقت به. ولم يكن جلّاده «سيتاي» ليُريد أن يُقدّم للقرويين المجاورين مشهداً كفيلاً بأن يُغذي شكوكهم.

وكان «ماني» مقتنعاً بأن صديقه سوف يرفض هذه الرحمة المتأخرة والمشبوهة ويتنهمز أول ليلة فيهرب. غير أن «الصوري» لم يحتقر المهلة التي عُرضت عليه. وقد شرح ذلك لـ «ماني» بقوله: «لا أودّ أن أصل عند «اليونانيين» على هذه الحال!» فلم يكن يريد أن يمثّل مراهقاً مجلوداً مُهاناً في حضرة امرأة عمره والرجل الذي سيصبح حماه. ما دام في مكانه أن يتنظر في الظل أن تختفي آثار ما كان!

والحق أن «مالكوس» لم يكن مستعجلاً الرحيل كثيراً. وحين حضر بعد عشرين يوماً من الحادثة أحد «الإخوة» ليشرح له على لسان «سيتاي» بأن عليه أن يذهب بدا عليه الاضطراب.

- لقد آن الأوان لكي أعترف لك يا «ماني» بأني كذبت. كذبت كثيراً عليك.

- ليس الوقت وقت اعترافات، فلقد نُسيَتْ أكاذيبك. ولا تتخذ هذا الصوت النائم عن الوداع فلسوف نلتقي.

- لم أكن أتحدث عن الأكاذيب الماضية، فالأمر يتعلق بما نحن فيه اليوم. لقد أوهمتك أن «اليونانيين» ينتظرانني، وأنها مثلَهفان لاستقبالي ما إن أتركُ بستان النخيل هذا. فاعلم أني كذبت!

- ألا يريدك «شاريلاس» زوجاً لابنته؟

- أظنّ أني تجرّأت حتى على مفاتحته بذلك؟

- حسبك، لقد رأيتهما مرة معاً تتحدّثان وتضحكان. إنه يحبّك وكأنك ابنه حقاً.

- ما دمت أسأله عن مآثر سلفه في معركة «أربيل»! بيد أنه لو قُدِّر أن يشكّ لحظة بأني أحلم بأن انتزع منه ابنته الوحيدة لأقودها إلى (المدائن) لما عاد يفتح لي بابه قطّ.

- وما أدراك؟ إني على ثقة بأنك لو طلبت منه بالفعل يد «كُلُوويه» لقبل من غير أدنى تردّد.

- من ذا يرفض تقديم ابنته إلى أحد «أصحاب الملابس البيضاء»؟

ووجد الصديقان أنفسهما غارقين في الضحك. لا بصوتٍ مرتفع فقد كان بالإمكان أن يسمعهما.

لم يعد «ماني» يسمع بأخباره. فقد كان هو نفسه مراقباً على الدوام، وفي كل مرة يجتاز فيها جدار السياج الصغير كان اثنان من «الإخوة» يرافقانه. ولم يكن يجيد الراحة إلّا في مُعَتَزَلِه السريّ. وبمعجزة ما لم يكن «أصحاب الملابس البيضاء» يزعجونَه قطّ حين يذهب إليه أو يعود منه، حتى لكأنّ ذلك المكان

كان يزوده بنوع من الخفاء عن البصر، ولكأن الوقت الذي كان يُضفيه فيه لم يكن محسوباً عليه.

ومع ذلك فقد لاحظ ذات يوم وهو يتخطى النخلة التي كانت تشكّل الحاجز، وجوداً غريباً.

- «كُلّويه»! كيف وصلتِ إلى هنا؟.

- كانت النبرة فظة. فلم يسبق لأي إنسان أن داس أرض شبه جزيرته.

- لقد تبعتك مرة، منذ مدة طويلة. بيد أنك كنت تبدو مستغرقاً جداً بحيث لم أجرو على الاقتراب.

لم يلبث «ماني» أن استعاد اللهجة الرقيقة التي طالما استخدمها مع ابنة «اليوناني». وكان أن غُفِرَ تدخّلها.

- ماذا عندك من أخبار عن «مالكوس»؟.

- لقد وجد مأوى في الجهة الثانية من التربة عند مزارع بحاجة إلى مساعدين لجني المحصول. وهو يشتغل من الصباح إلى المساء حتى لينام من شدة النصب. ولم يأتِ إلى بيتنا سوى مرة واحدة. لقد اشتقنا إلى زيارتها. وقد سألتني أبي أمس عما إذا لم تكن راغباً في إصلاح رسوم أخرى فوق جدراننا؟.

كان شعرها، شعرُ الصبية، ملموماً تحت خمار امرأة، وكانت حركاتها تنم عن خُفَر لم يعهده «ماني» فيها.

- إنني أحفظ بذكرى رائعة عن تلك المغامرات. وما زلت أرى أباك مع «مالكوس» لقد بدأ يصبحان يهذارين. . .

- «ماني»، عندما كتبنا تأنيان لزيارتنا كنتِ أنتِ على الأخص من أنظر إليه.

وكأنما لم يسمع فحاول أن يحتفظ بالنبرة المرحّة نفسها.

- . . . معركتهما في «أربيل» التي لم تكن تنتهي، والسلف الذي كان يصل

دائماً في اللحظة المؤاتية لإنقاذ «الإسكندر». وتلك الضحكة المتهللة التي يطلقها «مالكوس»...

إِلَّا أَن «كُلُويِه» لاذت بالوقار.

- «ماني»، أنت من كنتَ أنظر إليه على الدوام. إن أبي يحبك أيضاً.

كانت ابتسامة قد بدأت تفرُج قَسَمَات «ماني». غير أنه قمعها ورجع خطوة إلى الوراء.

- و«مالكوس»؟

- ما كان بيني وبينه قط من وعد.

- إنه منذ سنوات يحلم...

- هل عليّ أن أحمل أحلام الآخرين؟

وغمنم «ماني»:

- لكني أنا وعدت.

ولف ذراعه اليسرى حول شجرة مألوفة وكأنه يَنشُد عَوْنَهَا قبل أن ينطق بالكلمات التي ستُبعد عنه مَنْ يرى «مالكوس» أنها «سَيِّدَتُهُ».

- لقد قطعت على نفسي عهداً في بستان النخيل هذا بآلَا أَنُحْدَ لي زوجة أبداً. انظري، لقد لففت هذا الحبل حول قامتي...

وأضاف وكأنه يودّ تعزية «كُلُويِه»:

- في ذلك الوقت لم أكن أعرفك.

- لا، لم تكن تعرفني. فهل سبق أن عرفتَ شيئاً غير بستان النخيل هذا؟ وهل ستعرف يوماً شيئاً غيره؟ هل ستحبّ يوماً أحداً.

والح «ماني» قائلاً وهو يجهد في اتِّخَاذ أجفّ نبرة:

.. لقد قطعت عهداً!.

عندئذٍ فرّت «كلّرويه». وعلّق جِمارها الذي لم تُحسِن عقده في أحد الأغصان، ولكنها لم تتوقّف لالتقاطه.

وانتظر «ماني» أن تصبح بعيدة لكي يبيكي، لكي يسألها الصفح في صمت. ولكي يصفح هو نفسه عن «مالكوس».

بعد ذلك بشهر علم «ماني» من الشائعات في بستان النخيل أن «مالكوس» قد تزوج ابنة «اليوناني» وأنها ذهبا معاً إلى (المدائن).

كان على «ماني» أن يصبر ويصابر، أن يصبر طويلاً، بعد انقضاء أعوام
مراهقته بكثير. وبحسب الحديث الذي حفظته كتابات التلاميذ فإنه لم يتلق إلا
في الرابعة والعشرين، «من شفقي تَوأمه»، الكلمات التي طالما أمل في سماعها:
«ها قد أزفت الساعة لكي تتجلى لعيون العالم. وتترك بستان النخيل هذا».

وإذا كان قد تلبّث على هذا النحو بقرب «أصحاب الملابس البيضاء» في
حين كان يرفض ممارساتهم ومعتقداتهم ويتألم كل يوم لاضطراره إلى غخالطتهم،
فربما لأن رغبته في الرحيل كانت مصحوبة بخشية يستحيل البُوح بها. وكيف
كان في وسعه، هو الذي عاش فتوته بأسرها في عالم الطائفة المغلّق، عالم القمع
والحماية الذي يشيخ فيه المرء ويخشن طبعه من غير أن ينضج حقاً، العالم الهزيل
الحلّير المنطوي على وساوسه، الجاهل في نهاية المطاف لكل ما يمكن أن يحدث
خلف جدار سياجه الصغير، كيف كان في وسعه أن ينظر بخفة إلى المواجهة مع
الدنيا؟.

لقد ترك إذن الأيام والأسابيع المتشابهة كلّها، الكثيرة كلّها، الثقيلة كلّها،
تركها تمضي. حتى كان ذلك الصباح من نيسان (ابريل)، صباح الخلاص ذاك
الذي بدأ بذهابه بعد الاستيقاظ من النوم لغسل وجهه في مياه ترعة «دجلة».

وقد لبث هناك دقائق طويلة منحنيّاً بلا حراك، بعد انقضاء وقت على عودة جميع «الإخوة». ثم إنه نظر، وهو يعتدل على مهل، إلى البعيد بشغف. وكانت الشمس محجوبة بعض الشيء، والهواء دافئاً ومتراحياً، وكان سعف النخيل يترجّح بكأبة ترجّح أجنحة ضخمة مأسورة. وبغتة بدا له زمن حياته نفساً. كان قراره قد قرّر: سوف يرحل قبل المساء!

كان «ماني» يردّد في نفسه قائلاً: «الرحيل عيد، وربما هو العيد الوحيد بألف شكل وألف ثوب من القماش الجعّد أو من خيوط البلوط. وإذا كان الناس رهائن الأفق فهل احتفلوا يوماً بغير ذلك؟».

لم يخرّ لرحيله من «بستان النخيل» التظاهر ولا الفرار، وإنما التبخّر والمواجهة العريضة، وإنما الاحتفال: التعرّي قبل كل شيء، والقيام على مهل بسلخ هذا الجلد الآخر الأبيض الذي يغلفه ويختق أنفاسه منذ عشرين عاماً، سلخه عن جلده، والتنفس في العري، والنظر بازدهاء إلى ثوبه الرثّ المنشور على الأرض مصروعاً مُفرّغاً من كل سمك الحياة.

ثم الانبعاث بالألوان: «كان «ماني» يلبس سراويل فضفاضة بساقين مصبوغتين بالأصفر المحاكي لون الصدا والأخضر المحاكي لون الكراث»، هذا ما نقله خبر مدوّن مُغرق في القدم. وكان على كتفيه قباء أزرق سماوي، وكان قميصه، على الرغم من بياض لونه، مرصعاً بأزهار رسمها الرسام بنفسه في مواسم انتظاره الكثيرة وهو يحلم، كما يُطرّز جهاز العروس. ومع ذلك فإن تلاميذ «ماني» سوف يؤثرون وهم يذكرون فيما بعد يوم القطيعة ذاك أن يتحدثوا عن «مؤلّد»، حتى إنهم لَيَسْتَوْنَ «مريم» و«ماردين» وأقمطة «أوتاكيم» المشدودة. ولسوف يقولون: لا، لم يكن مولدّاً الانتقال من أحشاء امرأة إلى أحشاء جماعة، لم يكن سوى تخمل لم ينجح، وقد توجّب شيء آخر، عشرون عاماً من السفر حول الذات. وبالصبر تُذَرِّك زلزلة العالم.

حين انتهى «ماني» من التهنيد في ذلك اليوم ومثل أمام «أصحاب الملابس البيضاء» المجتمعين تحت قبة «البيت المقدس» الواطئة، كانت نظرتهم مستقيمة وفي يده عصاً وقد تأبط كتاباً. وكان يُستشَفّ الاطمئنان في خطوه، غير أن زغب لحيته القليل كان لا يزال يكشف عن بعض الهشاشة.

كان آخر من دخل. وعلى الرغم من أن الصلاة كانت قد بدأت فقد أحدث ظهوره بعض المهمات. ولقد استدارت الأكتاف البيضاء، وإن حدث أن ظل أحد «الإخوة» خاشعاً فإنّ جاره كان يهرّ ليريه، بذقنه أو بعرقه، المتجسّء الذي لا يُسمّى. وحده الكاهن «سيتاي» تظاهر بمتابعة قدّاسه. إلا أن التريّلة الأخيرة العارمة في العادة استبّعدت بنغمين متسرّعين ثم خرج المريدون القهقري مطاطني الرؤوس متجنّين المرور بالجنّاح المركزي الذي كان يتصب في وسطه «ماني» مُستفِزّاً بالألوان. وقد لجأوا في انسحابهم إلى التمسّح بجدران الأروقة الجانبية وكأنهم أسرى بلا مجاذيف في سفينة، أو صيادون بلا شباك.

وإذ أصبحوا خارجاً فقد تجمّعوا قرب الباب وأغرقوا في كيل اللعنات للمستفِزّ واستنكار زيّه وجنونه المبالغ وتحمّده المجرم. وعندما خاطر «ماني» في نهاية الأمر بالخروج بعد ساعة تعالت جلبة في صفوفهم. وفيما كانت بعض الأيدي تمتدّ للقبض عليه، للأخذ بشيابه المبرقشة، لتغريمه ثمن استفزازه، تدخّل «باتيغ» وكأنّه تذكّر فجأة أنه أبّ وأن عليه واجبات، وجرّ ولده بحزم من ذراعه وقاده إلى حافة التّرة حيث لا يستطيع «الإخوة» التّربص بهما.

وألس «ماني» قياده من غير أن يفقد شيئاً من دَعْيته ولا من روعته، وكان «باتيغ» على الأخص هو الذي يبدو قلقاً حائراً على الرّغم من تمكّن المرء إذا ما تفرّس في سحته عن كُتب من اكتشاف سعادة مكتومة: السعادة بأن يجد نفسه للمرّة الأولى في حياته وهو يحمي ابنه، وهو ينقذه من المهالك. والحقّ أنه، بعد سنوات من البعاد واللامبالاة الجليّة، كانت قد نشأت بينهما صداقة خفية غداة رحيل «مالكوس». بيد أن الفرصة لم تسنح قطّ لـ «باتيغ» لمثل هذه الألفة، لأنّ

يأخذ بذراع «ماني» ويتعده به عن «الجماعة» ليعظه موعظة الأب الحقيقي الذي كانه . .

- أية فكرة مضحكة أمكن أن تدور في خلدك وتحملك على ارتداء هذه الملابس التنكرية؟

وأجاب الابن . .

- إن أذني تخوناني بالتأكيد، أفيكون أحد «أصحاب الملابس البيضاء» هو من يسمى إلى تعليمي كيف أنزيًا للرحيل إلى العالم؟
كان «باتيغ» ينتظر جواباً أكثر خضوعاً.

- لماذا تتكلم بهذه اللهجة وكأنك محاط بالأعداء؟ ليس لك هنا إلا إخوة.
تعال، اتبعني، سندهب لمقابلة «مارسيتاي». إنك لتعلم تقديره لك، وإني لوائق من أنه سيبدو مستعداً لنسيان هذه الحادثة البلهاء.

- لا أريده أن ينساها. أريد أن يحتفظ بها إلى الأبد أمام ناظريه، وأن يظل يرى في أكاذيبه بعد عشرين سنة «ماني» بثياب ملوثة.

- اصْحُ يا «ماني» ثُبْ إلى رشدك، ليس الوقت وقت بطولات صبيانية، لسوف يجتمع تَجْمَع القدامى للأمر بطردك. ربما كنت لا أزال أملك الوقت الكافي لمحدثهم، لتهدئة سُخطهم.

- إني أرغب في الرحيل، والمَجْمَع يريد أن أرحل، فلماذا أخشى المواجهة؟ إنهم لا يفعلون، هم الذين يظنون أنهم يعاقبونني، غير الإسراع في تخليصي.

- الرحيل، الرحيل، ليس على شفتيك إلا هذه الكلمة، ولكن إلى أين ترحل؟ لقد عشت على الدوام بين هذه «الجماعة». وما إن تخرج من هنا حتى تضيق. وما هي إلا أن تُلْتَقَط على حافة طريق وكأنك صرّة مفكوكة.

- تريد أن تقول لي إن في بستان النخيل البائس هذا متسعاً لي وأن العالم الواسع سيضيق بي؟

- ما زلت تجد هنا أناساً يُصغون إليك ويُناقشونك، إننا أُسرتك الوحيدة، وأنا الذي يكلمك، إنك من لحمي ودمي. أتجهل ذلك؟.

هذه الكلمات التي لم يسبق أن قالها «باتيغ»، أطلقها لافتقاره إلى الحُجّة على أمل إفعام «ماني». الذي أخذ في الواقع يضطرب. فلقد فرغت نظراته وغاب عن الوجدان. وأخذ قلبه يقرع صدغيه. وإنه لخائف من أن يتهالك ويده تبحث عن جدار تستند إليه فيمُدّ إليه «باتيغ» راحة مبسوطة وكأنها تسعى لأن تتلقّفه، بيد أن الابن ما إن لمسها وشعر بلزاجتها الخشنة حتى تراجع وانتصب قائلاً بصوت لا نبرة فيه :

- لقد تأخر الوقت كثيراً الآن لكي يكون أحد من الناس والذي .

لم يكن أي منها قد سمح لنفسه حتى الآن بالتذكير، ولو تلميحاً، برابطة الدم التي تجمعهما؛ واكتفى كل منهما بأن يعرف أن الآخر يعرف، وقد حفظ هذا التواطؤ الصامت لأحاديثهما المتبادلة تأثراً لم يكن قد شرع به. وعليه فقد جاءت الكلمات التي تلفظ بها «باتيغ» لا لكي تفضح وحسب عُرفاً ضمنيّاً وحكيماً، بل لكي تتخذ - وقد قيلت في مثل هذه الظروف ويمثل هذه الأفكار المسبّقة - في مسمع «ماني» صورة شيءٍ عدائي وبذيء. وكان عليه أن يلتقط أنفاسه بعناء قبل أن يضيف بنبرة أرادها حاسمة :

- لقد كُتِب منذ الأزل أن تكون السبيل التي أقبل عليها للحلول في هذا الجسد. بيد أنك لن تكون حجر عثرة في طريقي .

كان قدامى «الجماعة» مجتمعين في قاعة المُجمّع المحاذية لـ «البيت المقدس». وكان هناك «سيتايي» مترئساً وابن أخيه «غاراء» و«أخ» من (الرّها) وآخر من (فراة) وثالث من (قشقر). كان مجموعهم خمسة قضاة جالسين بعرض الطاولة الضخمة، وقبلتهم كان المُتهم واقفاً ولا أثر في وجهه لأي انفعال.

كانت الكلمة الأولى من حقّ «سيتايي».

- لسنا مجتمعين لمعاقبتك يا «ماني» بل لدعوتك إلى التوبة. لقد لبست خلال عشرين عاماً بياض النقاء والتواضع، وها أنت ذا تستعيد ألوان التكبر. عشت بيننا مثل نعجة وديعة، مثل خطيبة حيّة ومحتشمة، واحتفظت بجسدك طاهراً، ولم تضع في فمك غير الأطعمة الطاهرة، فبأي جنون تريد أن تحسر اليوم مريح مثل هذه الرحمة؟.

بدا «ماني» وكأنه يثبت نظره على نقطة مجهولة من الجدار الذي فوق رؤوس المحاكمين.

- سواء كانت الأطعمة طاهرة أو دنسة فإن مآلها إلى الفضلات، أفيكون هناك في رأيكم فضلات طاهرة وأخرى دنسة؟.

- لقد دعوناك للإصغاء إليك برحمة. فلماذا تبدو بهذا القدر من الازدراء منذ لكلمة الأولى؟.

- لا يعتلج في صدري أي غِلٍّ، غير أنكم تدعون أنكم أعشتموني في الطهر، وأنا أجيبكم بأن هذا الطهر الذي تبشرون به لا يساوي شيئاً. تزعمون أن الثمار التي تخرج من أرض «الجماعة» ثمار «ذكور» وطاهرة، أليس هذا ما تقولون؟ لماذا إذن تبيعونها في الخارج للقرويين الكفرة الذين يطحنونها بأضراسهم الدنسة؟.

- إلى أين تريد أن تصل؟.

- الحديث عن أطعمة طاهرة ودنسة محض خرافة؛ ومحض خرافة الكلام على أناس طاهرين أو مدنسين، ففي كل شيء، وفي كل شخص منا يتجاور «النور» و«الظلمات».

- ولأجل الاحتجاج على فرضنا الطهارة خلعت ثيابك البيضاء؟.

- لا. لقد تزيت بهذا الزيت لأني مزعم على الرحيل.

تقدم من الباب خطوة. وناداه «سيتاي».

- كل ما فعلته هو أنك عرضت علينا أفكارك، لكننا لم نناقشك فيها بعد، ولا تداولناها فيما بيننا، وما أنت ذا تنصرف.

الحق أن «ساني» كان هو الذي يُظهر القدر الأكبر من العدوانية في هذه المواجهة. ولسوف يغفر لـ «سيتاي» فيما بعد أن انتزعه من أمه وصادته عشرين عاماً وأرهبه. وسيتحدث بلا حقد فيما بعد عن معلّم الطائفة وعن الانبهار المتبادل الذي كان قد نشأ بينهما. ومع ذلك فقد كان من الواجب في هذه الساعة أن يُحسّن القطيعة وإنقاذ نفسه والفرار. أن يُحسّن الرحيل.

- لست أرحل بسبب بعض الخلاف معكم، وإنما لأني أحمل رسالة عليّ تبليغها إلى العالم.

- وما هي يا ترى هذه الرسالة؟.

- ليس عليّ أن أبلغها في هذا المكان. سوف تسمعون صيحتي عندما يُرجع العالم إليكم صداها.

- لستَ منصفاً. إننا مجتمعون للاستماع إليك وتريد أن تذهب من غير أن توضح؟ عندما يعثر الفلاح على بذرة جديدة فإنه يجربها أولاً في قطعة صغيرة من الأرض؛ وإذا نبتت استطاع أن يسمح لنفسه بزرعها في جميع حقوله. اشرح لنا رسالتك ونقول لك رأينا فيها ونساعدك على تمييز الحق من الباطل.

- الحق حقّ والباطل باطل، ولا تهّم كثيراً آراؤكم أو آرائي.

غدا صوت «سيتاي» أشدّ حزمًا من غير أن يبدو معادياً مع ذلك.

- ليست القضية قضية آراء وحسب، إننا خمسة قدامى مخلصون للكاتب ولستيننا، وقد شاهدناك تكبر وعلمناك كل ما تعلم، وليس في وسعك التادي في الغرور إلى حدّ الزعم بأن رأيك وحدك أهمّ من رأينا!.

- أنت نفسك علمتني هذا يا «سيتاي»: لا كبير مع الحقيقة. هناك في أربعة

أقطار العالم جاهرين من الناس تتعهد أشدّ الخرافات عبثاً، فهل يضيف عددهم الكبير أية قيمة إلى معتقداتهم؟.

- ولكن الإخوة الذين تقف أمامهم ليسوا السواد الأعظم، إنهم أكثر الناس فقهاً وأوسعهم علماً!.

- إنه لا يُفترع على قوانين الكون في عجامع العلماء. إن هذه القوانين هي ما هي، فأي شيء تستطيع آراؤكم أن تغيّر فيها؟.

- تبدو واثقاً جداً بنفسك.

- لست واثقاً إلاّ بالرسالة التي أوجيَ إليّ بها.

- يجب أن يُعرف فوق هذا إن كانت تلك الرسالة قد وصلت إليك من الله أم من الشيطان. ولم تكون السماء قد اختارتك، هل تساءلت قطّ عن ذلك؟ أ تكون الأقدس والأبقى والأفضل؟.

- أنا لا أسألها عن مقاصدها. وقد أكون مُصطفاها.

كاد صبر «سيتاي» ينفد، بيد أنه جهد بعدد في السيطرة على نفسه.

- لنفرض أن الله تعالى قد اختارك حقاً يا «ماني». لقد شاء إذن أن يميّز «بستان النخيل» هذا، ألا تفنّن ذلك؟ فإذا كنت قدّيساً ومباركاً فإن الشجرة التي حملتك مباركة سواء بسواء.

- ماذا فعل عند ولادتي بالماء القلير الذي سبحت فيه تسعة أشهر؟ لقد رُمي به. وبستان النخيل هذا هو الماء الذي سبحت فيه طفولتي ومراهقتي.

لقد طفح الكيل. ودّ «سيتاي» - غير مصدّق - أن يطلب إلى الوقح إعادة العبارة التي تلفظ بها لتوّه، ولكن ابن أخيه «غار» كان قد قفز من مكانه وهو يصرخ «زنديق!» وكأنما كانت هذه الكلمة إشارة انفتح بعدها بلحظة الباب ودخل جحفل من «أصحاب الملابس البيضاء» القاعة وهم يلعنون وهجموا رأساً على «ماني» يرمونه بالوحل ويحاولون تعريته من ملابسه الملونة.

وتدخّل «سيتاي»: .

- كل مَنْ يكون على أقل من ثلاث خطوات منه سوف يُجرّم على الفور! .

وتوقّفت الضربات. بيد أنه حين تجرّأ «ماني»، وكان طريق الأرض، على رفع رأسه انطلقت رشقة من الوحل لتتخطّم على جبينه قبل أن تتدحرج على امتداد حاجبيه ثم على سائر وجهه. وتهالك من جديد. وبعد لأيٍ تمكّن «باتيغ» من إنهاضه وانتزاعه من الجحفل.

عندئذٍ استعاد «ماني» ابتسامته وهو غارق في دموعه. كيف استطاع تُرى أن يبدو مندهشاً من أن تكون معاملته قد أُسيئت؟ أليكون قد ظنّ أنهم سوف يمجّدون من انتهك شريعتهم؟ الحقّ أنه هو الذي كان يدعو للثناء. فما هي إلا صفعه، وما هي إلا رشقة وحل، وما هو ذا يفقد كل وقار ويمجد نفسه باكياً مثل طفل بين ذراعي أبيه! .

ومسح وجهه بحركة متمهّلة من مقلب رُذنه، وانتصب ورفع غطاء الصندوق الخشبي الخام الذي كان قد رتبّ فيه متاعه وسحب منه لوحه وفراشيه للفقها في منديل من الكتّان ربطه حول قامته.

ثم نهض. غير أنه بقي مدّة طويلة مترجّج الذراعين عاجزاً عن وضع إحدى قدميه أمام الأخرى. وكأنّه كان ينتظر من صوته الداخلي تأكيداً أخيراً: .

«أجل يا «ماني» يا ابن (بابل)، إنك وحدك، خالي الوفاض، منبوذ من ذوبك، وأنت راحل لغزو الكون. وبهذا تُعرف البدايات الحقيقية» .

القسم الثاني

من «دجلة» إلى «السند»

لقد وصل أملي إلى شرق العالم
وإلى كل مكان من المسكونة
«ماني»

- ١ -

كانت مغادرته بستان النخيل الخاص بـ «أصحاب الملابس البيضاء» إلى الأبد في شهر نيسان (ابريل) من عام ٢٤٠. وكانت صفحة من قصته قد طُويت: لقد عاش حتى ذلك الحين مقيماً ومتخفياً؛ وسوف يعيش بعد الآن على الطرق.

وكانت محطته الأولى (المدائن). وكانت المدينة الكبرى في وادي «دجلة» عند ولادة «ماني» مقرر الملوك «الپارتيين»، وإذا كانت إمبراطوريتهم قد دالت بعدئذٍ على يد الفرس «الساسانيين» فإن سادة البلاد الجدد استقرّوا في العاصمة نفسها فاحتفظت بذلك بهالتها وازدهارها.

لقد اتّحى اسم (المدائن) اليوم. ومع ذلك فقد كانت إحدى عواصم العالم القديم الكبرى ومهد المانوية وموطناً سامياً كذلك للمسيحية الشرقية. وغير بعيد من الموضع الذي سيأتي العرب بعد خمسة قرون لإنشاء مدينة «بغداد» فيه فإنّه لا يزال في الوسع مشاهدة آثار القصر الذي حقّق فيه «ماني» أشهر فتوحه.

لكنّ الأحوال لم تكن كذلك غداة رحيله من بستان النخيل. فابن (بابل) كان في ذلك الوقت يملك روح فاتح، غير أن مظهره كان غير ذلك، كان مظهر راهب هائم يرتدي ملابس عجبية الألوان.

وإذا كان قد رحل ماشياً ورأسه ملفوف بمنديل وإي فقد كان ينبغي أن يبلغ المدينة في أربعة أيام أو خمسة. إلا أن فيضاناً حدث في «دجلة» فحطّم الجسور وأغرق الطرق فطال أمد الرحلة. ولم يبلغ المدينة إلا في اليوم العاشر عند غروب الشمس ليضيق على الفور في الزحام اليومي. فقد كان من عادة أغنيى بىكان (المداثن) أن يقتنوا عدداً من البهائم، مطايا وقطعاناً كثيفة كان الرعاة العبيد يقودونها كل صباح لترعى خارج الأسوار باتجاه مراعى (نصير) أو (ماهوزيه) ويعودون بها في المساء سادّين أبواب المدينة بسحابة من الصوف وعصى الرعاة والروائح.

وكان على ابن (بابل)، كما على كثير غيره من المسافرين، أن يقتني أثرهم مدافعاً وساعلاً سعالاً خفيفاً وقد أطاشه صخبُ الصقِّ بالمدن لأن الشوارع التي تفتّر ظهرها كانت تعود إلى الانتعاش عند اقتراب الغسق والشمس تميل إلى الغروب. وكان الكتّبة والحمّالون والجنود والجمّالون يستأنفون تدافعهم إلى العمل بعد القيلولة ثم ينضمّ إلى الزحام عدد من المتنزهين كان يزداد في كل ساعة على طول الضفاف حيث تنتظرهم مراكب التجّار المتجولين عارضة عليهم الحُصُر والطواقي وبعض الأشياء النفيسة. وكانت قطع النقود تتساقط قبضاتٍ من كيس إلى آخر محدثة جلبة. هكذا كانت (المداثن). ولم تكن تُقصد للتنزّه من أجل هوائها المنعش، بل للتبخّر وعرض الأطفال المكتئزين والخدم، ولا سيما الزوجات اللواتي يفصّل أن يكنّ بيضاوات بلون اللبن ومثلثات ومثقلات بالعقود على النحور وبالأساور مرصوبات مثنى أو رباع إلى المرفق. وكان الناس في هذه المدينة يحملون معهم كلّ ما يملكون وكلّ ما هم أو يزعمون أنّهم. وإذا حدث أحياناً أن ألقي بأحد هذه الأساور إلى متسوّل متهالك إلى جدار معبد فإنما لأجل توسيع عيون الناس من فرط الدهشة.

وعندما كانت السماء تزداد قتاماً وينتهي أمدّ النزهة كان القوم يعودون إلى منازلهم مع البهائم والناس للأكل والشرب، إذ لم تكن الحانات إلا للمسافرين وبعض الأشقياء. فكل بلدٍ يحترم نفسه كان يسكر في الواقع داخل منزله مستلقياً، مستلقياً على الدوام للشراب يحيط به أشخاص أعزّاء أو رائقون. وهنا

أيضاً ينبغي أن يُحسِن المرء الاستعراض وإثبات أنه يملك الوسائل لسكره فيقدم الخمر في الدنان المتفتحة إلى الأصدقاء والجيران والزبائن، ويسكر حتى يفقد كل إحساس. أفليس على هذا النحو يسلك ملك الملوك؟ أفلم يكن له بالإضافة إلى متذوقي شرابه وندمانه كاتب متخصص في أمور السكر يرصد سجلاً بكل ما يصدره العاهل في سكره العام من قرارات لكي يذكره بها عند صحوه فيتمكن من إصلاح الأمور؟ فلو كان خمره البارحة سخياً وأبطل مفعول الضرائب لأربع سنوات فإنه ينبغي أن يتمكن من استعادتها؛ ولو كان خمره غضوباً وجرد رئيس الكهنة من وظيفته لأن ذنبه أنه رفض أن يرقص فإنه ينبغي أن يتمكن من رده إليها.

(المدائن). السكر منتظماً، والعظمة الموسوس بها. (المدائن) وريثة (بابل) ومنافسة (روما)، لسوف ينام «ماني» في تلك الليلة داخل أسوارها.

لكنّ عليه أولاً لكي يكون للمدينة وجه أن يعثر على الصديق. وسأل «ماني» ماراً بدا أنه كان أقلّ تعجلاً من الآخرين. هل يعرف بالمصادفة تاجراً صُورياً اسمه «مالكوس»؟ «مالكوس»، ردّ الرجل مبالغاً في تضيق عينيه؟ إنهم حقاً عشرة أو اثنا عشر بهذا الاسم. إن امرأته يونانية، هذا ما تقوله.

على هذه الشاكلة وصل «ماني» إلى حيّ معبد «نيسو»، غير بعيد من ساحة «الحَدَبَات»، أمام منزل من طبقتين مشرق بالطلاء الكلسي الجديد خلف أجمة نخيل. وقاد البوّاب الزائر إلى سيّده الذي فتح ذراعيه على مدامها وقد ظهر عند طرف المشى.

قال «مالكوس» بتواضع وقد بدا شبعان رخياً مشرقاً بكل جوارحه:

- ليس هذا هو القصر الذي وعدتُ به، غير أنني قد ابتليت هذا الكوخ القدر.

وهرعت «كلوويه» غير مصدّقة. وكانت قليلاً ما تغيّرت. ولولا الطفلة

المتفخخة الخدين التي كانت تحملها إلى ردف متعود على حملها لكانت نفس الصبية الفكهة المتمردة التي كان «ماني» قد احتفظ لها بأرق عاطفة، وقد نم شعرها الفاتح اللون عن الفوضى عينا. وكان في الوسع اكتشاف فرحة غير مصطنعة في النظرة التي تبادلها؛ وبقية أسف ولا ريب. وأما الغموض والتلبس فما كان لهما قط من أثر. قالت: .

- هذا الثوب.

- أجل، لقد هجرت «أصحاب الملابس البيضاء».

- إلى الأبد؟

- بل إلى أبعد.

تقدم منها خطوة ولا مس بيد مضطربة خذي الطفلة، وكان عمرها يكاد يناهز عامين، فتركت الزائر المجهول يلاطفها، بل أنعمت عليه بابتسامة قبل أن تشبث خجلة بلباس أمها.

قال «مالكوس»: .

- أهلاً بك هنا، فهذا البيت بيتك، وأنت تعرف ذلك.

- إذا كان هناك من بيت في الدنيا يمكن أن يكون بقي فسيكون هذا. بيد أني لن أكون سوى عابر سبيل.

- إلى أين أنت ذاهب؟

هذا الأمر ما زلت أجهله. وبانتظار ما سيكون فهل تمنحني المأوى لهذه الليلة؟

- هذه الليلة، والليلة القادمة، وكل ليالي حياتي.

- من أجل غدٍ أطلب إليك ذلك غداً.

لقد ودَّ «مالكوس» لو يجتج، بيد أنه عرف لدى صديقه تلك النبرة البعيدة

المتقطعة بغتة وكأنها صادرة عن مُرَوِّص. وما كان إلا لحاح ليُجدي. والأفضل تغيير الموضوع.

- غداً آخذك لرؤية مُحْتَرَفاتي ومستودعاتي، ثم القصر، وحلبة السباق الجديدة. . .

إلا أن صديقه قاطعه متناولاً يده بيده في حركة اعتذار.

- لا يا «مالكوس» فأنا بحاجة على الأخص إلى التسكّع في هذه المدينة كيفما اتفق. لقد آن الأوان لكي أرى كيف يعيش العالم.

فيما كان «مالكوس» عائداً إلى منزله في اليوم التالي للغداء والنوم، وكان يقود بغلته كالمتعاد في طريق مختصر عبر بستان مشاع، وهو نوع من كُرم مهجور، رأى «ماني» جالساً فوق حجر وسط جمع صغير من الناس. وإذا اقترب فقد لاحظ فوق رُكْبتي صديقه كتاباً مفتوحاً بدا أنه كان يرسم فيه شيئاً في الوقت الذي يتحدث فيه إلى الأشخاص الذين يحيطون به. وهم «الصوري» بالترجل عندما تعرّف على الرؤوس الخمسة أو الستة التي كانت متجمّعة حول الرسّام فعَدَل واستأنف طريقه ناظراً إلى مكان آخر.

وفي بيته جلس إلى المائدة من غير أن ينبس بكلمة. وسألته «كُلُوييه» بنبرة عتاب: .

- ألا تريد انتظار «ماني»؟

- سيأكل عندما يأتي. إني جائع.

كان «مالكوس» يبدو عندما يتخذ سحنته الحريدة أكثر بدانة من المؤلف، وكانت لحيته المستديرة تتشعث.

واستنتجت: .

- مشكلات جديدة أيضاً مع أصحاب القوافل. . .

غير أن زوجها كان صامتاً يلتهم خبزه كُرِّيّة بعد كُرِّيّة وهو ينظر إلى أصابعه.

ولم تلح «كلوويه» واستمرت متشاغلة حوله .

لم يقل بعد تناول الفاكهة بل ذهب يجلس فوق وسادة وهو يسبح بسبحته المتخذة من العنبر . وبعد ساعة وصل «ماني» . ولم يرفع «مالكوس» عينيه .

- رأيتك وأنا أجتاز الحديقة . . . كنت غارقاً في الحديث مع بعض الناس . . . هل تعرفهم؟ .

- لا . كنت أرسم نقشاً زهرياً بالحرير الأحمر فأقبلوا عليّ وتحدثت إليهم .

- من غير أن تعرفهم؟ .

- لا أعرف خارج بيتك أحداً في هذه المدينة .

- سأقول لك من هم أولئك الناس : متعطّلون ، تافهون ، مخبلون ، سكيرون ، كل الذين ليس لهم ما يشغلهم في الصباح سوى التسكّع في الأراضي البور . . . أنت لا تقول شيئاً لا تأبه بأن يكون من يستمعون إليك أحسن أشقياء الحيّ ! .

ظلّ «ماني» صامتاً . بيد أنه كان في تمرد هذا الصبيّ ذي الأربعة والعشرين عاماً ، هذا الصبيّ الكبير الملتحي والمبرقش ، من البراءة ما دفع بـ «مالكوس» إلى عدم الإصرار . وارتخت ذراعاه ، وانطبقت عيناه نصف انطباقه ، وذهب يقيل قيلولته التي أخرجت بلا جدوى .

تحاشى «الصوريّ» في الأيام التالية المرور بالحديقة . وفضّل أن يرغم نفسه على التفافة كبيرة على أن ترى عيناه مجدداً مخالطات «ماني» الدنيشة . أفيكون قد سلك بعد أسبوع طريقه القديمة بدافع الفضول أم الكلال أم لمجرد السهو؟ وكان المشهد هذه المرة مختلفاً . فقد كان يحيط بالرسام أكثر من خمسة عشر شخصاً بينهم اثنان أو ثلاثة من متسكّعي اليوم الأول ، ولكنّ فيهم أيضاً أناساً من جميع الطبقات منهم جارّ ، «صوريّ» مثل «مالكوس» ، غنيّ ومحترم . وكان ابن (بابل) جالساً كعادته على ساقه اليسرى مطويةً تحته وكتابه مفتوح أمامه ،

بيد أنه كان قد توقّف عن الرسم ووضع فرشاته خلف أذنه. وترجّل صديقه ودنا لسماعه متوارياً بالإجمال خلف سُرُورَةٍ فِتِيّة. وإذ لم يبدُ على «ماني» أنه لاحظ وجوده فقد تابع خطابه:

... . في بدء الكون وُجد عالمان منفصلان الواحد عن الآخر: عالم «النور» وعالم «الظُّلُمات». وفي «حدائق النور» كانت جميع الأشياء المشتهاة، وفي الظُّلُمات كانت تقيم الشهوة، شهوة عارمة ملحة هَذارة. وبغتة حدثت صدمة عند حدود العالمين، أعنف صدمة عرفها الكون وأشدّها هَزْلاً. وعندئذٍ اخلطت جُزئيّات «النور» بـ «الظُّلُمات» بألف شكل مختلف، وهكذا ظهرت جميع المخلوقات، الأجرام السماوية والمياه، والطبيعة والإنسان... .
توقّف كلامه وكأنه يسعى إلى التنفّس. ثم انساب من جديد.

- في كل كائن وفي كل شيء على السواء تتعايش «الظلمات» و«النور» وتتشابك. فلبّ الثمرة التي تخضمونها يُغذّي جسدكم، بيد أن مذاقها الطيّب وعطرها ولونها تغذّي نفسكم. و«النور» الكائن فيكم يتغذّي بالجمال والمعرفة ففكّروا بتغذيته من غير انقطاع، ولا تكتفوا بإتمام الجسد. وحواسكم منذورة لتلقّف الجمال ولمسه واستنشاقه وتذوّقه والإصغاء إليه وتأمّله. أجل أيها الإخوة، إن حواسكم الخمس مصافي «نور». فقدّموا إليها العطور والأنغام والألوان. وجنبوها التّن والصرخات الجشّاء والقذارة.

وإذ كان مستمعوه ينتظرون التّمة فقد نهض «ماني» متوكّئاً على العصا التي كان يمسك بها على الدوام، وأفسح له الجميع الطريق باحترام وهم لا يزالون متعلّقين بوجهه، وجّه المراهق المريح الضامر. ثم تبعوه مفتونين صامتين وكأنّ خيوطاً دقيقة تربطهم به.

لقد اطمأنّ «مالكوس» ولا ريب بشأن غالطات صديقه، غير أن ذلك لم يبدّد مخاوفه. فبالأمس خشي أن يرى حارساً متفانياً يخلط بينه وبين أوباش الحي، واليوم يخشى أن يراه مُعْتَقِلاً لأسباب أَوْجَع وأخْطَر. فلا يمكن أن يجمع

المرء كل يوم في شوارع (المدائن) عشرات البلدين، وقد يصبحون قريباً مئات، من غير أن يُظنَّ به التدبير لمؤامرة. والذي سمعه للتو من فم صديقه لا يحتوي بالتأكيد على آية كلمة تدلُّ على العصيان. بيد أن «مالكوس» كان متخوفاً. فهو يعرف «ماني» حقَّ المعرفة لكي يُخَمِّن أن تعليمه لم يكن إلا في بدايته، ويستشعر أنه لن يتوقَّف إلى الأبد عند ملاحظات حاملة عن بدايات الكون. وسوف يلفظ صديقه ذات يوم قد يكون قريباً الجملة الفائضة التي تُحدِّث ما يتعذَّر إصلاحه. ويقدر ما كان «الصُّوري» يُجِيل الأمر في ذهنه كان الخطر يبدو له أوضح وأقرب. بل لقد رأى نفسه ملقى في زنزانة بتهمة التواطؤ، وتجارتَه مُفلسة، وجميع مطامحه متلاشية، وامرأته مرغمة على التسوُّل...

قال له فجأة: .

- أريد أن أتحدَّث إليك يا «ماني».

لم تكن النبرة جافية، بل سعت فقط إلى أن تكون جادة وصريحة. وابتدأ ابن (بابل) بالابتسام.

- هيّا افرد حاجبيك، إن هذه السحنة المتجهمة لا تتلاءم جيداً وجهك الممتلئ. ولكن تكلم، قل لي ما يثقل قلبك...

- لقد عشنا أنا وأنتَ صباناً كلَّه في بستان النخيل ذاك، بمعزل عن العالم، عن أفراحه وأتراحه، وعشتَ أنتَ، أكثر مما عشتَ أنا، في كتبك، وليس من يعرف خيراً منك الطبَّ وعلوم الدين، وإني لمعجب بعلمك وموهبتك واندفاعك، وإنَّ رجالاً مثلك ليتركون أثراً على الأرض التي وطأوها وفي قلب المقرئين. بيد أن هناك أحمالاً من الأشياء التي تفوتك ويدركها أشدَّ الناس خشونة خيراً مما تدركها، فهل أنت مستعدٌّ للقبول بها؟

وافق «ماني» فأنس صديقه في نفسه الشجاعة على المتابعة.

- يبدو لي أولاً أنك نسيت أن سيّد (المدائن) وهذه الإمبراطورية بأسرها هو «أردشير الساساني»، ملك الملوك. وأصرَّ على تذكيرك باسمه واسم سلالته وبأنه

وطّد حكمه بإزالة إمبراطورية «الپارتیین» عن سطح الأرض وبقتل «أرطبان» آخر ملوكهم. وأكّرر عليك، إذا لم تكن قد فهمت، أنّ «الساسانیین» وطّدوا ملكهم على أنقاض «الپارتیین» وطاردوهم في أرجاء هذه الأرض من بلاد «..» بين النهرين»، في (میدیا)، وحتى أبواب (جزيرة العرب) و(الهند). وأنت يا «ماني» احتفظ على الدوام في ذهنك بأنك «پارتي»، وأنك في عين السادة الجدد أمير «پارتي» أولاً وقبل كل شيء. فليس أبوك وحده من أسرة «هسكانييا» النبيلة، بل أمك تنتمي كما يقال إلى أسرة «كمسراغان» التي هي أنبل وأعرق من تلك، وقد شاركت في عهد «الپارتیین».

- لقد جهلت طويلاً هذا النسب، وعندما عرفت أنه أهملته. فليس في نظري، وأنت تعلم ذلك، من وجود لأعراق ولا لطبقات.

- أعرف ذلك يا «ماني» وأحترمك لأجله، ولكن العالم لا ينظر إلى الأشياء على هذا النحو. ففي هذا المساء بالذات تستطيع يد مؤذية أن تقدّم إلى ملك الملوك تقريراً بأمر «پارتي» اسمه «ماني» ينظم اجتماعات في شوارع عاصمته. وسوف يكون ذلك نهاية مغامرتك.

- ولماذا ينقمون عليّ، فأنا لا أهتمّ بشؤون «الدولة»، ولا أتحدّث إلّا عن «السماء»، ولا أدعو إلى التمرد.

- ألم تقل لي قبل قليل إنك لا تؤمن بالأعراق ولا بالطبقات؟ وكيفي أن تتلفظ بهذه الكلمات علانية لتجعل من نفسك مذنباً بتهمة القدح في الملك، لأن ملك ملوكنا فخور بطبقته مثلما هو فخور بعرقه. وحتى لو لم تتحدّث إلا عن «السماء»، فهل تظنّ أن ذلك كافٍ لتبرئتك؟ قد لا تكون واعياً الأمر، غير أن الأزمنة تغيرت. ففي عهد أبناء عمومتك «الپارتیین» كانت جميع المعتقدات مسموحاً بها. وكان بين جيرياني مسيحيون يمارسون شعائهم من غير أن يتخفّؤوا. وكانت لحاخام اليهود يومئذ زيارات للقصر، بل لم يكن يُدرى ما هو دين الأمير. غير أن «أردشير» مختلف عنه. إنه محاط بجيش من الكهنة يسعون إلى فرض عبادة النار على امتداد رقعة الإمبراطورية. ولا يزال في وسع المرء أن

يمارس ديانةً من اختياره في بستان نخيل منسيّ على ضفة ترعة من ترع «دجلة». وأما هنا في العاصمة فلإنه يصمت ويختبئ ، وإذا أصرَّ على الابتهاال لـ «يسوع» أو «بعل» أو «نبو» أو «موسى» فإنه يفعل ذلك في جى جذرانه.

- لا تخيفني أقوالك يا «مالكوس». وإذا جاءوا يقبضون عليّ فسيكون ذلك فرصة سانحة لكي أعرض رسالتي أمام سيّد الإمبراطورية.

- ها أنذا أتعرف هنا على سذاجتك. تتذكّر أنك قرأت في كتبك خرافةً قديمة عن مُتهم مَثَل أمام الملك، وها أنت ذا تتخيل نفسك وجهاً لوجه مع العاهل تحاوره وتفتته وتقنعه باعتناق رأيك. اصْحُ يا «ماني» وتخلّ عن أحلام المراهق هذا! لن يقودوك إلى ملك الملوك أيها المنكود بل سوف يلقون بك في زنزانة مَوْحِلَة لا تستطيع فيها مناقشة غير الجزدان والهوام.

- في هذا أنت مخطئ. فأنا أعرف أنني سأحدث يوماً إلى الملوك...

كان «مالكوس» قد أخذ بمراقبة صديقه ساعياً إلى الكشف عن الأسباب الداعية إلى مثل هذا اليقين عندما أقبلت «كُلُوبيه» وفي نظرتها تردّد من لا يعلم إذا كان الخبر الذي أتى به سيثير الفرح أو الضيق. قالت:

- «باتيغ» هنا.

نهض «ماني» وتقدّم خطوة نحو الباب؛ ولم ينهض مضيفه بالمقابل إلّا على مضض إذ كان لا يزال مهموماً مشغول البال، غير أنّه عندما دخل «باتيغ» الحجرة، وكان لا يزال مرتدياً زيّ «أصحاب الملابس البيضاء»، مدّ إليه ذراعين مرحّبتين. ولم يبادلّه «الأخ» الكهل سوى مصافحة عجل. فلم تكن عيناه تريان غير ابنه الذي لم يقترب منه قطّ مع ذلك متأثلاً إياه عن بُعد وكأنّه ظهور قويّ وعابر ولا خطر منه.

- كنت مقتنعاً بأنّي لن أراك أبداً! وعندما ذهبت بكيتُ وأردت أن أصوم حتى الموت. و«سيتايي» أيضاً بكى وكأنّه فقد ابنه الحقيقي. ثم وصل إخوة كانوا قد رأوك تعبرُ جسر (سلوقيا). واقترضت أنك قد ذهبت إلى «مالكوس»

لأنك لا تعرف إنساناً غيره في هذه المدن. وعلى هذا تبعك. ورغب جميع الإخوة في مواكبتى. فرحيتك قد أحزنتهم وهزمتهم. لو كان في وسعي فقط إعادتك إلى بستان النخيل لابتهجت «الجماعة» كلها. فما من أحد، هل تسمع، ما من أحد سوف يفكر في مؤاخذتك على أي شيء، وسيكون في مقدورك الكلام بصوت مرتفع، وعرض أفكارك...

كان وجه «ماني» يقسو أكثر فأكثر عند كل كلمة من كلمات أبيه.

- إذا كنتَ قد أتيتَ لتقول لي هذا فقد كان من الأفضل لو بقيتَ عند «أصحاب الملابس البيضاء». اعلم مرة واحدة وأخيرة أنني لن أرجع أبداً إلى بستان نخيلك، فانا لا أنتمي إلى هذه الديانة.

- وأنا يا «ماني»، هل فكرت لحظة في؟ لقد هجرت الدنيا ومتاعها، وهجرت زوجي لأعيش مع هذه الجماعة ظاناً أنني سأجد هناك الطهارة والأخوة، وها إن ابني يقول لي إن التضحية بحياة كاملة كانت بلا جدوى. ولو أصغيت إليه لأنكرت كل ما قد نذرت له نفسي، ولو ظلمت متعلقاً بالجماعة لفقدت الشخص الوحيد القريب إليّ. ليس لي غيرك في هذه الدنيا.

- ابني معي إذن. أصغر إلى كلماتي. وإذا كافأت انتظارك تبعني طريقي كما تبعني في الماضي «سيتاي». وإلا رجعت إلى بستان النخيل.

لقد كلم «ماني» أباه وكأنه يكلم غريباً. أو خصماً. فقد كان جميع ما باح به «باتيغ» من عواطف بمشابة تهجم وعدوان، وبدلاً له كل تلميح برباط القربى بينهما في غير محله. وكان «مالكوس» و«كلوويه» يراقبان المشهد باستحياء، شاهدين متزعجين على تصفية حساب بين مصيرين. فالأب كان قد أخضع ابنه وجميع ذويه لنزوات ضياعه الورع. وها قد برز الآن الانتقام غير الحقيقي: فقد سقط «باتيغ» فجأة على ركبتيه، وكأنما حدث ذلك بفعل دفعة إلهية.

- سألني معك يا «ماني» وأصغني إلى أقوالك جاهداً في إدخالها قلبي. افرض عليّ يدك فأكون أول مرديك.

لم يُجِبْ «ماني». فقد كان سابحاً وهو مُغمَضُ العينين وسط ذكرياته باحثاً عن أمارّة، عن بشير كان من الممكن أن يُنبئه بهذا المشهد الغريب الذي يحياه. فلم يكن بإمكانه قطّ أن يتخيل أنّ الأشياء ستحدث على هذا النحو.

ثم فتح عينيه على مهل وألقى راحة يده اليمنى فوق رأس أبيه الجاثي. ومن غير أن يدري فقد أعاد بذلك، ومحا بشكل من الأشكال، تلك الحركة التي كان «سيتايي» قد سيطر بها فيما مضى على «باتينغ» في حديقة معبد «نبو».

في الأيام التالية كان «مالكوس» يتذرّ داخل مُحترقاته ويدور على نفسه لاعتناً مرتبكاً عاجزاً عن أداء أدنى عمل مُفيد. فلقد كان «ماني» قد فتنه ولا ريب على الدوام، بيد أنه لم يسبق قطّ أن بدا له مضللاً إلى هذا الحدّ، مستحيلًا إدراكه إلى هذا الحدّ. فأحياناً تصدر عنه حركات معلّم محاط بالتلاميذ، وبعدها بلحظة حركات طفل، وكان «مالكوس» يُعجب به أحياناً، وبعدها بلحظة كان يرغب فقط في حمايته وكأنّه أخ أصغر.

وكان «الصُوري» يجترّ في ذهنه على الأخصّ أحداث البارحة: لقد أبصرت «كنيسة» غريبة النور في منزله بالذات، وقد ولدت من ولاء مخالف للطبيعة من أب لابنه. فأي دور يُسند إليه هو «مالكوس الصُوري» المكرّس تاجراً، المتشيع التائب الذي فرّ من «الكنائس» و«الجماعات»؟

لقد كان في علاقاته بصديقه سوء تفاهم لم يكن قد حسب حتى الآن ضخامته وانعكاساته. فقد غادرا كلاهما بستان النخيل التابع لـ «أصحاب الملابس البيضاء»، غير أن دوافعها كانت متباينة جدّاً. فهو نفسه قد عرف يقيناً على الدوام ما يريد من الحياة: الثروة والمرأة الحبيبة والمنزل المؤاتي بانتظار بناء قصر. . . و«ماني»؟ ما الذي حلم به وهو يغادر الطائفة؟ بدين جديد؟ لقد كانت تعتلج في نفسه بالتأكيد تلك الرغبة في التبشير، وتلك التلميحات التي أصبحت كثيرة التردّد الآن بنداء ساوي. . . وإذا كان الأمر كذلك فكيف يُفسّر أن يكون «مالكوس» قد سمع من فمه، في المساء الذي جاء فيه «باتينغ»

بالذات ، هذه العبارة المحيرة : «أتساءل أحياناً عما إذا لم يكن سيّد «الظُّلُمات»
هو الذي يُوحى بالأديان لا لشيء إلا لتشويه صورة «الله»!
أفتكون هذه أقوال رجل دين؟

- ٢ -

في أثناء هذه الإقامة الأولى خارج بستان النخيل كان أن تحدّث الأب والابن عن «مريم». فلم يكونا من قبل قد ذكرها، وحتى في ذلك اليوم نجح «ماني» في عدم لفظ اسمها. فقد قال ببساطة:

- أتراك علمت ما آلت إليه؟

كانا يمشيان جنباً إلى جنب في درب هادئ من دروب (المدائن) وكلاهما ساهمان منذ مدة. وكان الوقت فجرأ، ولم تكن الشمس قد صبّت لظاها بعدُ على المدينة التي كانت تستيقظ على مهل في عذوبة نسمة نهريّة علية. ولم يتردّد «باتيغ». وكان الأمر كما لو أن كُتب أن ينضمّ ذلك الطيف الذي يرفرف بينهما منذ ربع قرن إلى هذا الاجتماع المتأخّر.

- كنت قد مررت مجدّداً بـ (ماردين) منذ بضعة أعوام. وفي حديقة منزلنا القديم أرؤني قبرها. لقد كنت أودّ أن أوضح لك بعض الأمور يا «ماني»...

غير أن الابن جمد في مكانه بشكل مفاجئ انغrust معه عصاه في الأرض. واتخذت راحته المنتصبه قريباً جدّاً من وجه أبيه تلك الحركة التي كان يستخدمها هذا الأخير فيما مضى لقمع زوجته، وهي حركة كانت تعني «ولا كلمة».

أطاع «باتيغ». إنه طالما عرف كيف يطيع وهو خارج منزله. وعندما استأنف «ماني» سيره بخطى أوسع، لحق به. بصمت، وعلى مسافة خطوتين منه. ولسوف يبقى هذا الموضوع مَذَاك مُغْلَقًا. الموضوع لا الجرح الذي سوف تأتي أحياناً بعض الأقوال الرعته لتتكاه.

إن أغرب العلاقات التي يمكن تصوُّرها بين أب وابنه سوف تُنسج بين «باتيغ» و«ماني». ولسوف تولد صداقة على مرَّ السنين وتكبر، حناناً حقيقي وعميق، ولكنه لا يدين بشيء لرابطة الدم. بل إنه، على العكس من ذلك، سوف ينشأ رغم أنف هذه الرابطة، وكأنما لجحدها ونكرانها. وسيكون «باتيغ» حتى مماته مُريداً قريباً من «ماني» وأخلص رفيق له في أسفاره وأشدَّ مستمعيه مواظبة.

مواظب، بيد أنه، في الأيام الأولى، متحفّظ وحذير جداً. فكلماتها كان «مالكوس» يجتاز الحديقة التي اعتاد صديقه أن يرسم فيها ويُعلم، كان يرى الأب جالساً بعيداً على جذع شجرة مقطوع مُصيحاً إلى الخطيب ومستغرقاً على الدوام وشبه مضطرب. وكان «الصُّوري» يأتي في بعض الأحيان فيجلس إلى جانبه مُحيياً إياه بحركة فاترة وابتسامة خابية مُتَحاشياً النطق بأدنى كلمة يمكن أن تُلهيه عما هو فيه. وكان هو نفسه يُصغي إلى أقوال «ماني» مع بقائه يقظاً أمام ردود فعل المستمعين وسعيه إلى التعرّف على بعض الوجوه المألوفة. ولو أن أحداً راقبه لالفتى أنه لم يكن يبدو قطّ أقلّ اضطراباً من «باتيغ»، على الرغم من تباين الأسباب.

فالمخاوف التي كان يُجملها في نفسه منذ قدوم صديقه سوف تبدو محقة جداً، لأنه في ذات يوم، بينما كان «ماني» يتكلّم بصوت مرتفع أمام حشد أكتف من المعتاد، صرف انتباه «مالكوس» وقع أقدام ثقيل كان الهشيم يصرّ تحتها. وإذا التفت فقد التفت عيناه عنيّ ضابط من حرس النظام فاستدعاه بحركة يده.

- من يكون هذا الرجل الذي هناك؟
- مبشر شاب من بلاد (بابل). واسمه «ماني».
- وعمّ يتكلّم؟
- عن الصلاة والصيام.
- وأيّ دين يتبع؟
- لقد ودّ «مالكوس» لو يعرف هو نفسه ذلك! غير أنه رأى من الحرص أن يجيب مُغميماً:
- دين «الناصري» على ما أظنّ.
- دوّن الضابط الأمر في سجلّ ذاكرته.
- وأنت، مَنْ تكون، لقد سبق أن رأيتك في الحَيّ.
- اسمي «مالكوس»، وأنا تاجر أُصلي من (صُور). كنت ماراً...
- وإذ تضايق «باتيغ» من الطنين المتلاحق خلفه فقد التفت مهتدداً بيده التي كانت على استعداد لفرض الصمت على المزعجين؛ وسقطت اليد عندما لمح صاحبها الضابط في بَزّته. وأمره هذا بالتقدّم منه وسأله وهو يشير إلى «ماني»:
- أتعرفه؟
- إنه ابني!
- وما اسمك؟
- «باتيغ».
- إنه اسم «بارتي»، إذا لم أكن مخطئاً.
- أجل، فأنا «بارتي» وأُصلي من (أيكبتان).
- وكيف حدث أنك وابنك تتكلّمان الأرامية بطلاقة؟

- جئت يافعاً إلى بلاد (بابل) وولدت ابني في هذه النواحي ، في قرية (ماردين) .

- وإلى أية عشيرة تنتمي ؟

قال «هاتيج» وقد استعاد بغتة اعتزازاً هو مكبوت في العادة :

- إلى «الهسكانية» .

قال الضابط وقد بدا فجأةً مُعْجَباً وموقراً :

- سلالة من المقاتلين الأشداء وقائهم الحربية في جميع الحواظ !

لم يَسْطَلْ أمد الحفاوة لأن «هاتيج» لم يلبث أن أعلن عن معتقداته بنبرة ليس فيها شيء من التصالح .

- لم أشارك طول حياتي في أية معركة . إن ديني يمنعني من حمل السلاح . مهما كان الدافع .

- إذا أنا امتشقت سيفي لإقامة النظام وقتال أعداء مَلِكنا فلست في نظرك إذن خيراً من قاتل ولص !

حكم «مالكوس» بأن اللحظة مؤاتية للتدخل فقال :

- إن الأمير «هاتيج» وابنه يعيشان من أمد طويل منعزلين في بستان نخيل ومنصرفين لقراءة كتب قديمة مقدسة ولا يعرفان شيئاً كثيراً عما يجري في هذا العالم .

سمح الضابط لنفسه أن تلبث بفعل هذا الإيضاح ، كما بفعل الغمزة الملحة التي وجهها إليه «مالكوس» . بيد أن «هاتيج» رأى ألا مندوحة عن أن يضيف قوله :

- لقد عشنا سعيدين في بستان النخيل ذاك إلى أن كان يوم اختار فيه ابني المجيء إلى (المدائن) فكان عليّ أن أتبعه .

- ماذا جاء يفعل ؟

- يريد تبشير العالمين بدين جديد.

- لا شيء إلا هذا! وكم من الوقت ستشرفاننا بحضوركم؟

تحدث «باتيغ» بصوت خافت وكأنه يكلم نفسه:

- لو كان الأمر لي وحدي لرحلت في الحال. فعندما تسنح للمرء فرصة العيش بعيداً عن هذا الفساد، عن هذا العفن، عن هذه الحانات...

وأوحى الضابط:

- كان الوضع أفضل في الماضي.

- بلا ريب.

- كان كل شيء على ما يرام أيام «الپارتين».

على الرغم من سداجة «باتيغ» التي لا حد لها فقد انتهى به الأمر إلى الارتياح في أن شركاً قد نُصب له. غير أن «مالكوس» كان قد تولّى زمام المبادرة:

- لنمذ لنا «السماء» في حياة سيّدنا الإلهي «أردشير» وابنه المحبوب الإلهي «سابور» شريكه في الحكم، فلم يسبق أن كانت هذه المدينة مزدهرة ولا متحضرة على هذا النحو إلا عندما جعلها بحمايتها. ليبقى إلى الأبد فوق رؤوسنا!

شمخ الضابط بأنفه ويشاربه الكثر وكأنه يقول «أرى أيها «الصُوري» أنك تتقن عبارات المجاملة المألوفة، غير أن ذلك لا يكفي لانسحابك من القضية». وكان عليه مع ذلك أن يقول بدوره: .

- ليبقى أبداً!

وتلا الردّ التقديسيّ صمّت ثم لبث الضابط يحدج «باتيغ» من أعلى إلى أسفل متهيئاً لطرح سؤال جديد يكون بمثابة فتح. إلّا أن صوت «ماني» ارتفع جاذباً إليه الأسماع والأنظار.

... لم يكن الله، وهو «نور» خالص، يعرف جيّداً عالم «الظلمات» عندما دعا أوّل إنسان ليقول له: «أنت يا من يتجاور فيه «النور» والظلام، إنك خير سَنَد لي. أجل أيها الإنسان، إنك الشَّرْك الذي ينصبه «النور» لـ «الظلمات». وإليك أعهد بمهمة السلطان على «الخلقة» والمحافظة عليها».

وعندها اقترب الضابط. واجتاز الممرّ المُحصَّب الضيّق الذي يفصل الحضور عن «ماني»، وهو يختال بقامته المُكْرِشة، ويده عصاً قصيرة وسيّفه إلى جنبه. وإذا أصبح في مواجهته تماماً فقد توقف وانتفض. وما لبثت الرسالة أن فهمت، لأن المستمعين، بلا استثناء، فصلوا أنظارهم عن الخطيب ليشتوها في الضابط، ونهضوا واحداً بعد واحد منسحبين القهقري، بحَذَرٍ أخرق أوّل الأمر، ثم مُولّين بسرعة وقد وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

وجلس الضابط جَذْلانَ حتى صدغيه، فخوراً بأنه أصبح بذلك وحده، بمعجزة السلطة، مجموع المستمعين.

عبارة أخيرة أطلقها «ماني»: .

ـ سأعلّم دين الجمال للأمم في أربعة أقطار الدنيا.

ثم صمت من غير أن يغادر مكانه؛ وكأنما كان يتابع في داخله الموعظة التي قُطعت. وراقبه الضابط ورازه، ثم بدا منشغلاً وكأنه يبحث سُدىً عن الكلمات التي في وسعه توجيهها إلى هذا الرجل العجيب. إلّا أنه عدل في النهاية عز مكانته وتركه ينهض ويتعد بمشيته الظالعة.

ظَلّ المستمع الأوحِد في مكانه مُتطامناً وشبه نائم وغير ثائب إلى نفسه إلّا في اللحظة التي كان فيها «ماني» قد اختفى. وعندها فقط انتصب ولحق ركضاً بـ «مالكوس» عند باب بيته.

ـ قل لهذين «الپارتيتين» بأنّي لا أريد أن أراهما يجرّان ثوبيهما داخل أسوار (الدائن). وليرجعا إلى قريتهما ويمكثا فيها إلى الأبد! ذكّرني باسميهما!.

ـ «پاتيغ» و«ماني».

- وأنت «مالكوس»، أليس كذلك؟ وهنا تعيش؟ منزل جميل!.

وفيمّا كان الضابط يُجِيل في المُلكية نظرة حسدٍ ووعيد فوجيء «مالكوس» بأنه كان يتأمل بحنين جدران بيته وكأنه يراها منتصبة للمرّة الأخيرة.

وإذ دخل وهو يترنّح فقد مضى يستلقي في الحديقة الوارفة حيث مزجت له «كُلُوبيه» شراباً من التوت. وكرعه دفعة واحدة وطلب واحداً آخر حتى قبل أن يَجِفَّ عرقه. وإذا كان يريد الإبقاء على ممتلكاته وأسرته فإنه يعرف ما عليه أن يفعل، ويعرف أيّ طلب كرهه عليه أن يوجّه إلى «ماني». ولكن كيف السبيل إلى أن نتجاوز الكلمات شفتيه؟ ولم يتحدّث إلى «باتيغ» الذي جاء يجالسه إلّا بالحركات والهمسات المختنقة.

ولم يُقبل «ماني» للانضمام إليهما إلا بعد ساعة، وكان متعشاً وادعاً مُلْهُماً. قال: .

- لقد فكّرت. ينبغي أن أذهب من هذه المدينة.

استشعر «مالكوس» للحال ارتياحاً جَهِد في عدم تركه يشفّ. في حين كان ابن (بابل) يضيف بنبرة متأثرة بعض الشيء، وإن لم تُخلُ من مَكْر: .

- لقد طلبت النصّح من «رفيقي» السماوي الذي أجابني: «المدائن باب ضخم إن لم تستطع خلعه فحاول أن تحصل على مفتاحه». ولسوف أرحل هذه العشية بالذات. وإذا رغب «مار باتيغ» في مرافقتي فإن في وسعه أن يفعل.

وكنّى الأب عن الجواب بالنهوض وفكّ حبل ثوبه الأبيض ليعيد ربطه بشكل أوّثق.

وكان «مالكوس» قد استعاد استعمال كلمات المجاملة.

- أليس من الحكمة انتظار الفجر؟.

كان خارج هذه العبارة المهذّبة مرتبكاً بحق. وأكثر فأكثر يمرور اللحظات.

فلقد كان خَجَلًا من أنه كان يرجو رحيل «ماني»، بل من أنه كان على وشك أن يطلب منه ذلك. وكان المشهد الذي يحياه يملأ نفسه بالمرارة، مرارة سوف يحملها معه، وكان يستشعر ذلك حقاً، حتى آخر حياته. أفلم يكن قد احتفظ طوال سنوات بالصورة المؤاسية لصديقه وهو يناقص من نوى التمر في مقصف بستان النخيل؟ وما هو ذا الآن مقتنع بأنه سوف يتذكر بعد عشرة أعوام، عشرين عاماً، بخجل كامل وبالمرارة نفسها، اليوم الذي كان قد طرده فيه من منزله. طرده؟ إنه لم يطرده، وليس في عيني «ماني» أي لوم؛ بيد أن «الصوري» لن يغفر لنفسه أبداً غياب مروءته. ما العمل إذن؟ هل يستبقي الابن والأب، ويخاطر بخسارة كل شيء، بيته وتجارته وكل ما بناه منذ وصوله إلى (المداخن)؟.

هكذا نشأت في ذهنه رويداً رويداً، ومن غير أن يعترف بذلك لنفسه، الفكرة السخيفة، الفكرة الشاذة. وأسرع بكنسها من خاطره فعادت مُلِحة.

كان «مالكوس» ينظر، مُمتقع الوجه، حزيناً، يُرثى له، إلى ضيفيه وهما يجمعان متاعهما القليل، عندما أقبلت «كلوويه». ويلمح البصر، ومن غير أن تكون قد سمعت أدنى تفسير، كانت قد فهمت ما يجري: رحيل الضيفين وصراع الزوج مع نفسه. وشملتهم جميعاً بنظرة حنان ثم انتحت بهذا الأخير جانباً.

- إذا كنت تفكر في مرافقتهم بعض الطريق فلا تتردد. فعلى الرغم من سن هذين الرجلين فإنهما ليسا سوى طفلين، فهما لا يعرفان شيئاً عن الطرق ولا عن الرحلات، ولسوف يضلّان من غيرك.

وجد «مالكوس» نفسه واقفاً وحافلاً فجأة بالنشاط وكأنه لم يكن ينتظر إلا هذه الكلمات. وقال بمرح: .

- هلمّ ننطلق! سأطلب من الخدم إعداد المطايا.

بعض الطريق، قالت زوجته؟ إن «مالكوس» سيظل يتساءل بعد سنوات طوال كيف أمكن أن يخوض بمثل هذه الحقة تلك المغامرة.

* * *

لم يكن «ماني» ليدو على معرفة بالهدف من رحلته . وكان كل صباح يشق طريقه من غير أن يسمح لنفسه بالاستلقاء ليلتين على الحصير نفسه . وكان رفيقه يتبعانه . باتجاه (غنازالك) ، وفي (أتروياتينيا) ، وباتجاه (أرمينيا) ، وجبال (ميديا) ، ومستنقعات (ميزينيا) ، وفي نهاية المطاف باتجاه (قشقر) على نهر «دجلة» حيث أقبلوا .

- والآن إلى أين نذهب؟ .

لم يكن «مالكوس» ينتظر من جواب عن سؤاله يمثل ما كان الأمر عن أسئلته العشرين السابقة . وكان قد تهاوى في مقدم السفينة إلى جانب «باتيغ» ورأسه مستور في كوفية مبللة . وكانت الشمس من القرب بحيث يُسمع قرعها في الصدغين . و«ماني» وحده كان واقفاً وظله متجمع عند قدميه . وأعلن من غير أن يلتفت ، وكأنه يتصفح نشرة قيادة السفينة :-

- سننام الليلة القادمة في (شاراكس) . ثم نقلنا سفينة إلى (البحر الكبير) . حتى (الهند) .

كان «مالكوس» قد فقد عادة الاحتجاج . فكان ينام وينهض ويصغي ويمشي . ومع ذلك فإنه لم يتوقف قط ، وراء عينيه الكثيري الخضوع ، عن القيام بحساباته . فكان يقول إننا بالتأكيد في شهر أيار (مايو) ، آخر شهور الربيع ، وهو بالطبع بداية الرياح الموسمية التي تدفع بالسفن نحو (الشرق) ، وهذا ما يعرفه البحارة كما يعرفه التجار الذين يقومون بالرحلات الطويلة ؛ ولكن من أين لـ «ماني» هذه المعلومات الدنيوية؟ واعتدل «مالكوس» على أحد مرفقيه ، على أمل أن يزداد انجلاء رؤيته . أف يكون صديقه قد حرس نظام الرياح؟ أ يكون قد جره إلى هذه الرحلة الهائلة وهو متبصر منذ البداية ببلوغ (شاراكس) في الوقت الذي تفتح فيه بالضبط طرق (الهند) الموسمية؟ أم أن «توأمه» هو الذي يعلم ويقوده؟ «توأمه»؟ ولكن من يكون «ماني» ، ومن يكون «توأمه»؟ وباليد المتضايقة نفسها طرد «مالكوس» شكوكه ويعوض المستنقعات .

- ٣ -

كان يُهَيَّأ للرحلات في (شاراكس)، مستودع (ما بين النهرين)، في الأكواخ
القدرة المزروعة على طول مصبّ النهر. مستأجرو سفن وبحارة وصيارفة وتجار
شرفاء وعاهرات وبرّاجات. وقد ظلّ «ماني» و«پاتيغ» بعيدين عن ذلك الدغل
الداوي بالقهقهات المخمورة والأغاني البذيئة. بل خارجه بحذر، في شارع
غاصّ بالمارة ووارف الظلال. وكان على «مالكوس» وحده أن يقوم بالاقتراب،
«مالكوس» الذي كان قد جدّ في البحث عن مواطن من مواطنيه؛ وكان واثقاً
من العثور على واحد أو عدد منهم، إذ كان «الصُوريّون» يسلكون منذ قرون
درب كبش القرنفل وحَبّ الهال.

والحقّ أنه لمح في زمرة صغيرة، أقلّ الزمر صخباً، وجهاً، قصّة لحية،
تسريحة شعر، خاتماً. وانسلّ واستحوذ على مقعد وشيء من جعة الشعير. وكان
الحديث يدور عن «الدراهم» و«الدنانير» و«الفضة» و«الذهب»، ثم عن
اضطراب الأمواج وصخور الشاطئ والقراصنة. وذكر «مالكوس» مآثره
التجارية وزبائنه، تاركاً لمخاطبه أن تراءى له أعمال مشتركة مشمرة. وما هي إلّا
ساعة حتى كان «الصُوريّان» متوافقين وقد انعقدت راحتاهما.

- متى نطلق؟ -

- البضاعة على المركب، وكذلك الماء العذب، ولسنا ننتظر سوى البشائر.
لقد رأى غططنا في منامه الليلة الماضية قطيع ماعز، سوداوات مثل عاصفة
معقودة، فلم يشأ البحارة الإقلاع. وغداً صباحاً أقدم ثوراً قرباناً لهيكل رصيف
المرفأ. فإذا قَبِلَ نَشَرْنَا أشرعتنا بعد الظهر قبل أن تغيّر الآلهة رأيها.

ونفضنا على أثر ضحكة متشنجة، فالبحر لا يُركب قط من غير كَرْب. ثم
ذهب «مالكوس» يخبر أصدقاءه بأن كل شيء قد رُتّب.

كان «ماني» و«پاتيغ» محاطين بحلقة من المستمعين، كما هو الأمر في جميع
النواحي التي كانا قد زاراها. فهل يُقاطعهما ليزفّ إليهما نجاحه؟ ما الفائدة،
فهو يعلم سلفاً ردّ فعلهما، فلسوف ينظران إليه بعينيّ نعجة ناعسة، كما لو أنه
اتفق منذ الأزل على أنه سيلتقي وهو يدخل هذه الحانة صانع سفن صورياً
ذاهباً بالضبط إلى (الهند)، وقد أّخر رحيله يوماً واحداً بالضبط، ويقبل بأن
يأخذهم ثلاثتهم على متن سفينته كلاً، لن يقول «مالكوس» شيئاً فهو يُفضّل
أن يترك «الپارتيين» مُنصرفين إلى مهامهما الساوية ويَشغل هو نفسه بمهمة أدنى:
المؤونة. لأنه إذا كان مواطنه قد أصرّ بلطف على نقلهم مجاناً فإتّه لا مراء في أن
عليهم تأمين قوتهم على غرار ما يفعل جميع الركاب.

هل بالإمكان تصوّر جبل المؤن التي ينبغي جَمْعُها لمسيرة ثلاثة رجال طوال
الرحلة؟ وتوجّه «مالكوس» بخطى واسعة إلى سوق الميناء. وكان لا يفتأ يُدمدم
وهو يسير، والكلمات تتعالى من أحشائه على غير قصد منه وكأنّها فقاقيع السمك
على سطح الماء. وكان عند رحيله من (المدائن) قد خطّط، كما كان سيفعل كل
امريء عاقل، لجلب خادم أو اثنين! غير أن «ماني» لم يشأ أن يسمع بشيء من
هذا.

- من سيتولّى إذن نصب خيامنا وإعداد الطعام لنا؟.

- لن يكون لنا خيمة ولا مطبخ. فلسوف يُقدّم لنا أناس أسخياء في كل
مرحلة من مراحل سفرنا المأوى والمأكّل.

- أفرحل في الطرق وحيدين كالمسؤولين؟

وأخذ «ماني» يضحك.

- وَمَنْ خَيْرٌ مِنَ المسؤول استحقاقاً لإرشاد العالم؟

لقد كان مثل هذا الرأي مثيراً لرجل يعمل في التجارة!

- هناك أيام لا أفقه فيها شيئاً مما تقول يا «ماني». وإني لأتساءل عما إذا لم تكن تتحدث على هذا النحو لمجرد الرغبة في بلبلي.

بيد أن ابن (بابل) قد اتخذ أشدَّ السُّخْنِ جذّاً لشرح:

- على مَنْ اختاروا إرشاد الآخرين أن يستنكفوا عن كل سلطة وكل ثروة، ولا ينبغي أن يملكوا غير الثوب الذي يرتدون، ولا شيء غيره، حتى ولا طعام غد. وهكذا يمكن التمييز بين الحكماء والأتقياء المزيفين بائعي المعتقدات.

- ولكن كيف يبقى هؤلاء الحكماء على قيد الحياة؟

- سيطعمهم الشعب كل يوم.

- ألا يمكن أن يَكِلَّ الشعب يوماً عن إطعامهم؟

- حين لا يكون هناك على امتداد مساحة الأرض شخص واحد يريد إطعام حكيم فمعنى ذلك أن العالم لا يستحقُّ قطَّ الحكماء، وأنه حان الوقت لكي يذهب هؤلاء.

- وهل يتركون أنفسهم يموتون؟

- عندما يتخلى العالم عن الحكماء فإن الحكماء يتخلَّون عنه. وعندها يبقى العالم وحيداً ويأسى لوحده.

كان «مالكوس» قد أدار طاقيته ثلاث مرات حول رأسه.

- إذا كنتُ أُحْسِنُ الاستخلاص فإننا سوف نساfer من غير طعام ولا ذَهَبٍ.

- أجل، من غير أي شيء من هذا. سوف نرحل كما يرحل الحكماء.

كان «الصوري» يقول «كما يرحل المجانين». ولكن كيف السبيل إلى مدّ الجسور عندما يكون عدم التفاهم بمثل هذا البؤس؟ ومن أي طرف يكون الحجاج؟.

لقد انطلق «ماني» وأبوه وصديقه إذن بلا أي جهاز سوى مطاياهم. ومع ذلك فإن «مالكوس» لم يتمكن من الامتناع عن أن يحمل بكرة مخبأة تحت ثوبه. غير أن الفرصة لم تسنح له قطعاً طوال الرحلة لحلّ خيطها. فما إن كانوا يجتازون باب مدينة، سواء كانت (حلوان) أو (كنغوار) أو (أرتكساتا)، أو أوضع بلدة، حتى كان الناس يجتشدون حولهم، بدافع الفضول قبل كل شيء، نحو كل غريب؛ ثم إنه ما إن كان «ماني» يبدأ بالتبشير حتى كان جمهور يجتشد للاستماع إليه. وعندما كان ابن (بابل) يجهل كلام الموضع الذي هو فيه، كان رجل من الحضور يتدب نفسه ترجماناً، وكان ذلك الرجل، أو غيره، يتوسّل آجر النهار إلى المسافرين بأن يشرّفوه بالمبيت في منزله.

وعند كل وجبة كان الوجهاء يتساجرون لاستضافة الزوّار إلى موائلهم؛ وعلى امتداد النهار، وما دام «ماني» يتحدث، كان النساء يتوافدن حاملات الفاكهة والأشربة الطازجة له ولصاحبه ولستمعيه.

وكان من عادة «ماني» قبل أن يقطع الخبز أن يقول هذا الدعاء القصير: «أيها الربّ، لقد لزم لتحضير هذه الوجبة انتهاك التربة والنبات وغيرهما من المخلوقات. بيد أن الذين فعلوا هذا لم يكونوا ينوون إلّا تغذية «النور» الذي في الإنسان، وإلا إتاحة البقاء لـ «كلمتك».

ثم كان يأخذ بتوزيع الطعام على من حوله وكأنه ربّ المنزل، مكثفياً لنفسه بقليل من الخبز وبعض الثمار. وكان يحبّ البطيخ بشكل خاص، وإذا سئل عن سبب ذلك شرح أنه لا يجتمع في أي غذاء مثل هذا القدر من «النور»: «لاحظوا البطيخة، إن عيونكم لتفرح بلونها، وأنفكم بعطرها الحفّي، ويدكم تداعب قشرتها الصلبة والناعمة، ولستم في حاجة إلى الشرب في الوقت نفسه،

لأن ماءها فيها، وليس عليكم أن تضعوها في صحن لأنها تنضج وتؤتي أكلها في وعائها الخاص. ابدأوا من الأطراف ثم اقتربوا من القلب وكل لقمة تقربكم من «حدائق النور».

وكان يقدر كذلك الخبز الساخن، والخيار والتمر، ولا سيما أشد التمور صفاء، تلك التي يرى الضوء من خلالها. وكان يُزيح في المقابل بحركة تكاد تكون مهذبة أطباق اللحم. وأما الخمر والمشروبات المخمرة فلم يكن يشرب شيئاً منها؛ كان يتظاهر فقط، في ابتداء الوجبة، بغمس شفتيه فيها ليشعر الضيوف بحرية تناولها. بيد أنه لم يكن يتسامح بالسُّكر؛ وكان يكفي أن تلوح من أحد الحضور أماراة على ثملته لكي ينهض «ماني» ويتعد غير عابء بمضيفيه.

وفي أغلب الأحيان يكون «ماني» قد فتن في لحظة استثنائه طريقه بعض الأشخاص الذين لم يكونوا يرغبون في مفارقتة. غير أنه كان يقول لهم: «لا تتبعوني بعد، فلم يثن الأوان لذلك. انتظروني وكونوا أُملي في هذه المدينة، وانشروا حولكم ما قد سمعتموه من فمي، وقلوا لكل أحد إنني سوف أمر ثانية».

كذلك كان بعض أعيان الموضع يأتون لتقديم الهدايا إليه، أثواب قشبية وقطع ذهبية. وكانت هذه تلتمع في غني «مالكوس»، لكن «ماني» كان يشير إليه برَفعة من حاجبيه بالآيمسها. ثم كان يتوجه إلى المحسنين قائلاً: «هديتكم مقبولة مع العرفان بالجميل، احتفظوا بها في بيتكم بادية للعيان، فسوف تذكركم بمروري وتعلن لكم عن عودتي».

وهكذا بلغوا (شاراكس) آكلين مُستجِمين كل يوم، غير أنهم ليسوا أكثر غنى مما كانوا عند ذهابهم. ولا أكثر فقراً أيضاً لأن «مالكوس» لم يكن قد مدَّ يده مرة واحدة إلى بذرتة. ولقد كان سيوافق طوعاً على أن حيطته كانت سُدى لو لم يكن مشروع تلك الرحلة في البحر للوصول إلى (الهند). ففي الدروب يمكن أن يحصل المرء على المأوى والزاد في جميع المراحل، وقد كان «ماني» على حق في

ذلك وتبين أن شكوك «مالكوس» لم يكن لها ما يُسوّغها. غير أن الأمور في البحر لم تكن لتجري بالطريقة نفسها، إذ كان كل امرئ يصل ومعه مؤنه؛ ولا سيما على طريق (الهند) التي كثيراً ما كان الساحل فيها مُقْفِراً ونادراً ما كان مضيافاً.

إلى متى ينبغي توقع المؤونة؟ هذا ما استعلم عنه «مالكوس» من صانع السفن «الصُوريّ». فلو تمّ الإبحار في غير أوانه بمحاذاة الساحل على امتداده لكان من الممكن أن يمتدّ شهوراً؛ وإذا تُرك الأمر للرياح الموسميّة ففي الإمكان بلوغ وادي نهر «السند» في ثلاثة أسابيع على الأكثر. بل لنقل في ثلاثين يوماً إذا حسبنا حساب التقلّبات الجوية.

وقام «مالكوس» بحساب ما يلزم لمؤونة ثلاثة أشخاص مؤونة كافية مدّة ثلاثين يوماً. وإذا التفت ببصره إلى أقرب مفترق طرق فقد نادى حمالين جالسَيْن بالقرب من بركة ماء. وكانا متعوّذين على خدمة المسافرين فقاده على الفور إلى سوق المرفأ عند رجل اعتاد اجتذابيها بأسعاره التي كانا متأكّدين من اعتدالها، وهو «نبطي» من مواليد (الستراء) لم يلبث أن أكّد بغمزة من عينه لوسيطيه عمولتهما المعتادة.

وإذ استعلم عن الرحلة فقد نظّم بنفسه لائحة السلع الضرورية. فللنصف الأول من الرحلة بيضٌ مسلوق وأرغفة خبز بشكل كعك وجبنٌ وسمكٌ مجفّف أو مكبوس؛ ولما تبقى شعيرٌ وحنطة رومية وعدس وفول وفاصولياء وحمص؛ وبالطبع جرّتان من التمر المرصوص وبعض عشاكيل البصل والثوم وزيتون وعسل ومشمش مجفّف وزيت وملح وتوابل مختلفة؛ وقال بعدم إغفال الخمر، ويضرة أخذ بعض دنانير التي سيحتفظ بها القبطان، إذا شاء أن يكون لطيفاً معكم، مدفونة إلى منتصفها في الرمل المبلّل الذي يوازن قعر المركب، والتي ينبغي أن تُشرب بصحبته.

- وأما بشأن الآنية والأوعية فاطنّ أنك اشتريت ما يلزم منها للطريق.

قال «مالكوس» متأوّهاً: .

- لا ، إننا لا نملك غير إبريق للشرب .

- وكيف كنتم تفعلون للأكل ؟ .

- ليس من السهل شرح الأمر . كنا نتكَل على فضل «السَّاء» .

قال «النبطي» وقد اعتاد التزام أقصى الحذر فيما يتعلق بالمعتقدات : .

- إنها طريقة كغيرها للسُّفر . خذ مع ذلك قِدرًا وحطباً للوقودا .

وعندما اشترى كل شيء بعد مساومة طويلة ، اضطر «مالكوس» إلى مناداة حمال ثالث ، ثم رابع ؛ ولم يكتفِ هو نفسه بفسح الطريق للمرور ، فقد كانت ذراعاه محمّلتين حتى ذقنه عندما انضمَّ إلى رفيقيه . وكان «ماني» لا يزال يتكلَّم أيضاً وأيضاً ، و«باتيخ» يُصغي إليه عن كَتَب . وأشار «الصُّوري» على الحمالين بالأنانة فوضعوا أحماهم من غير تذمُّر متوقعين مزيداً من الأجر .

وإذ انتهى الخطاب آخر الأمر فقد تأمل «ماني» البضائع المرصوفة من غير أن يُبدي تحمُّساً .

- لقد تجشَّمتُ سُدَى كل هذا العناء .

وفضَّل «مالكوس» الصمت . لا كما يصمت تلميذ أمام معلِّمه ، بل كما يفعل ، على العكس من ذلك ، أخ أكبر مصمَّم على عدم معارضة أخيه الأصغر غير الناضج . ثم إنَّه كان يعلم ، من غير أن يكون أكثر نظيراً من سواه ، أنه لا ينبغي قطَّ أن يتشاجر صديقان في لحظة إبحارهما .

تُرى أيَّ بحرٍ مكشوف عن بصيرته قد أطلق ذات يوم على أشدَّ صخرات (البحر الكبير) الثلاث فتكأ هذا الاسم الذي لا مثيل له : «سلامتي وابتهاها» ؟ ولقد تُنوّلت التسمية من لغة إلى أخرى في الأساطير المفزعة التي حاكها جميع البحارة من (كانتون) إلى (مراقئ الحبشة) . وهي تتعلَّق بثلاث شُعاف قائمة تخترق صفحة الماء بشكل مذرّة جهنمية غالباً ما تسترها الظلمة والضباب . وكانت الخيزرانيات الشراعية تلتفّ حولها بحذر ، وبعض المراكب التي منسوب

مائها أضعف تتسلل بينها في جسارة انتحارية يحتفظ منها القاع القريب بذكرى
عدد كبير من الحطام .

لم تكن الرحلة بالنسبة إلى رفيقي «ماني» إلا أهوالاً . فما إن اجتيز المضيق
الذي يحمل الاسم الإلهي «هُرمز» حتى أقض صراخ قبيلة المسافرين : .
- قال ! قال ! قال !

كان المُنذِر بالخطر بحاراً من مدينة (سوز) ، وقد مدَّ يده نحو عرض البحر .
وانضمَّ إليه صانع السفينة ثم الرِّبَّان ومُهمُّهم الأول أن يتحاشوا استسلام الركاب
للدعر واندفاعهم جميعاً للتجمُّع في مكان واحد مُخلِّين بتوازن السفينة بأكدم
قد يفعلهُ الحوتان المندفعان بأنجَاهها .

- ليقَّ كل واحد في مكانه ، فأول من ينهض سوف أقذف به من فوق ظهر
السفينة !

وجمد الركاب في أمكتهم من غير أن يصدّقوا بالفعل التهديد . وإذا أطمأن
الرِّبَّان إلى أنه قد أطيع فقد أضاف قائلاً : .

- لا يُجِنُّ جنونكم فهيكَل السفينة صلب ، وفي كل رحلة تهاجمنا الحيتان
ونبقى عائمين على الدوام !

وكأنما أرادت البهيمتان تحدّيه فلامستا المركب فبدأ يترنّح .

وصاح الرِّبَّان : .

- هاتوا المقارع !

المقارع ؟ لم يكن بين الرِّبَّان من هو أشدَّ رعباً من «باتيخ» . فإذا كان طالما
عرف أن هذه الآلات تستعمل في الكنائس بصفة أجراس فقد جثا على ركبتيه
وشبك يديه وأخذ يندمدم : «لنُصلِّ ، لنُصلِّ ، فلم يبقَ لنا إلا الصلاة !» ومع
ذلك فقد انبغى أن تُستعمل المقارع الاثنتي عشرة التي جلبها نجّار السفينة في
قداس مختلف تماماً . فلقد وزَّعها على بحارة المركب ، وإذا بقي منها اثنتان فقد

أعطى إحداهما إلى «مالكوس» مُوصِياً إِيَّاهُ بالانحناء فوق السياج وقرع الراح الخشب برأسها مُخْدِئاً أكبر قدر ممكن من الجَلْبَةِ. وحضر طَبَّاحُ الرِّبَانِ للمعاونة رافعاً صينية من النحاس أخذ يقرعها بضربات من مِغْرَفَةٍ. وشارك الجميع شيئاً فشيئاً في العمل فغدت كل مساحة صنجاً يُقرع ويُضرب ويُنقر عليه فيما تتعالى الصيحات والتهليلات بقدر متساوٍ من الحميَّة والرَّهبة. وبدأ أن الصخب كان مُجْدِياً، فما هي إلا دقائق حتى لوحظت نافورة ماء على بُعْد زهاء ميل من مقدَّم السفينة. وكان الحوتان قد قرأا، ولن يُريا بعدُ أبداً.

كان الإعصار الذي برز في اليوم الثالث عند الغسق أشدَّ إقلاقاً. فلم تُرِ بادي الأمر غير غيمة بيضاء أخذت تكبر وتتفخ وتتخن دقيقة بعد دقيقة حتى أخذت تدوم أسرع فأسرع مُحَاكِةً شكل قرن ضخمة متأهب للغوص في العُباب. ومع ذلك فقد حدث العكس فشرع البحر فجأة يغلي كالقدر في هذا الموضع بالتحديد، وارتفعت صفحة الماء، يا للمعجزة! وقد اجتذبتها الغيمة المدوِّمة وامتصتها؛ وكان عمود أسود من الماء قد انتصب الآن وأخذ يتعالى ويتعالى وهو يترّ، وكأنما البحر بأسره سوف يُسْفَط إلى السماء.

وجحد الرِّكَّاب في أمكتهم. والحق أن الظلمة قد ساعدت على إظهار الإعصار بصورة وحشٍ مُدْمِرٍ، نوعٍ من تَنِينٍ ضخم مُعَلَّقٍ بين السماء والبحر، أكثر مما هو ظاهرة مائية عادية. وأصاب الرعب صانع السفينة نفسه فذهب إلى حقييته وأخرج منها عقداً مصنوعاً من قطع ذهبية ولَفَّه حول عنقه. وأخرج بِحَارَ شاب خنجراً مشحوداً من غمده وسَدَّه إلى نحره وكأنه لا يتنظر سوى إشارة لقتل نفسه. وسجد «ياتيغ» من جديد واستأنف صلواته.

لم ينم أحد تلك الليلة، فالجميع يُصَيِّخون السمع ويرقبون الأفق بلا كَلَلٍ للتأكد مما إذا كان الخطر يقترب. رجلاً، رجلاً فقط ظلاً بمعزل عن كل دُعر. الرِّبَانُ أولاً، وهو بِحَارُ عجوز من (شاراكس). وإذا كان قد أمر بالضجيج لإبعاد الحوتين فقد اكتفى لدى ظهور الإعصار بلمِّ الأشرعة، فهاذا

كان في وسعه أن يفعل أكثر من ذلك؟ وكان يعلم أن الإعصار سينقُصُ، قريباً أو بعيداً، ربّما بصيبب يجعل السفينة تميل وتجنح، وربّما بقطرات صغيرة رقيقة، برذاذ لا ضرر منه. وبانتظار ما سيكون تقدّم بخطوة واثقة وسط رعيّته المتململة. وإذا كانت الأنظار متشبّثة به والأصوات تتصرّع إليه وتناديه فقد اكتفى بأن أغدق على الجميع الأقوال نفسها، وفي بعض الأحيان نظرات تعاطفٍ متعاليةً.

وقادته خطاه ذات لحظة إلى «ماني» مُتهَيِّئاً لتوجيه كلمة التشجيع إليه. غير أن ابن (بابل) هو الذي ناداه: .

- أ تكون الرجل الوحيد الذي يشاطرنى دَعَتِي على هذا المتن؟ .

بدا في غَيْبِي الرّبّان نوع من الحيرة والتردّد. فقد جعل انقلاب الأدوار هذا مجّة من تحصيل الحاصل جميع العبارات التي كانت جاهزة في ذهنه.

- ها هي ذي أقوال تشجيع وتشريف! مَنْ تكون أيها المسافر الكريم؟ .

كان اسم هذا الشخص قد قيل له كما قيل اسم كل من المسافرين العشرين الآخرين، بيد أن مثل هذا السؤال كان مفروضاً فيه أن يُعيد الهيبة والسطوة إلى نفس الرجل القائد.

ولم يتوان «ماني» عن تقديم نفسه.

- أحمل رسالة وعليّ نشرها في (الهند)، وهذه السفينة تقودني إليها، ولن يقطع رحلتي أيّ إعصار، ولا آية صخرة بحرية، ولا أيّ حوت، ولا آية عاصفة. هكذا هو الأمر. وليس في مقدور البحر شيء.

- يا للسعادة بساع رجل يمثل هذه الثقة في مثل هذه الليلة! كثيراً ما يقال إن البحر قتال؛ وأما أنا فلم أخف منه يوماً. وعندما يحين حينى فسيكون ذلك في بيتي في (شاراكس) صريعٌ حمّى لعينة ما. وأما فوق الماء فأظّل واقفاً وأبصق على الأخطار وأعلم أنه ما من شيء يمكن أن يُصيبني.

قضى ابن (بابل) والربان الليل بطوله واقفين إلى سياج السفينة وهما يتحدثان، وسواء كان الحديث عن قصص البحر أو عن مواعظ الأدباء، فقد كان كل منهما يصغي إلى كلام الآخر من غير كلال. وكانا كلاهما يوزعان على الركاب المتجهين نحوهما كلمات التشجيع نفسها. لأن الناس كانوا لا يزالون يتململون على ظهر السفينة مذعورين، بيد أن تباشير الصباح حملت معها العزاء إذ كان الإعصار قد غاب بعيداً ولم يترك أثراً ولا أضراراً. وارتفع في نهاية الأمر السكون الأزرق المعروف في بحار الجنوب فوق تلالؤ الأمواج التي بدا لبعض الوقت أنها قد ندمت على ما بدر منها.

أخذ القوم يتنفسون وانفكَّ عقال الألسنة وأصبح بالإمكان طرح الأسئلة التي كانت ستبدو البارحة غير محتمشة ومن قبيل سوء الطالع. وأفاد صانع السفن الصوريّ بشأن عقد الذهب الذي كان حول عنقه:

- حين أكون في البحر والموت يهدّد أتساءل على الدوام بفزع عن مصير جسدي إذا أصابني الغرق. لا شك في أنه سينقذني إلى الشاطئ حيث يكتشفه أحدهم ويتردّد بشأن مآله؛ فلماذا وجد كل هذا الذهب قدر أنه قد كوفئ بسخاء وقدم لرفاتي، عرفاناً منه بالجميل، القبر اللائق.

وكان هناك أيضاً ذلك البحار الشاب الذي بدا عازماً على قتل نفسه. وكان عربياً. وقد قال إنه إذا لم يكن بدّ من حدوث الموت فهو يفضل أن تُخلّى روحه للهواء الطلق وترحل إلى السموات العلى بدلاً من أن تبتلعها الأمواج وتبقى أسيرة الأرواح الشريرة المتحكّمة بالأعماق.

أصبح من حقّ «ماني» مذكّ أن يسترعي جميع الأنظار. فإذ غدا موضع مزيد من الإجلال عمّا كان عليه في المدن التي اجتازها، يحيط به القوم على الدوام ويتبعونه ويصغون إليه، فقد كان يُدعى لمشاركة الربان جميع وجبات طعامه وكل سهراته، ويحظى رفيقاه بالامتياز نفسه. وظلّت المؤن التي كدّسها «مالكوس» كما هي تقريباً حتى نهاية الرحلة.

ولم يكن الرّبان يُفصح عن شيء من أمور الرحلة إلا لـ «ماني» ورفيقه وصاحب السفينة. وعليه فإنّه عندما لاحظ «مالكوس» أن السفينة قد مالت نحو الجنوب بدلاً من الذهاب مباشرة باتجاه مشرق الشمس وافق الرّبان على إيضاح الأمر له: .

- إن من يجهلون البحر لا يَرَوْنَ فيه إلا سهلاً شاسعاً من الماء. ولكنّ يوجد هنا، كما على اليابسة، دروب وطرق ملتوية وأخرى غير نافذة، وكذلك جادات واسعة ترسمها التيارات والرياح. مثل الجادة التي تصل في هذا الفصل بين رأس (الجزيرة العربية) و(الهند). وعلينا الانطلاق إلى الجنوب لبلوغها ثم سلوكها. وعند ذلك فقط نلتفت باتجاه الشرق بأقصى سرعة كما يُفعل في أفضل الطرق المُعلّمة. ونبلغ (دَبّ) من غير أن نرسو على الإطلاق، وحتى من غير أن نرى اليابسة، إلا أحياناً بعض الجزر المسكونة بالخرافات المُزعّبة ولا يجرؤ بحار على الاقتراب منها.

أقال الربان (دَبْ)؟ كانت المدينة قائمة في دلنا نهر «السند» على فرع أثرته شيئاً فشيئاً الأوحال المجروفة من أعلى الجبال. وأصبحت السفن القادرة على بلوغها أندر فأندر عاماً بعد عام. وذات صباح استيقظ الثغر وقد غرق وسط الأتربة. وعندها هجره الناس إلى مشاهد أخرى في الجوار مثل (تاتّا) و(سِندي) و(لَهري)، ومؤخراً (كراتشي).

ماذا بقي من (دَبْ)؟ ما الذي بقي من قصورها ومعابدها فوق التلال ومبناها القرميدي اللون الخاص بالكوس، ذلك البناء المحدّد الأعلى الذي كان البحارة يرقبونه من بعيد وكأنّه منارة؟ لقد كان بعض المسافرين لا يزالون يشيرون إلى وجوده حتى القرن السابع عشر. ثمّ تاه كل شيء. فلا أدنى أثر للمكان المعين، ولا ظلّ لظلّ. ولا من أحد يعلم. وفي اللحظة التي يُخطّ فيها هذا السطر لا يزال بعض علماء الآثار ينقبون في مصاب «السند» عن أثر لأثر.

لم يكن في مقدور معاصري «ماني» تجاهل (دَبْ). ولا سيّما أكثرهم مغامرة. فقد كان جرّس هذا الاسم يرنّ في آذانهم رنين نداء مُحْتَقِق ويولّد في نفوسهم الرغبة في الترحال. وفي ذلك الوقت كان الناس يتعرفون على العالم من خلال همساته، ويُرَاد بالحدس والتخمين، وكانت خرائط نصف الكرة شديدة التشابك والاختلاط، والجزر تنتفخ بنفحة الحكايات العجيبة فتتحول إلى قارّات، وتتحول البرزاخ إلى محيطات تنبثق منها مسوخ ووحوش كان يرسمها الجغرافيون. فوق الجبل المُشرف على (دَبْ) كان كاتب حريص قد خطّ وكأنّه يُعين منبع نهر: «قد تكون العقارب وُلدت في هذا الموضع».

كان الناس يتوقعون في كل مرحلة من مراحل الرحلة أن يلتقوا الطاعون والوحوش والمجاعة والحرب والنهائين، وكذلك العمالقة الأسطوريين ذوي العين الواحدة وجميع أنواع العجائب، بيد أنهم لم يكونوا يعدّلون لهذه الأسباب عن الرحيل. وكان الموت شوكاً قارصة مألوفة. وكانت المغامرة تُعاش على هذا النحو. وكان يُقال وداعاً ويرحل الراحلون. بلا تاريخ ولا ضمان بالعودة. وعندما كان المرء يتحلّى بالإقدام وينعم بالخطّ والرياح المؤاتية فإنه كان يبلغ (دَبْ).

لقد كتب «ماني» أن العالم كان مقسماً في أيامه إلى أربع إمبراطوريات عظمى ، إمبراطورية «الرومان» وإمبراطورية «الفرس» الساسانيين وإمبراطورية «الصينيين» وإمبراطورية «أجباش البحر الأحمر» ورَّيَّة مملكة «سبأ». ولم يكن رعايا هذه الإمبراطوريات يتخالطون في أيِّ ثغر تحالَّطهم الحميم في (دَبْ) ؛ وكانت بالنسبة إلى الخيزرانيات الشراعية القادمة من (كانتون) المحطَّة الأخيرة قبل (جزيرة العرب) ؛ وكانت بوابة (الهند) للقادمين من «الغرب» ؛ على أن تؤخذ هذه الكلمة الأخيرة بالمعنى الذي استخدمها به «ماني» نفسه، أي شاملة (إيطاليا) و (اليونان) و (قرطاجنة)، ومعها أيضاً (مصر)، و (فينيقية) وجميع أراضي (آرام)، هذه الأراضي التي جَعَلْنَا انزلاقاً في «التاريخ» ندعوها الآن «الشرق» الأدنى.

ومن بين حكايات الأسفار الكثيرة التي قرأها ابن (بابل) في مكتبة «أصحاب الملابس البيضاء» كانت هناك حكاية بالذات قد ألهبت تخيلته: حكاية «توما» الذي كان يلقَّب بتوأم «يسوع»، والذي كان قد جاء إلى (الهند) لينشر فيها كلام «الناصري». ولربما كان «ماني» قد أراد الاقتداء به حين اعتزم القيام بهذه الرحلة.

والحق أن «توما» كان قد نزل في (دَبْ) وفقاً للمتداول من الأحاديث والأخبار.

كانت جميع كنائس (الهند) تحمل في عصر «ماني» اسم «توما»، وتزعم كلها أن الحواريّ بناها بنفسه وتحفظ منه بالأساطير والذخائر. وكانت تلك اليعسّر في أكثر الأحيان متواضعة، وبعضها يقوم في كهوب (غندرا)، وكان يكفي لإذكاء هذا المعتقد الذي لا يزال جديداً صليبيّ وثلاثة مشاغل.

ولم يكن الأمر على هذا النحو في (دب). فقد كان الازدهار، كما يليق بمدينة تجار، يشعّ في أمكنة العبادة، وما تضمّ من الأشياء المتعلقة بها، وكان الذهب المكسوب بالطرق الشريفة يتدفّق عليها بدافع العرفان، والذهب المشكوك في أمره بدافع التوبة. وازدانت الكنيسة واتسعت، وأخذ أهل المدينة يلتقون فيها عابري السبيل من مثل بحار إسكندريّ داخل حديثاً في الدين أو راغب في التنصّر من (أوستيا) وقد أبهجهما أن استطاعا في نهاية الأمر أن ينعما بممارسة عقيدتهما جهاراً.

ومن الملائم القول إن المدينة كانت قد عاشت طويلاً تحت السيطرة المتسامحة التي مارسها «الكوشانيون» ورثة «كانشكا» العظيم أحد ثلاثة سن أعدل الملوك الذين احتفظ «الشرق» بذكراهم، «كانشكا» الجليل الذي كان يشرفه، وهو في أوج نفوذه، أن يستضيف تحت سقفه بعض الرهبان التسوّلين. وقد كان

هاجس الأمراء «الكوشانيين» على الدوام ألا يُبطلوا صيت سلفهم وأن يُظهروا مروءتهم وعدلهم في جميع المناسبات شاملين برعايتهم جميع المعتقدات. وكان ن قدّمهم المتداول يحمل على الوجهين رموز ثمانٍ وعشرين عبادة مختلفة.

وعلى هذا كانت تقوم عند أطراف (حيّ) التجار الأجانب كنيسة القديس «توما»، ومعابد «پوزييدون» و«أناهيتا» و«فشنو»، ومحاريب «اللات» و«يَم»، وكنيس يُقال إنه بُني في عهد «الإسكندر»، وعلى طريق (تكسيلا) صومعة البوذيين ودّيرهم.

كانت تلك العبادات لا تزال تتعاش باحترام جنباً إلى جنب عندما وصل «ماني»، وكان أول ما قام به وهو يطأ اليابسة أن توجه إلى الكنيسة البادية بجلاء من أرصفة المرسى. وكان اليوم يوم أحد والناس يحثّون الحُطى إلى فِنائها. وكان «توما» قد علّم الهندو ما علّم «يسوع» الحواريّين: أن يراعوا «السبت» من كل أسبوع بحميّة مثالية وأن يجتمعوا من جديد في الغداة من أجل شعائرهم الخاصّة، ولا سيّما من أجل التعليم وقراءة النصوص المقدّسة ومواعظ الأجداد والرسائل الثّقويّة الواردة من الطوائف المنتشرة في أرجاء الدنيا؛ وإذا حدث أن مرّ بالمدينة يوماً مؤمناً ذائع الصيت فليُفسخ له مجال الكلام.

وقد عرف «ماني»، بطريقته في شقّ جموع الناس وظلّعه المتعالي، كيف يبدو منذ اللحظة الأولى رجلاً جديراً بأن يُصغى إليه. ولقد تخلّى له الكاهن بطيب خاطر عن المنبر، على الرغم من بقائه متأهباً وهو واقف في صدر الكنيسة. فقد كان هناك كثير من الأصوات المهرطقة، الجليّة أو الماكرة، بحيث ينبغي التدخل في الوقت المناسب لإسكاتها، بل لطرد مُفسد النفوس في بعض الأحيان بنُشْدان المعونة من الحاضرين من حمالي المرفأ البواسل الذين سوف يتفانون في سبيل مثل هذا العمل الورع.

كان «ماني» يتحدّث بالآرامية، ولم يكن من يفهمون كلّ ما يقول بالكثيرين: مُقيم القدّاس واثنان أو ثلاثة من المثقّفين... ومع ذلك فقد كان يُصغى إليه كل واحد من الحضور. أفلم يكن لسان «يسوع» و«توما» هو

المتجاوب؟ وكان التأثر بالغاً. وما كان المضمون ليهم كثيراً. فقد كان كل الأمر في نبرة الصوت، في بعض الأسماء المباركة التي كانت تطفو، في الوجه الناحل لذلك الرجل ذي الساق المتتوية القادم من الأراضي المقدسة.

ولم يكن هو نفسه يسعى إلى مفاجأة مستمعيه. وإذا كان يسلك نفسه مباشرة في خلافة «يسوع» فقد أخذ يُعيد بأمانة أقواله كما كان «توما» قد نقلها. ولم تكن طريقته بالجديدة. فقد كان مسيحيو الإمبراطورية الرومانية يتصرفون هكذا في كنس الشتات. كانوا يُعرفون بأنفسهم مُعلنين أنهم قدموا رأساً من (القدس)، ويذكرون ما جدّ من أمور خاصة بالطائفة، وينقلون ما يكابده سگان (اليهودية) من بؤس وانتظار، ويتحدّثون عن التوراة مُستشهدين من الذاكرة بالنصوص المنيئة بمجيء «مسيح مخلص»، ثم يرحلون بأنه ربما كانت النبوءات في طريقها إلى التحقق من خلال ما كان يعانيه اليهود في ذلك الوقت من حصر. وكان أشدهم مكرراً يتمكّنون من الحديث طويلاً، وحين كانت تُكشف أقنعتهم في نهاية الأمر فبعد أن يكونوا قد أفلحوا في إغواء قسم من الحضور، أو على الأقل في إثارة الرغبة في سماع المزيد. وكان بعض الأشخاص يتبعونهم إلى الخارج، بل يدعونهم في بعض الأحيان لإكمال تعليمهم في منازلهم. وهكذا كان حواريتي من الحواريين يميّز بلباقته ومهارته من أولئك المهتاجين الذين كانوا ما إن يدخلون الكنيس حتى يجأروا بمعتقدهم الجديد، ثم لا يلبثون أن يجدوا أنفسهم في الخارج، وحدهم، وقد أوسعوا ضرباً أحياناً، حتى قبل أن يكون جميع الحضور قد أدركوا سبب طردهم.

وتبعاً لهذا المعيار فقد كان «ماني» من معدن أعظم المبشرين، «بولس» أو «مرقص» أو «توما»، وهو يتصرف في البيع والكنائس تصرف أسلافه في الكنس. وبالقدر الذي كانوا يتمتعون به من الاقتناع والإيمان. وكما أن مسيحيي (فلسطين) الأوائل كانوا يعتبرون أنفسهم يهوداً خيراً من اليهود، بل ربّما اليهود الوحيدون الحقيقيون، فقد كان «ماني» مقتنعاً بأنه جاء يُكمل رسالة «المسيح» ويصقلها في عقيدة شاملة كفيفة بجمع كل معتقدات البشر الصادقة.

وإذ بدأ «ماني» موعظته في كنيسة (دَب) فقد أخذ «مالكوس» و«باتيغ» يتلفّتان حولهما بقلق مترصّدين ردود فعل هؤلاء وأولئك، مترقّبين أخفى رمشة تصدر عن الكاهن، سواء بفعل الامتناع أو بفعل الموافقة. أكان سيُصغي حتى النهاية، أم أنه لن يلبث أن يزعق فجأة: يا للهرطقة، يا للتجديف؟!

الغريب أن شيئاً لم يحدث. فلا حماسة ولا استنكار. ولا حتى لامبالاة. وكان بالإمكان أن تُقرأ الحميّة في جميع العيون، حميّة يخالطها الحزن. وأما الكاهن فقد أصغى بوقار لا يشي بأيّ انفعال إلى أن سكت الزائر فنهض وألقى عبارة شُكر وامتدح بلاغة «ماني» ومعرفته الواسعة بالنصوص، وبعد صلاة قصيرة تلاها الحاضرون جماعةً، أشار بانصراف المصلّين متمنياً لهم السلامة.

وبعد أن جثا القوم ورسوموا إشارة الصليب رجعوا القهقري في حين دعا الكاهن «ماني» ورفيقه وأحد وجهاء الطائفة للحاق به إلى منزله، وهو بيت متواضع من القرميد ملّحَق بالكنيسة.

قال:

- ساعونا أيها الإخوة الكرام إذا لم يكن الاستقبال الذي أعددناه لكم لائقاً بمقامكم وعلمكم. بيد أنكم قد تكونون شعرتم بالخوف الذي كان يساور جمّع المؤمنين.

كان «باتيغ» أشدهم دهشة لهذا الاستهلال.

- ومع ذلك تبدو طائفتم أسعد الطوائف كلها. لقد التقينا بإخوتكم في (المدائن) و(قشقر) وعشرين مدينة أخرى، ولم يكن صوت صلواتهم يُجلجل في أيّ منها.

وثني «مالكوس» مؤمناً: .

- إن السعادة التي تعرفونها نادرة. ففي الأقاليم الرومانية يُضطهد المسيحيون، وفي الإمبراطورية الساسانية غدت عبادة النار ديناً رسمياً، ولا يُتسامح فيها مع الطوائف الأخرى ما لم تكن قد كَفّت عن استقطاب المريدين.

لأنهم يُراقبون عن كَثَبٍ وَيُبهَظون بالضرائب وَيُحتَجَزون في أحيائهم وَيُرغمون على ارتداء زيٍّ يفرِّقهم عن الآخرين .
بدا الكاهن متأثراً . وسعيداً .

- كلامكما هو الحقيقة بعينها ، وقد لا نكون شكرنا الرب بما يكفي على أعوام الرحمة التي مرّت بنا . . . فلم يكن شيء مما ذكرتمناه قائماً بالفعل في (دَب) . وكنا نعيش وسط الناس ونلبس الزي نفسه ، ونحكي بصوت مرتفع .

وإذ قال ذلك فقد اختنق صوته وسال دمه . وتحاشاه «ماني» و«مالكوس» و«باتيغ» بأنظارهم وقد سُقط في أيديهم . والوجيه وحده وضع على كتفه المتداعية فجأة يداً بُنِيَّةً ومُواسية . وكان الكاهن قد دعاه في أثناء التعارف «بر - توما» واصفاً إياه بأنه أكثر تاجر مسيحي في المدينة تمتعاً بالاحترام . كانت بشرته سمراء داكنة لا لمعان فيها ، وكانت شحمتا أذنيه مخروقتين على طريقة الهنود ؛ ومع ذلك فإنه ، نظراً لاسمه الخاص بأبناء بلاد (آرام) ، لا بد أن يكون هجيناً .

كان قد ظلّ حتى ذلك الوقت صامتاً ، بيد أنه إذ أدرك ثقل الاستغلاق الذي بدأ يرين فقد جهد في تبديده .

- أيها الزائرون الكرام ، أتكئون الناس الوحيدة الذين يجهلون في هذه المدينة أن ملوكنا ، الأمراء الكوشانيين ، قد انهزموا على يد الجيش الفارسي وانكفأوا إلى ما وراء الأنهر الخمسة ؟

كان يتحدث بآرامية شبه سليمة نابراً معظم المقاطع نبرة مغلوطه كما يفعل كثير من المتدينين المعتقدين بأن من واجبهم تعلم لغة الدين ولا تتاح لهم فرصة استعمالها في أحاديثهم اليومية . وعندما كانت تغيب كلمة عن باله كان يُجِلُّ محلّها ما يعادلها في اليونانية وهو مستريح إلى أن كلّ شخص من الحاضرين يفهمها .

وألحّ في نفاذ صبر ظلّ وقوراً :

- أيها الإخوة الكرام، ألم تلاحظوا أنه ليس من جندي واحد في شوارع
(دَب)؟

وأجاب «مالكوس» :

- لقد لاحظت ذلك بالفعل، بيد أني وجدت فيه دليلاً على أن هذه المدينة
تعرف السلام والأمن.

- لقد أخفت وداعة روحك عنك الحقيقة المؤلمة. إن مدينتنا متروكة في الواقع
لمصيرها، فقد رحلت الحامية كما رحل الوالي؛ وقد استدعى قبل رحيله زعماء
جميع الطوائف ونقابات الحِرَف لنُصَحِّهم بإظهار الخضوع لسادة البلد الجُدد.
- وأين هم إذن هؤلاء السادة الجُدد؟

- يقال إن جيشهم يُعسكر على مسيرة يوم من هنا، فوق تلال (طوران)، وأنه
بقيادة أمير يافع هو «هرمز» حفيد «أردشير» ملك الملوك. ماذا في نيتِه أن يفعل؟
متى يستولي على مدينتنا؟ لماذا لم يطالب هذا الأمير الساساني بعدُ باستسلامنا
وعساكره قرية جُداً منّا؟ إن الله تعالى لم يحفل بعدُ بجلاء هذه الأسئلة لنا.
ومن هنا هذا الهلع الذي يستحوذ علينا جميعاً، حتى أشدنا إيماناً، حتى أكثرنا
ثقة بحكمته. هل زرتم أسواق المدينة؟
أجاب «باتيغ» :

- لا، فما إن وطأت إحدى قَدَمَيَّنا رصيف الميناء حتى سلكت الأخرى طريق
هذا المكان المقدس!

قال الكاهن بحمّية وقد هدا روعه :

- ليبارك الله فيكم ! وليملأ الربّ الأرض بأناس على شاكلتكم !

وذلك قبل أن يضيف «بر - توما» :

- لسوف تفهمون حين تتجولون في المدينة. لقد فرغت أماكن عرض
البضائع واختفى الذهب والأقمشة الفاخرة والتوابل النادرة والأحجار الكريمة.

والفنادق التي يملكها أشخاص من (كانتون) مُقفرة، وكل خيزرانية ترسو تعود مُثقلة بالبضائع والتجارة. والفقراء في الأحياء الوضيعة هم أيضاً خائفون. حتى إن الرجال استعادوا نساءهم.

وإذ خشي ألا يفهم مستمعوه قصده فقد أسرع يُضيف:

- إنها العادة هنا. في كل شهر، عندما تكون المرأة غير طاهرة، يطردها زوجها من البيت ليبرهن للجميع أنه لم يَقْرَبها؛ وتذهب للإقامة في الشارع تحت ظُلة مدة أسبوع. وأما الآن فسواء كنَ دَنَسات أو لا فقد أَعِدَنَ إلى البيوت خوفاً من أن يأسرهن الجنود لدى وصولهم. وتدخل «مالكوس» قائلاً:

- يبدو لي هذا الخوف مُبالغاً فيه. فلا يمكن أن يدخل الجيش مدينة استولى عليها من غير بعض النهب، ينبغي الاستسلام لهذا؛ غير أنه في الوسع تُجَنَّب أسوأ الأمور. لا تَدْعُوا أساكُن عرض البضائع خالية، وإلا انتقم الجنود من السكّان بفعل الحرمان. دعوا لهم شيئاً ينهبونه من غير أن يُفقرّوكم، وتظاهروا بأنكم مُصابون من غير أن تعترضوا. وإذا كانت المدينة قد صمّمت على التسليم بلا قتال، وإذا هي قدّمت إلى الأمير هدايا نفيسة، قلّت الأسلاب، وسرعان ما يكون بالإمكان إعادة البضائع المُخبأة إلى الواجّهات. فانا نفسي تاجر في (المدائن)، عاصمة «أردشير» بالذات، وفي مقدوري ممارسة تجاري بلا كبير عناء. ولقد احتلّ «الساسانيون» خلال الأعوام الأخيرة عدّة ثغور مثل (شاراكس) التي قديمنا منها؛ ولم تُعانِ هذه المدينة كثيراً من سيطرتهم. إنهم رجال نظام، وسوف يجعلونكم تدفعون مُكوساً، غير أنهم سيَدْعونكم تعملون ويمحونكم من القراصنة.

كان من حسنات أقوال «مالكوس» هذه أن شدّت من عزيمته مخاطبته، فأخذ، بدلاً من الاكتفاء بنذب حظّهما وبالشكوى، يُواجهان أمر إرسال وفد لاستباق الغازي. واقترح الكاهن أن يضمّ أكثر التجّار وجاهةً محمّلين بالهدايا، وأن ينطق باسم أهل المدينة أحد رجالها الموقّرين.

وتدخّل «بر توما» بتهذيب قائلاً:

- بمقدورنا التفكير في حلول أفضل من هذا. أفلا يُشكّل رهط من التجّار المُلحّمين الملتقيّين في الطبالس وآذانهم مثقلّة باللّاليء والزمرّد استفزازاً ودعوة إلى النهب والقتل؟

أطرق الكاهن مفكّراً. لقد كان بوّده الذهاب بنفسه مع الذين يُرشدون الطوائف الأخرى. بيد أنه إذا كان هؤلاء «الساسانيون» مُعادين حقّاً لمختلف الديانات فإنه يخشى أن يزيد حضوره من سُعارهم.

ظلّ «ماني» صامتاً طَوال تلك المناقشات، محتسباً داخل ذاته وغائباً بحيث كان الآخرون قد نسياه تقرّياً. وربما كانا يقدران أنه غريب جدّاً عن هذه المشاغل الدنيوية. وعليه فقد دهشا تماماً لرؤيته فجأة يأخذ في الكلام بأبسط نبرة:

- أنا هو الذي سيذهب للقاء الأمير.

وأجفل «مالكوس»:

- آه، لا، لا، وعلى الأخصّ أنت!

وأخذ يبحث عن حجة مقبولة تمجّب ردّ فعله العفويّ جدّاً.

- أنت أيضاً رجل دين، وقد وصلتَ لتوكّ فوق ذلك إلى هذه المدينة، فكيف تستطيع الكلام باسمها؟

استأنف «ماني» وكأنه لم يسمع ما قيل:

- أنا من (بابل)، أفليس من الحكمة أن يكون المتكلّم باسم هذه المدينة من رعايا «الساسانيين»؟ وأن يخاطبهم بلغة يفهمونها؟

وألحف «مالكوس» في التوسّل، فما زالت ماثلة لعينيه صورة ذلك الضابط الذي كان يطوف بمنزله.

- لقد غادرنا (المدائن) هرباً من جنود «أردشير» وتريد أن تهرع للقائهم!

قال «ماني» بسداجة:

- ولكن لم يكن في نيتي قط أن أهرب! لقد جئت بمهمة.

- إلى الجيش "أاساني؟

لم يرد ابن (بابل) على الفور. وبدا من جديد غائباً، غير أن وجهه كان يطفح بالبشر والإشراق. قال في نهاية الأمر:

- كنت لا أزال قبل هذا اليوم أجهل من أجل أية مهمة سيق بي إلى (الهند). وأما الآن فأني أعرف!

كان «هرمز»، حفيد سيد الإمبراطورية، متربعا فوق أريكة من الخشب المحفور، تحت خيمة فسيحة هي قصر حقيقي من القماش رُفعت أذياله للسماح بدخول الهواء والضوء. وكان الضباط والكتبة مجتمعين حوله ولكن برؤوس مخنية وأذرع ممدودة إلى جانبي الجسم، ولم يكن هناك من لفظة في غير محلها.

وكان أمين سرّه قد أعلمه بوجود الزائر قبل أن يوافق على مثوله بين يديه. «رجل بساق ملتوية، جاء من مدينة (بابل). لقد رست سفينته قبل ثلاثة أيام في ميناء (دب)».

وسأل الأمير «ماني»:

- أية حمولة جلبت؟

- أقوالي، ولا شيء غير ذلك.

- إنها لبضاعة عجيبة!

عندما انفجر «هرمز» ضاحكا أخذت الحلقة الفضية التي كانت تجمع لحيته تتقاذف، وأخذت حاشيته تتمايل من غير إغراق لأنه كان عليهم أن يحاكوه ما إن يستعيد وقاره، خوفاً من الظهور بمظهر المتحررين والوقحين. ولم يكن الأمير

نفسه يضحك إلا بقدر وعيته مترصة باستمرار.

واستأنف قائلاً وكان العبارة قد أعجبه حقاً:

- ما أروع الكلام من بضاعة. فهو لا يزن شيئاً في عنابر السفينة ويمكن أن يُغنيك إذا أحسنت مقايضته بالمال.

وإذ خشي أن يلتبس أمر تلميحاته على أخصائه فقد شرح قائلاً:

- هذا الرجل راوية! وسوف أستدعيه من أجل أسميات القواد. هل تعرف الملاحم القديمة «قورش» و«دارا»، ومآثر «الأخمينيين» و«بطولات سلالتنا»؟

- أعرف جيداً حكايات أخرى لم يسمع بها أحد قط.

- حكاياتك الأخرى لست راعياً فيها. إن رجالي لا يحبون الاستماع إلا إلى الملاحم التي يعرفونها. ولأقلى قصص الصيد. وإذا كنت تعرف شيئاً منها وعرفت كيف تجعلنا نعيشها من جديد فلن تعود خالي الوفاض.

- أقوالي لا أبيعها، بل أوزعها.

- لست، على هذا، تاجراً ولا راوية.

غضب الأمير غضباً شديداً لإساءته فهم زائره إلى هذا الحد، وغض رجال الحاشية من أبصارهم عندما دنا أحد الرجال، وكانت تزين وجهه الخالي من الغضون لحية شقراء مُسَرَّحة بعناية وهو يرتدي عباءة صفراء لامعة تخرج أذيالها على الأرض ويأقنها مطرزة بخيوط سوداء. وانحنى بثقة كاملة على «هرمز» فأسر ببضع كلمات في أذنه وعاد إلى مكانه.

- إن مستشاري الأمين، المويّدان «كردير» يقدر أنك أحد أتباع «الناصرى» الذين أخذوا يتضاعفون في نواحي بلاد (ما بين النهرين). وأنت جئت إلى (دب) لنشر هرطقتك فيها.

- لم آتِ إلى الأمير للكلام على الدين. فالأمر يتعلّق بمدينة...

وقاطعه «هرمز»:

- أريد أولاً أن أعرف إذا كانت نبوءة «كردير» صحيحة.

- لم يخطئء الموبذان الأجل إلا نصف خطأ. فأننا أجل «يسوع»، بيد أني أجل كذلك «بوذا» وسيُدنا «زرادشت».

وأجفل «كردير» وكأنه قد صُفِع. وخطا خطوة نحو «ماني».

- يا للوقاحة التي يسمح هذا «الناصرى» لنفسه أن يخلط بها اسم نبينا المقدس باسم الدجالين!

استأنف «هرمز» كلامه قائلاً:

- ليعد موبداننا الجليل إلى مكانه فلم يسع زائرنا بالتأكيد إلى إهانة أي كان. وعلى كل حال فقد انتهى النقاش، والمناظرات في الأديان تجلب لي النعاس والحزن. لقد مرّ بي يوم رائع، وأنا في أفضل حالاتي، وأظنّ أنه ما من شخص في حاشيتي يؤدّ أن يتعكّر مزاجي.

وإذ بادر جميع أفراد حاشيته إلى التأمين على كلامه فقد اندفع في سرد دقيق وملتهب لما جرى في صيد اليوم.

- قلت للحرس ابتعدوا واتركوا لي هذا الأسد فلا أريد أن يكون في جسده آثار غير آثار رمحي. وتبعته، وحدي. لم يكن يسرع في ركضه، وفجأة وقف وتحرك نحوي. وخافت فرسي فقفزت عنها إلى الأرض لتتمكن من الفرار.

«كنا وحدنا الآن، وجهاً لوجه، أنا والسبع. وتقدّم أحدهما من الآخر، بدواعة، ولم يكن أيّ منا يرغب في الإفلات من موت يمثل هذا القدر من النبل. أقلّ من ستين خطوة كانت تفصل بيننا. وعندها أقبل رفاقي، متجاهلين أوامري. يحيطونني برماحهم. وتوقّف السبع، ثم استدار وابتعد من غير أن يركض محتفظاً بجلاله. كانوا جميعهم يريدون الآن اللحاق به، غير أنني زعقت

بقوة فتسّمروا في أمكتهم: «أمنعكم من مطاردته، لقد كان يسير نحوي سِرّ
الباسل المقدام، ولم يتعد إلّا لأنكم أفسدتم مبارزتنا. دعوه يعيش!».

لم يكن «ماني» يتوقع مثل هذه النهاية للصيد الأميري. وكان ردّ فعله عفواً.
- ها هي ذي حكاية سوف أرويها لأهل (دَب) ! وسيعلمون على هذا أن في
وسعهم أن يرجوا من الغازي شهامة ورحمة، وأنه سوف يستحوذ على مدينتهم
من غير ذبح ولا تدمير.

وإذ كان «هرمز» لا يزال مستغرقاً في ذكرياته فإنه لم يصدّر عنه أيّ ردّ.
وكان المؤبدان «كردير» هو الذي أجاب «ماني».

- لقد كان الأسد راغباً في القتال، ولهذا استحقّ عفو الأمير. وأهل (دَب) لا
يرغبون في القتال، إنهم ليسوا سوى أغنام، وكالأغنام مصيرهم أن يُجزّوا
ويُدبحوا.

- إنهم تجار يُحطّر عليهم قانون «الإمبراطورية» حمل السلاح!

بهذا صاح «مالكوس» الذي كان يقف مع «باتيغ» على باب الخيمة، والذي
قلق بغتة من جراء مُنقلب المناظرة.

وسأل المؤبدان:

- ألم يكن للمدينة حامية؟

قال «مالكوس»:

- لقد رحل الجنود مع الحاكم!

- كان على الأهالي أن يستبقوهم، ألا يملكون ما يكفي من الذهب لدفع
أجورهم؟ لماذا ينبغي أن يُظهر الأمير الشهامة لهؤلاء التجار المدهنين البكائين؟

وسأل «ماني»:

- ورأفة الأمير بالأسد، الأسد هو الذي خرج منها مجيداً أم الأمير؟

وإذ طفا «هرمز» في نهاية الأمر على سطح أحلامه فقد أراد حقاً أن يوافق بهزة من رأسه على أن المجد قد كُتله هو. بيد أن «كردير» استأنف كلامه قائلاً:

- الأمير محارب، مثله مثل جميع أفراد السلالة الإثمية. وكل معركة هي بالنسبة إليه فرصة لإظهار قيمته. ولقد خيب أهل (دَب) رجاءه. فلم يستحقوا غير احتقاره.

واستقبل هذا التصريح في القاعة بعاصفة حقيقية من التهليل. ولم يفقه «ماني» شيئاً من ذلك الاندفاع.

- ها هي ذي مدينة تتقبل سلطة الأمير وتفتح له أبوابها وتستعد لاستقباله بالخضوع والطاعة وتقديم الهدايا إليه. ويراد لها العقاب! بيد أن الحقيقة أفلتت صافية ساذجة من فم «هرمز».

- مُد سار جنودنا وهم لا يفكرون في غير خيرات (دَب) وأسواقها ومستودعاتها ونسائها. وكنا في كل مرة كان عليهم فيها أن يقطعوا جبلاً أو صحراء من الملح نحدثهم عن (دَب).

- ولكن إذا فتحت المدينة أبوابها فلنَّ قانون «الإمبراطورية» يقضي بالآ تهنّب! بالضبط. لقد بدأ «ماني» يفهم في اللحظة التي كان يتحدث فيها بالذات. فلم يكن يؤخذ على تجار (دَب) جبنهم، بل حكمتهم. وبرفضهم القتال كانوا يجرمون النّهايين من الأسلاب! وما كان من شأن هذا إلّا أن يزيده شعوراً بأهمية ما كان يقوم به من مفاوضة باسم المدينة. ورفع صوته بالكلام:

- أبواب (دَب) مفتوحة، ولوسف تبقى كذلك. لقد رحلت الحامية، وما من حامية أخرى ستحل محلّها. ليس في المدينة قطعة سلاح واحدة، فحتى سكاكين المطبخ كُسرت! في وسع الجنود أن يدخلوا، وبإمكانهم أن يقتلوا وينهبوا وينتهكوا الأعراض ويحرقوا، إلّا أن ذلك سيكون خيانة تبعاً لقوانين «الإمبراطورية» ولقوانين «السماء». ولا يسعني أن أتصوّر لحظة أن يسمح بذلك أحد أبناء السلالة العظيمة الأبرار.

بدا التأثير على «هرمز». وتابع «ماني»:

- كل ما يرغب فيه أهل (دَب) هو أن تُحترم حُرَيَاتهم وتقاليدهم وأن تُحفظ أرواحهم وممتلكاتهم. ولا يَنْشُدون إلا العيش بسلام في كَنَف أمير مستقيم ومستنير. وهذه هي مصلحتهم، غير أنها مصلحة الأمير أيضاً. إن هذه المدينة هي جوهرة البلاد التي مهمته غزوها وحكمها، فلماذا يريد هدمها؟

وإذ شعر «كردير» بتردد سيده فقد أجاب:

- ليس من حق تجار (الهند) مساءلة أنفسهم عن استقامة أمرائنا، وأقل من ذلك عن مصالح «الإمبراطورية». لقد حارب الجيش ووعد بأن يكافأ، ومن العدل أن يحظى بالمكافأة.

وترامت من صف القواد صيحات بالمساندة. فأضاف المؤيدان:

- مهما يكن من أمر فتح (دَب) أبوابها وإخفاء أسلحتها فلإنها تظل مدينة من مدن الكُفر. لقد قامت جيوشنا المظفرة بالحملة لإخضاع المناطق الجاحدة ومعاقبتها وفرض «الدين الصحيح» عليها. وهذا حق وترغب فيه «السماء». سوف تُبذل (دَب) للجنود ثلاثة أيام، وتُهدم أمكنة العبادة جميعاً، ثم يُنظم احتفال بوقائع العفو عند المرفأ، كما أمر «أردشير» الأعظم، ملك الملوك، سيدنا جميعاً.

كان «هرمز» يعرف أن جدّه، ملك الملوك، يرغب في هذا الاحتفال، كما كان يعلم بتمنيات قواده. ولكنه هو نفسه لم يكن عديم التأثير بحجج «ماني» الذي كان يَنْشُد دعمه بشكل خفي:

- تبدو لي أقوال المؤيدان «كردير» معقولة، فما هو جوابك عليها أيها «البابلي»؟

- ينبغي أن أكون وقحاً جداً لكي أجرو على الإجابة، فلست إلا زائراً عابر سبيل، في حين أن المؤيدان هو، بالطبع، شخص مرموق لأنه يسمح لنفسه بأن يبين للأمير أين يُوَجّه جيوشه وكيف يتصرف في المدن المغزوة؟.

ووثب «كردير» ويده على قلبه :

- إذا كان جُرمًا أن يَمَحُضَ المرءَ ملكه النصيحةَ فلأُعاقبُ ! إنه لم يسبق لي يوماً أن تكلمتُ أو عملتُ إلا لخير السلالة الإلهية، وإلا لكي تمتدَّ «الإمبراطورية» وديانيتها تحت كل السموات وتسحقا جميع الأعداء بالأقدام وكأنتهم حَيَات وعقارب ومخلوقات مؤذية. ولن يدع سيدي، حفيد «أردشير» الأعظم، أحداً يُحَرِّضُه عليّ، ولا يكون أن كون قد نسي تعاليم «الأفستا» الحكيمّة. أليس مكتوباً في «الكتاب» بأنه يجب إبادة الذئاب ذوات القدمين قبل إبادة الذئاب ذوات الأربع بكتير.

وسأل «هرمز» بسداجة فائقة :

- أيّ ذئاب تعني؟

- إن الذئب ذا القوائم الأربع يشب على خروف لكي يلتهمه، ويستخدم الذئب ذو القدمين الكلام لإنامة حرص الراعي وسوّي القطيع بأكمله على درب الضياع.

وصحّح «ماني» بقوله :

- الذئاب ذوات القدمين هي الناس الذين يعتبرون الآخرين فرائس، الذين يَسْعَوْنَ باستمرار إلى الإخضاع والحدّ والمعاقبة والإذلال. لقد ارتفع اليوم صوت يقول إن سكّان (دَبّ) ليسوا سوى خرفان وأنهم يستحقّون أن يُذبحوا. أليس هذا بالذات كلام ذئب ذي قدمين؟ ألم يُعَبِّرَ الراعي الحكيم المقدّس «زرادشت» عمّا عبّر عنه في «الأفستا» وهو يفكر فيمن يَدْعُونَ إلى مثل هذه المذابح؟

- بالإجمال فإن كلاً يفسّر «الأفستا» على طريقته.

كان «هرمز» يسعى بهذه الملاحظة إلى أن يخفّف بعض الشيء من حدّة الهجوم الذي شُنَّ مباشرة على «كردير». إلّا أن هذا انفجر بالغضب :

- عن أي تفسير يُحكى؟ إنه سيكون من حقّ كلّ إنسان على هذا أن يفسّر النصوص المقدّسة على هواه؟ وعلى هذا يُقارن تفسير «ناصرى» خائن بتفسيرى؟ ألسْتُ أنا مَنْ درس مدّة ستّة عشر عاماً «ديننا الصحيح»؟ ألسْتُ أنا هنا من استودع ديانة «زرادشت»؟

- يحدث أن يظنّ امرؤ نفسه مُستودِعاً رسالةً في حين أنه ليس سوى نعشها.

لم يُرد «كردير» أن يُصدّق أن مثل هذه الأقوال يمكن أن تكون موجّهة إليه. فجعل أقرب الموجودين إليه يرُدّها له في أذنه قبل أن يتقدّم من العمود المركزي. وكان قد أعقب الصخب الذي أحدثته عبارة «مانى» صمت ثقيل. وقرأ ابن (بابل) في جميع العيون الإهانة والاستنكار. ربّما باستثناء عيني «هرمز» اللتين لم تكونا تُخلّوان من ومضٍ مأكّر. ومضٍ لا بدّ أن يكون المُوبّدان قد لمحّه لأنه ابتدأ بنبرة عتاب:

- هل يعلم السيّد آيّة حُثالة هم هؤلاء «الناصرىون»؟.

لن يملك الوقت للمتابعة. فقد شاءت العناية الإلهية أن يغطّي على مقاطعه الأولى عويل امرأة يافعة اقتحمت المكان وشقّت دائرة رجال الحاشية لترتمي عند قدّمي الأمير.

- أيها السيد! ابتك! ابتك!

- تكلمى يا «ديناغ»!

وأخذ يهزّ المرأة من كتفيها وقد خارت قواه بغته وكأنه صبيّ متعلّق بشوب أمّه.

- كانت تركض قرب الساقية فوقعت، بلا حراك.

- جُرحت؟

- لا، ليس هناك من دم!

- هل تتنفس؟

أكدت المرأة الفتية مُفَزَّعة:

- أجل. إنها تتنفس، إلا أنني لا أفلح في إعادتها إلى رشدها.

ظلَّ «هرمز» مهالِكاً على أريكته ناسياً كل جلال، وعقله في دوامة من كوابيس. ولاح لـ «كردير» أن اللحظة مؤاتية لمدِّ إصبع يحمل اتهاماً:

- الكفر الذي احترق هذا المكان يجتذب إلينا المصائب. لقد نُطق بكلمات فيها تجديف. وإذا حدث مكروه لابنة الأمير فسيكون الذنب الذنب هذا «الناصرى» اللعين الأعرج.

كان «هرمز» قد فقد كل تمييز وكلَّ إرادة. وكان كل أحد في حاشيته يعرف ما يكنّ من تعلقٍ بابتته. فقد ماتت زوجة الأمير الأثيرة وهي تضعها فمحض «هرمز» الطفلة كلُّ ما كان يشعر به من حبٍّ لأمها. وعليه فقد كان يكفي أن يُعين له «كردير» المسؤول المُفترَض عن شقائه لكي ينظر صوب «ماني» بحنق بالغ. بيد أن هذا لم يفقد ثقته بنفسه:

- أنا طيب. وبدلاً من استخدام مرض الطفلة في مناظرة دنيئة دعونا نحاول بالحري شفائها. ليُقَدني أحدكم إليها.

وإذ لم يرغب «هرمز» في إهمال أي رجاء فقد صحب «ماني» إلى سرير الطفلة.

كانت ممدَّدة وشعرها مضمفور بعناية فائقة وثوبها محتفظ بأمانة بطيَّاته حتى يُقال إنها ميتة. وكان صندوق أسيء إقفاله فبرزت منه دُمية مكسورة هو الوحيد الذي يُضفي على الغرفة لمسة من فوضى وحياة. تلك الغرفة التي لم تكن مع ذلك غير مقطوع من الخيمة الأميرية جعل لها بمثابة باب صفٍّ من الحبال الدقيقة مثقلة بالأصداف الملونة المرتفعة نحو دوايح عن الأرض. لكي تكون الأميرة وحدها القادرة على الدخول من غير أن تجعلها تُصلِّص.

وضع «ماني» خذّه على جبين الطفلة وجسّ نبضها، ورفع أحد أجفانها ثم طلب إلى المرأة الفتية التي دعاها الأمير «ديناغ» أن تقطع خمس قطع من القماش الأبيض النظيف، عَرَضُ كُلِّ منها قَدْرُ راحة اليد، وتُحَضَّرُ بضع قُبُصٍ^(*) من الكافور. وغاب هو ليقطف من خلال الأشجار والأجام سُوقاً وأزهاراً ونباتات طيِّبة وغِنبات اختارها واحدة واحدة متمهلاً في دعكها بين أصابعه للتحقق من طبيعتها.

وإذ عاد إلى الغرفة بهذا الحِمْلِ المختلف الأشكال والأنواع فقد أخذ يعجن الأعشاب حتى صنع منها عجينة بلون التراب ذرّ عليها الكافور بسخاء قبل أن يفرشها لزقات سمكة فوق الخِرْقِ التي طواها ومهدا وسطحها ووضع واحدة منها على جبين الطفلة مُغَطِّياً بها أذنيها أيضاً، ولفّ اثنتين أخريين حول المِعَصَمَيْنِ والأخيرتين حول نهاية القدمين لشدّ الإبهامين. ثم تناول إبريقاً وأسال منه خيطاً نحيلاً من الماء لتبليل الكمادات.

لم يكن أحد حوله ليجسر على إصدار أدنى صوت. وكان «ماني» كلما جفّت قطعة من القماش بلّلها بقليل من الماء، وعندئذٍ الإبريق بعد ساعة مدّه به يده إلى الأمير قائلاً:



- يجب ملؤه من ماء السُّلّ.

تناول «هرمز» الوعاء وناوله بحركة «أميرة طليعة»^{التي هي} الخليفة الذي كان واقفاً خلفه.

قال «ماني» الذي تكلم من غير أن يرفع عينيه:

- كلاً، من يد الأمير!

وإذ أخذت الساسانيّ الدهشة هنيهة فقد استعاد الإبريق وذهب يملأه بنفسه تحت عيون الجنود ورجال الحاشية المشدوهين. ولا بدّ أن يكون قد افترض أن

(*) القُبُصُ جمع قُبْصَة وقُبْصَة، وهي ما يتناوله الإنسان بأطراف أصابعه (المترجم).

الماء سيكتسب فضائل شِفائية إذا جمعت يده الأميرتان. وكان ذلك هو ما يُتَهامس به أيضاً في صفوف الحشد؛ وكان «مالكوس» واحداً من نفر كانوا الوحيدين الذين شكّوا في إمكان أن يكون التفسير غير ذلك. لقد سبق أن راقب صديقه في المدن التي زارها بما يكفي لكي يعرف أنه حين كانت امرأة متواضعة تقدّم له طاسة من الحساء وبَصَلَة كان يقبلها بعرفان، وحين كانت زوجة تاجر موسر تقدّم له أطعمة باذخة كان يُبدي القدر نفسه من العرفان وإن لم يلق سوى لقمة واحدة، ولكنّ في كلّ مرّة كانت فيها خادمة تمثّل حاملّة صينية كان «ماني» يُعيدها قائلاً: «اذهبي إلى أسيادك وقولي لهم أن يحملوا إليّ الصّدقة بأنفسهم لأنّهم من مباركتهم وشكرهم!».

وعلى ذلك فقد كان الماء الذي طلبه من الأمير يريد أن يحصل عليه من الأمير لا من خادمه!

وعاد «هرمز» حاملاً الإبريق بكلتا يديه. بِخَرَقٍ اصطدمت معه قدمه بأحد أعمدة الخيمة وتحرك أقرب رجال الحاشية منه لكي يسندوه محوّلين أنظارهم ما إن استعاد وضعه كيلا يلاحظ أنهم رأوه يتعثّر.

كان الوقت قد دخل الغسق، و«ماني» الجالس على ساقه المطوية إلى يسار الطفلة مستمرّ في مراقبة الكهّادات وتبليها ما إن تجفّ. وإذا كانت «ديناغ» جاثية بقربه فقد بدت قَلِقَة ومستعدّة على الدوام للنهوض إذا طلب منها ذلك. وكان «هرمز»، أشدّ الجميع تملُّلاً، جالساً بجانب الطفلة من الناحية الأخرى.

وفجأة، وفيما كان كلّ واحد محتبساً داخل الصمت، قال الأمير:

- نذراً عليّ إذا شُفيت ابنتي ألا أُسلم (دَبّ) للنهب. وسوف يُصان الأهالي والمنازل والأسواق وأمكنة العبادة وكلّ شيء. ولكنّ فلتسلّم ابنتي.

لم يتحرّك «ماني». وقال فقط بنبرة الدعاء نفسها:

- لَتَسْمَعْ «السماء» هذه الأقوال الحكيمة السخية!

ثم ران الصمت من جديد. وكانت الساعات تمضي، وعلى الرغم من

القلق فقد غلب النعاس حفيد ملك الملوك. واقترحت عليه «ديناغ» بصوت خافت أن ينال قسطاً من الراحة واعدة إيّاه بإيقاظه إذا اقتضت الحاجة. وتمدّد في مكانه متخذاً من مرفقه وسادة.

كان ضوء النهار قد أخذ ينقذ من حاشية قماشية مرفوعة عندما اعتدل «هرمز». وكانت ست ساعات قد مرّت و«ديناغ» جالسة في الوضع نفسه و«ماني» يفرغ آخر قطرة ماء على جبين الطفلة. وهمس الأمير:
- أتريد أن أملأ الإبريق من جديد؟.

قال «ماني» بصوت مرتفع:
- لا داعي. لقد استجابت «السماء» لك. وشفيت طفلتك.
وكانما كانت البنية تستجيب لندائه، فقد فتحت عينيها وابتسمت.
وسأل «هرمز» وهو ما يزال غير مصدّق:

- هل أيقظتها؟

- لقد أنمت مَرَضَها.

ومن غير أن يبدو «ماني» منفِعلاً بنجاحه رفع ظهر الطفلة ليربّحه فوق وسادة ضخمة، ثم رفع الكهادات واحدة واحدة وأعطاهما إلى الأمير.

- يجب رميها في السيل، في المكان الذي ملئ منه الإبريق.

أخذها «هرمز» فوق راحتيه المفتوحتين وكانها قُربان نفيس. كانت عيناه مغرورقتين بالدمع ولسانه معقوداً.

- احملها بيد واحدة يا هذا وخُذْ بالأخرى يد ابنتك الراغبة في مرافقتك.

لقد كانت الطفلة تقف من جديد ضاحكة مريحة متقافزة.

كانت تتعالى في الخارج تهليله موجهة إلى الأب وابنته، وكان «ماني» الذي لا يزال جالساً في المكان نفسه يُصغي إلى رَجْعها بحسبٍ وادعٍ . ويقربه كانت «ديناغ» قد أغقت منهوكة القوى . ولأول مرة استطاع تأملها . وكانا قد أمضيا ليلة بأكملها جنباً إلى جنب، وكان حضورها المتفاني اليقظ مُطمئناً جداً، وكانا قد تشاطرا القلق نفسه والأمل عينه . بيد أنه لم يكن بعدُ قد نظر إليها . بل إنه لم يلاحظ تلك الضفيرة الوحيدة، تلك الضفيرة الطويلة السوداء التي كانت الآن قد رمت بها إلى الأمام وكان طرفها يلامس رُكبته . ودهش «ماني» بمض الشيء إذ اكتشف أنها فتية جداً . فلم يكن يصدر عنها طوال سهرتها غير حركات خاصة بالبالغين . وأما الآن فكان أنفها وذقنها وشفتاها وكل ما في وجهها طفولياً ومُتمناً . ومرسوماً بعناية ودقة . والشيء الوحيد الذي كان يُخرجها من الطفولة هو صدرها الذي بدا أنه كبر بسرعة فائقة على القماش الذي كان يشده . ترى كم تبلغ من العمر؟ قال «ماني» في نفسه، ثلاثة عشر عاماً، وربما اثنا عشر .

وعلى مهل، ومن غير حركة خشنة قد توقظها، رفع لها رأسها وأراحه على وسادة مسطحة .

- ٦ -

انتظر «ماني» أن تخفّ هتافات الجنود ورجال الحاشية ليخادر غرفة الطفلة ويذهب لوداع الأمير، يتبعه بزهو «مالكوس» و«باتيغ».

- ليتبارك اليوم الذي ألقى بك في طريقي أيها الطبيب الباطلي.

كانت عينا «هرمز» لا تزالان حراوين من الانفعال، ولم يكن صوته قد استعاد طمأنينته.

- سأعطيك ما يكفي من الذهب لقضاء حياتك برمتها بعيداً عن العوز.

- لا أريد أي ذهب. وما دمت قد اكتسبت هذه القدرة على الشفاء فكيف كان في مقدوري أن أترك تلك الطفلة تنطفئ من غير أن أحاول شيئاً؟ وإذا قبلتُ مكافأة على مثل هذا العمل فسأشعر بأني غير جدير بعلمي.

- أنا من سيكون غير جدير بثروته لو تركتك تذهب بلا مكافأة!

- لا أريد شيئاً من خيراتك ولا من الأحماد التي في وسعك إغداقها. ومع ذلك...

توقّف بغتة وكأنّ نداء مُليحاً كان قد ترامى إليه فأخذ يتكلّم بما يُمليه عليه من بعيد.

- عندي مع ذلك طلب أتوجه به إليك.

- تكلم، إنه مُستجاب سلفاً.

- أريد ألطف بنات بيتك.

- «ديناغ»؟

- هي بعينها.

لقد دهش «هرمز» بالتأكيد وبدا جلياً أنه انزعج. ولكن كيف السبيل إلى وصف ردّ الفعل الصادر عن «مالكوس» و«دياغ»؟ نظر كل منهما إلى «ماني» وكأنما حلّ محلّه مُشعوذ يُشبهه تمام الشبه.

- قلت لك إني لن أرفض لك شيئاً، غير أن هذه الفتاة ليست من ممتلكاتي. إنها ابنة قائد كان عزيزاً عليّ ومات منذ أربع سنوات وهو يحارب إلى جانبي. وكنت قد دخلت برعونة قلب خطوط الأعداء فهرع لإنقاذي. وتمكنت من النجاة بجرح سطحي، وأما هو فقد لقي حتفه من جرّاء غلطي. وعليه فقد قرّرت كفالة ابنته الوحيدة التي كانت في التاسعة من عمرها وجعلتها في كنفِي وعاملتها بحنان. وإذا كانت تهتمّ بابنتي أحياناً فلأنهما متعلقتان الواحدة بالأخرى. بيد أن «ديناغ» ليست خادمة ولا أمة. وهي تنتمي إلى عشيرة «كارن» إحدى أكرم عشائر عرقنا. وفي أسرتها، كما في أسرتي، لا تُعطى فتاة ضدّ إرادتها. تُراها توافق على أن تتبعك؟

- أعتقد ذلك.

- هل قالته لك؟

- لم أطلب منها ذلك.

- ليؤت بها فأسألها بنفسِي.

بدا أن كل هنية انتظار كانت تزيد في حَرَج «هرمز» الذي أخذ يفكّر بصوت مرتفع:

- لقد زارني أخي الأكبر «بهرام» منذ عام. ورأى «ديناغ» التي أعجبت به فحدثني بأمرها. وإذ كنت أدخر لها في ذلك الحين مشاريع أخرى فقد أعجبت به بأنها لم تبلغ الحلم. وهذا صحيح، فلم تكن قد بلغت! ولكن عندما سيعلم «بهرام» أي تركت هذه الفتاة تذهب مع غيره فسوف يجد عليّ إلى درجة الموت. هو الذي ينظر من قَبْلِ هذا نظرة حسد إلى كل ما أملك. . .

ومع ذلك فقد بدا الأمير، في نهاية حوارهِ مع نفسه، مستسلماً:

- لقد أعدت إليّ طفلي التي من لحمي ودمي أيها الطبيب البابلي ودّيني لك لا حدود له. ولو أني كنت استطعت تسديده بكلمة بسيطة لخازن أموالِي، أفكنتُ أشعر بأنّي برأت ذمتي؟.

ما إن اجتازوا محيط المعسكر حتى انحنى «مالكوس» على «ماني». وكانت الأسئلة ملء خديهِ، بيد أنها كانت تُختصر في واحد:

- ما الذي سنفعله بها؟.

وأشار بحركة من رأسه إلى «ديناغ» التي كانت مطيئها خلف مطيئه مباشرة. وأجاب «ماني» بصوت جليّ لستمكّن من سماعه:

- سوف تذهب أني أذهب. وسيستضيفها هي أيضاً منْ يستضيفوني.

- امرأة! سوف يطرح الناس ألف سؤال.

- الناس يطرحون دائماً ألف سؤال.

- ذلك لأنهم بحاجة إلى أن يفهموا!.

يفهمون؟ إن «ماني» لم يكن قد سعى إلى أن يفهم. وذلك «الصوت» الداخلي أو السماوي الذي كان يتكلّم أحياناً على لسانه هو الذي جعله يطلب هذه الفتاة. ولقد أطاع. وجاءت «ديناغ» تنضمّ إلى قافلته.

ابتعد «مالكوس» في ذلك اليوم. ليعطي مكانه لـ «باتيغ». الذي كان يجترّ وساوسه الخاصة.

- أ تكون يا بنيّ قد عزمت على اتّخاذ زوجة؟.

اربدّ للحال وجه «ماني».

- لماذا يتّخذ الرجل زوجة إذا كان عليه أن يتخلّى عنها فيما بعد؟.

لم يكن للعبارة من جواب ولا جرؤ الأب على الدفاع عن نفسه. فهل سيبرّر تصرّفه مع «مريم» ورحيله عن (ماردين) بعد لقائه «سيتايي» في معبد «نبو»، ويذكر بالتلويح المقطوعة في بستان النخيل؟ لقد كان يعرف جيداً ما سوف يكون ردّ فعل ابنته. وعليه فقد فضّل أن يتنحّى بدوره.

عندها أقبلت مطيّة «ديناغ» تحبّ إلى جانب مطيّة «ماني». وكانا كلاهما يتطلّعان إلى البعيد. بدهشة وفرح. وينوع من الزهو أيضاً. وبدأ أن ابن (بابل) يستعيد فوق الحصان أصوله «البارتيّة»، ربّما بسبب ساقه الملتوية التي كانت تجعله، على الأرض، يظلل، ولكن تمجّده باليسر ما إن يكون على ظهر مطيّة. وكانت «ديناغ» تبدو أيضاً أكثر جمالاً وهي على الجواد؛ كان جذعها، وهو في العادة محنيّ بفعل خفّر المراهقة، يتصب ويتفتح. وكانت بشرتها الملفوحة وضفيريها الملقاة على كتفها وصفحة خدّها المشدودة إلى الأفق تضفي عليها هيئة مسافرة في السهوب. ووجه «ماني» بصره إليها وزادت مطيته اقتراباً. حتى لقد اصطدم مهمازاهما.

لم يكونا قد تبادلا بعد كلمة واحدة. وطال صمتها. إلّا أنه كان يعكّره من حين إلى آخر صيحات جنود المواكبة، أو بعض الصهيل.

وكان غبار المدينة قد بدأ يدوم في البعيد.

لم يكن من النادر مُدّ غادرت الحامية القديمة القلعة وأبراج السور أن يُرى أولاد (دبّ) مُصعّدين حتى درب الحراسة مدفوعين بلذّة الركض على طول

الطريق الدائري الذي كان قبلاً محظوراً، كما بالتحديق على مدى الأفق إلى ذلك الطريق الشمالي الذي كان مُقْتَرَضاً أن يُقبل منه المجتاحون. والحق أنه في ذلك اليوم أخذ غلام بالصراخ وهرع أهل المدينة وتسَلَّقوا أعلى المباني متدافعين وبأعداد كبيرة أُنذرت السقوف معها بالانخساف. كما تدافع الناس إلى الأزقة المجاورة لباب «باشكيور» الذي تُرك مفتوحاً على مصراعيه للتدليل على أن أية مقاومة لم تكن لتُتَوَقَّع.

سرت الشائعة بأسرع مما كان يركض الفرسان الذين كانوا لا يزالون على مسافة كبيرة. حتى إن ابنة الإسكافي العجوز الكبرى الشهيرة بحدة بصرها، وكانت قد سِقت إلى البرج المُشْرِف، لم تلمح خوفة ولا يَبَرَقاً. واكتفت بالتقدير بأن الأمر لا يتعلّق بعدد بالجيش الساساني، وإنما بمجرد فصيلة قد تكون من الكشافين أو حاملة امرأة عسكرياً.

والذي لم يكن في مقدورها تخمينه هو أن تلك العجاجة كانت الثلّة التي كلفها «مرمز» إعادة «ماني» إلى (دَبْ). وكانت تضمّ قائداً وعشرة رجال هم الجنود الساسانيون الأوائل الذين كان أهالي المدينة يلمحونهم منذ كانوا يعتبرون أنفسهم محاصرين ومجتاحين سلفاً وهم يرتعدون. وعلى كل حال فقد توقّف الفرسان على بُعد ثلاث مراحل من الأسوار وترجّل القائد لتحيّة «ماني»، ويمزيد من العجلة فعل رفاقه، قبل أن يعود إلى صهوة جواده ويستدير ويتعد من غير أن يتوقّف نظره لرؤية الناس أو المتاريس أو الباب المرحّب. الباب الذي اجتازه «مالكوس» و«پاتيغ» و«ديناغ» على مهل راكبين قبل أن يفسحوا الطريق لعبور بطل اليوم.

كان وصول العسكر القليل الصخب وتصرّفهم الموقر تجاه «ماني» ورحيلهم المُقْتَضِب آخر الأمر قد أثارَت في الحشد مَرَحاً ساخراً ناعماً عن عدم التصديق. فقد اقتلع الخوف لبرهة كما تُقتلع شوكة من الجلد. وعانق كل منهم أقرب شخص منه واغروروقت العيون بالدمع، وأخذ كل فرد يسيّج بحمد الرب الذي كان يعتقد أنه سبب المعجزة ويباركون جميعاً مَنْ بدا أنه الوسيلة لتحقيقها.

دخل «ماني» المدينة منتصب الهامة وادعاً وكأنه أمضى حياته جميعها في التخيل منتصباً وتجميع الغزوات المُظفَّرة. أفيكون ذلك لحظة متأخرة للدم الأميري الّذ كان هو وأبوه قد أنكراه باستمرار؟ وإنه كثيراً ما حمل المغرقون في التدين إلى الأنبياء أصولاً ملكيّة كما لو أن لطف «الساء» لم يكن يؤكّد وحده على «الأرض» شرعيّة كافية. أفلم يُنسب «يسوع» إلى سُلالة الملك «داود» و«بوذا» إلى سُلالة أمراء «الساقيا»؟ وسواء كان النبي ريباً مُجسّداً، أو، أفضل من ذلك، سليل حاكم لا يُعرف عنه شيء كثير، فينبغي الافتراض بأن بعض المريدين بحاجة إلى هذه الإضافات الهزيلة! وعلى الغرار نفسه، وإذا كان ينبغي تصديق المؤرخين، فإن «ماني» كان يحمل في ذاته منذ طفولته، وحتى في تقشّف بستان النخيل الخاصّ بـ «أصحاب الملابس البيضاء»، ذلك النعت الملكي الجليل الذي يُضفي السّوقار، تُراثاً بارزاً للملوك «الپارتيين» الذين امتدّت إمبراطوريتهم قديماً إلى (دَبْ). ولأ فكيف تجرّأ على مخاطبة حفيد «أردشير»، والرؤوس المتوجّة فيما بعد؟ وكيف كان في مكتته التبخر بمثل هذا اليسر في تلك المدينة المُحتضرة؟.

لقد تقاطر إليه أهل المدينة من جميع أحيائها نافذي الصبر لمساءلته من غير أن يسمح أي منهم لنفسه مع ذلك بمواجهته، ولا حتى الذين اعترفوا به، ولا حتى الذين كانوا قد استمعوا إلى عظته في الكنيسة. وافترض «مالكوس» أن صديقه كان يتوجّه ببساطة إلى منزل الوجيه المسيحي «بر-توما» الذي كان قد آواهم في الليلة الوحيدة التي قَضَوْها في المدينة. بيد أنه سلك طريقاً آخر، الطريق الموصل إلى مقرّ الحاكم السابق الذي عبر ميابه من غير أن تفكّر الميليشيا البلدية التي كانت تحرسه باعتراض سبيله. وهناك أيضاً، وفيما كان كل أحد يستعدّ لرؤيته صاعداً درجات القصر، ابتعد فجأة عن المشى المبلّط ليتقدّم خلال الحديقة بأنجاء شجرة توت أبيض، توتة ربما كانت، حسب زعم المُسنِّين، أقدم شجرة في الناحية، وكانت تتصبّ متوحّدة فوق تربة جافة جرداء، باسطةً في تلك الساعة نحو الشرق ظلّها الحائر.

ترجّل «ماني» ورفع ذراعيه كي يتوقّف الموكب ويتمكّن هو من المشي وحده

نحو شجرة التوت التي انحنى أمامها مُلصِقاً راحتيه بجذعها. ولقد قال إنه سيقضي هنا أيامه ولياليه ما بقي في هذه المدينة.

اقرب أهالي المدينة عند ذلك راسمين حالة حوله وتجّرات أقلّ الشفاه خجلاً على طرح الأسئلة المنتظرة: هل تحدّث إلى الغازي؟ أي صنف من الرجال كان «هرمز» ذاك؟ متى سيستحوذ على المدينة؟ ما المصير الذي يجبّئه لهم؟ هل في الوسع استئناف التجارة؟ هل ستُحترم العبادات؟

وأجاب:

- إن الأمير الذي استقبلي لا يخلو من حكمة ولا من تمييز. وهناك في كل إنسان شرارة مخبئة تحت الخوذات ومظاهر الزينة ودروع الزرد.

وإذا لم يكن «ماني» قد رغب في الوعد بشيء فقد أدخلت هذه الكلمات القليلة الطمأنينة على القلوب، وازدادت الإحاطة به. وما كان أغرب رؤية مدينة التجّار الموقرة هذه تتعزّى على هذا النحو بجوار متسوّل نزل في أرضها حديثاً! والحق أن أهالي (دَبّ) كانوا على يقين مشبوب بأنه، ما دام «ماني» هناك، مُسنداً ظهره إلى شجرته، وما دام يتحدّث ويصليّ ويسمح بأن تُخدمه أشدّ النساء تواضعاً، فلن يُهاجم مدينتهم أي جيش من جيوش الدنيا. وهكذا أخذت الحياة تعود شيئاً فشيئاً إلى أرصفة الميناء. وأخذ الناس يحملون ويُفرغون من جديد، ومن جديد راحوا يغامرون في الأسواق بزخرفة أماكن عرض البضائع.

أخذ أهالي المدينة يجتمعون ممّاك تحت شجرة التوت مختلطةً جميع طبقاتهم ومعتقداتهم. وهناك كانوا يتخذون قراراتهم ويحلّون خلافاتهم، وكانت أصواتهم تتحدّ أحياناً، ولكنّ كلمة من فم «ماني» كانت كافية لكي يرين الصمت وتُصيخ الأذان. وكان ذلك في الحقّ جمهور المستمعين المتعطّش إلى الحقيقة الذي طالما تهبّأ ابن (بابل) لخطب ودّه. وقد اتبغى أن يحضر إلى (الهند) ليلتقي به ويكتشف في هذه المرأة المتعدّدة السطوح صورته الخاصّة «رسولاً»:

- ليتبارك جميع حكماء الأزمنة الماضية والحاضرة والآتية، ليتبارك «يسوع» و«ساقيا - موني» و«زرادشت»، فقد أضاء أقوالهم «نور» واحد، وهو «النور» الذي يُشعُّ اليومَ على (دَبْ). ولن يكون من يتبع منكم تعليمي مُلزماً بهجر المعبد الذي صلّى فيه على الدوام، ولا المذبح الذي يمجّد عليه أرواح أجداده.

كانت أقوال «ماني» عذبة في أذان الناس المتسامحين في (دَبْ) التي كانت كثيرٌ من المعتقدات تزدهر فيها. وكان مَنْ تعلّقوا بأهداب دينه السّمح في أوقات المحنة هذه كُثُراً. بيد أنه ظهر بين الحضور في الوقت نفسه معارضون صعتهم أقوال «ماني» وأضاعت صوابهم:

- إذا كنت تقول ما قال «المسيح» أو «بوذا» فلماذا تسعى إلى إنشاء دين جديد؟

- إن الذي ارتفع في «الغرب» لم يُزهر أمله قطّ في «الشرق»؛ والذي ارتفع في «الشرق» لم يبلغ صوته «الغرب». أفينبغي أن تكتسي كلّ حقيقة ثوبَ مَنْ تَلَقَّوها ونَبَرَّتْهم؟

- أوافق أيها «المعلّم» على أن بعض المعتقدات تستحقّ أن تُحترم. ولكن ماذا عن الوثنيين، وعن عبدة الشمس؟

- أعتقد بأن يشعر ملك بالحسد إذا أنتِ قبلتِ حاشية ثوبه؟ وليست الشمس سوى وَثْنٍ على رداء «الله تعالى»، بيد أنه من خلال هذا الوَثْنِ المتألق يستطيع الناس أن يتأملوا «نوره» بشكل أفضل.

«ويظنّ الناس أنهم يعبدون الربوبية في حين لم يعرفوا قطّ منها غير التجليات، تجليات من خشب أو ذهب أو جصّ أو رسم أو كلمات أو أفكار.

- والذين لا يعترفون بأيّ إله؟

- إن من يرفض رؤية «الله» في الصُّور التي تُقدّم إليه هو أنّ رب أحياناً من غيره إلى صورة «الله» الحقيقية.

سئل يوماً:

- ما اسم الذي أنت «رسوله»؟

- أدعوه «مَلِك حداثق النور».

- أليس «الأب»، «القدير»، «الرؤوف»، «خالق» كل شيء؟

- كيف يمكن أن يكون رؤوفاً وقديراً في الوقت نفسه؟ أهو الذي خلق الجُذام والحرب؟ أهو الذي يَدْعُ الأطفال يموتون والأبرياء يُعَذِّبون؟ أهو الذي خلق «الظُّلُمات» و«سَيِّدَها»؟ وهل سمح بأن يوجد هذا الأخير؟ وإذا كان في وسعه أن يُلَاشِيه فلماذا لا يفعل؟ وإذا لم يكن يريد مُلَاشاة «الظُّلُمات» فلأنه ليس رؤوفاً؛ وإذا كان يريد مُلَاشاتها ولا يتمكن فمعنى ذلك أنه ليس قديراً.

وأضاف بعد سكتة قصيرة:

- لقد عُهِدَ بـ «الخالق» إلى الإنسان. وإليه يرجع قبل أيّ كان أن يجعل «الظُّلُمات» تتقهقر.

كانت قد انقضت عشرة أيام على وجود ابن (بابل) قرب شجرة التوت عندما استولى الجيش الساساني على (دَبْ). ولقد انتشر على أبوابها وفي أبراج السور وعلى أرصفة الميناء وفي شوارع الأسواق. من غير قتل ولا نهب. ثم أتى «هرمز» يُقيم مع حاشيته في مقرّ الحاكم السابق.

ولقد استدعاه «هرمز» في الواقع على عجل ذات ليلة. وكان «ماني» لا يزال ساهراً مستنداً بظهره إلى الشجرة؛ وأعانه ضابط الخدمة على النهوض بجذبة من يده؛ وكان يحمل بالأخرى مشعلًا.

كان مع الأمير كاتب رفيع المقام.

- إنه «نَم - فِه» رَجُلِي الثقة. لقد وصل من (المدائن).

وابتدر الكاتب:

- لقد حلّت بالعالم طامة كبرى. إن سيدنا جميعاً، «أردشير» العظيم، ملك الملوك، الإله بين الناس، والإنسان بين الآلهة، قد رحل للقضاء الملوك الأماجد...

وقاطعه «هرمز»:

- مات جدّي.

كان هلعٌ قد خبا في عينيه. وارتسم في عيني «ماني» طريق العودة.

* * *

لم يكن لقاء هذا الأمير الساساني بلا غدٍ. بل كانت علاقةٌ قد وُلدت بين «ماني» وأقوى أسرة حاكمية في زمانها، علاقةٌ سوف تتسم بالاضطراب والحدة، والقسوة في بعض الأحيان. وستكون على الدوام مُلتبسة، كما ينبغي أن تكون العلاقات بين حَمَلَة الأفكار وحَمَلَة الصولجانات.

ولسوف يرتبك بفعلها وجودُ ابن (بابل). ولكنَّ وجود «الإمبراطورية» أيضاً.

القسم الثالث

بجوار الملوك

قَدِمْتُ من بلاد (بابل)
لأَجْعَلَ صِيحَةً تُجْلَجَلُ
عَبْرَ الدُّنْيَا.
«ماني»

بينما كان «ماني» بانتظار دوره لدخول قاعة «العرش» لم يكن قادراً على انتزاع عينيه عن الباب الضخم الذي اصطفت أمامه اللبدات القانية الحمرة التي كان يعتمرها رجال الحرس. ألم يكن ذلك الباب هو الذي ذكره «توامه» عندما كان يتحدث عن غزو (المدائن)؟ وعليه فقد انبغى أن يذهب إلى ضفاف «السند» ويلتقي ذلك الأمير الساساني ويشفي ابنته ليحصل على كتاب التقديم هذا الموجه من «هرمز» إلى أبيه «شاهبور» سيّد «الإمبراطورية» الجديد...

وفي المدخل ترك لهم أن يصفوا له مرة ثانية مراسم الاحتفال. وكانت تتردد على شفتي المكلف بالمراسم كلمة وكأنها تعزيمة، وهي «بادهام». هكذا كانوا يسمّون في أيام «الساسانيين» المنديل الأبيض الذي كان على أي شخص يقترب من الأشياء المقدسة أن يضعه على فمه خوفاً من أن تتلوّث بنفس إنسان غير مخلّد؛ نفس كاهن وهو يقيم احتفالاً دينياً أمام هيكل النار، أو نفس كل إنسان يتحدث في الملأ إلى شخص ملك الملوك.

وعليه فقد كان رجال البلاط يحتفظون على الدوام بـ «بادهام» في أردانهم، ويجد الزوّار أنفسهم يُزودون بواحد يقدّمه إليهم وجهاء القصر وينهمكون في الوقت نفسه في تعليمهم إشارة الإجلال، سبابة اليد اليمنى ممدودة إلى الأمام، نحو الأعلى، ومحنية قليلاً. ويلقّنونهم العبارات المتقبّلة. ففي (المدائن)، كما في

(مصر) أيام الأسر الحاكمة، وكما في (روما) على كل حال، وإن بنمط أكثر إفراطاً في الدقة، كان العاهل معظماً. ولم يكن في وسع المرء وهو يخاطبه أن يستخدم اسماً ولا لقباً. وكان هناك عبارات مخصصة له ولا يُفترض أن يجيد عنها إنسان، «أنتم، أيها الأشخاص الربانيون!»، أو «أنتم، أيها الآلهة الخالدون!»، أو على الأقل «أيها الإله!».

كانت كل رتبة في تسلسل رجال البلاط تهدف إلى توسيع الهوة بين الملك وسائر الأحياء. وكان كل شيء يُسهم في صنع هذه الصورة للقدرة غير البشرية، وللمظهر السماوي، وللخلود. وكانت القبة في قاعة العرش من الارتفاع بحيث يُخيل أنها بُنيت لجمع من العمالقة. ومهما سما البصر على امتداد الجدران فإنه لم يكن يلتقي سوى ستائر الزينة، فلا قَدْر لإبهام واحد يشي بعُري السطوح الأصلي.

ولم يكن في صدر الحجرة الفسيحة سوى منصة يحجزها ستار توزعت حوله جماعة رجال البلاط. فعلى بُعد عشر أذرع الأشخاص ذرو الدم الملكي؛ وأبعد منهم بعشر أذرع أخصّاء «شاهبور»، ملك الملوك، مؤاكلوه ومستشاروه المقربون، والأعيان الدينيون من شارحي «الأقستا» وقارئيهما، وكذلك بعض العلماء والمنجمين والأطباء الذائعي الصيت؛ وعلى بُعد عشر أذرع أخرى كان مؤنسو الملك من مُهرّجين وحواة وبهلوانات وراقصين، وجميعهم أشخاص معتبرون في البلاط الساساني أكثر من المعمارين والرّسامين والشعراء؛ ولم يكونوا يُقاسون مع ذلك بالموسقيين. فقد كان مؤلفو الموسيقى وسادة الآلات المُعترف بفضلهم يُعاملون، تبعاً لرغبات مؤسس السُلالة التي اتخذت صفة القوانين، على قدم المساواة مع الأمراء الملكيين، وعليه فقد كانوا يجلسون على بُعد عشر أذرع من الستار، ولكن إلى اليسار. وخلفهم كان يجلس الموسيقيون والمغنون من الدرجة الثانية، ثم، على بُعد عشر أذرع أخرى، جماعة العازفين على العود والزند والطنبور.

ولبعث النشاط في الحضور المسترخين كان قرع طبول يسبق الصبيحة

التقليدية : «أيها الناس، ليحرص لسانكم على حفظ رأسكم، ف «سيدكم» وسطكم. » ثم تمتد أيدٍ خفية لإزاحة الستار فيما يعزف موسيقى الصف الأول النغم المخصّص لليوم وهولن يُسمع قبل اليوم نفسه من العام المقبل.

وخرّ كل إنسان ساجداً وجبينه إلى الأرض بانتظار أمر جديد يسمح له برفع عينيه : لقد كان الملك هنا وثناً بلا حراك، كتلة مُفرطة مُعشّية من ذهب؛ ذهب منسوج مع الثوب والوسادة والستائر، وذهب خالص في العرش، وذهب مجدول عقوداً وخواتم ومشابك؛ وكانت اللحية نفسها مرشوشة بنشار الذهب الباهر الذي كان يتلأل أيضاً على الشفتين والأهداب والحاجين.

وكان بالإمكان أن يُرى فوق الملك التاج الأسطوري الذي يزن أكثر من زنة رجل وما كان أي رأس قادراً على حمله، حتى وإن كان رأساً إمبراطورياً. غير أنه كان ينبغي الاقتراب منه لاكتشاف أنه مربوط بسلسلة دقيقة تُثبت حلقتها في القبة. حتى إذا انسحب الملك ظلّ التاج معلّقاً وكأنما بمعجزة فوق العرش الخاوي؛ فالبشر المؤهّون يشيخون ويمضون وتبقى الجلالة.

كان الوهم من بعيد كاملاً، فلم يكن يُشاهد غير كائن خرافي غير معقول ومولود من جميع ما يُفزع البشر ويثير حسدهم المرّضي، ظهور فخم يبعث على التحجّر ويخلب اللب ويفرض الخضوع والامتثال.

وكان ذلك الوحش الخرافي هو الذي أتى «ماني» يروّضه.

لم يكن ابن (بابل) يكفّ في هذا الوقت عن أن ينسخ في ذهنه كل خطوة أو حركة، وكان يحفظ عن ظهر قلب الكلمات التي عزم على النطق بها، ولا سيما الأولى، كلمات لحظات الطيش، تلك التي يُهمّهم بها في العادة تحت أنظار المحققين، وهذه، من بين جميع أهمّ الكلمات، كان يمضغها ويُعيد بلا توقّف وبنزق.

ثم صاح صوتاً باسمه. والتفت ليتأكد من أنه كان قد أحسن السمع. وكان الوقت قد فات، إذ فُتح الباب وكانت يدٌ قد دفعته، فالويل لمن يجعل «شاهبور» الإلهي ينتظراً وتقدّم «ماني» فوق البساط المطرّز الجانبيين الذي يقود

إلى درجات العرش، ولكنه كان يشعر بأنه قد ضلّ لفرط فقده كل مفهوم من مفاهيم المسافات. وتخيّل إليه أن الملك كان قريباً. القُرب الذي يمكن أن تكون عليه شمس (ماردين) قريبة إلى حدّ الانبهار، إلى حدّ اللّغح، ومع ذلك فقد كان الطريق الناعم الملمس الذي يقود إليه يسدو بلا نهاية ووعراً ومُنحديراً، وكان يُطوى بانطباع من البطء الشديد واللّهات والضيق. وأصبح الوقت وقت ريب وندم. ندم على أنه لم يُصنغ إلى نصائح «مالكوس» الرشيدة وهو لا يزال يتوسّل إليه حتى مدخل القصر أن يعدل عمّا هو بسبيله. ندم على أنّه لم يبقّ مخبئاً في بستان نخيله «مثل عرق بخور مريم بين الحجارة» كما كان يقول «سيتايي». وكان قد مرّ على ذلك عامان. عامان، إنها الأبد! وتذكّر «ماني» ذلك، بيد أن ذكرياته كانت مُثقلة بالضباب وكأنها كانت تنتمي إلى حياة سابقة.

واستحضر «توأمة»، «صنوه»، فليظهرا بحق الرحمة! لقد كان بحاجة إلى التأكّد من أنه هنا، معه، وأنه يسير إلى جانبه على طريق الامتحان هذا، وأنه سيأخذ الكلام عنه إذا خانه فمه هو. «احتفظ بدّعتك يا «ماني»، وأنس الذهب وعدّ عن البذخ، لا تدعْ أبداً إنساناً يتهرك، ملكاً كان أو نبياً. لقد استودعه القدر ما استودعك وما استودع كلّ أحد. والمهمّ هو إدراك ذلك. فبعد ألف عام لن يتحدّث أحد عن «شاهبور» إلا لأن دريك كان قد اجتاز ببلاطه».

وصل آخر الأمر إلى محاذاة الحاجب. وأشار إليه هذا أن يخزّ إلى الأرض، ثم هس إليه أنه قد سُمح له بالنهوض. وسحب «ماني» من رُذنه الـ «بادهام» النظيف قبل أن يتكلّم.

ـ المجد لأقوى الناس! ولتُسجَب أكرم أمانيه!.

لم تكن العبارة مستعملة فقطّب صاحب الرفعة حاجبيه وارتعد وجه الملك السامي بدهشة خاصّة بيني البشر. بيد أن شيئاً ممّا قيل لم يكن خارجاً على التبجيل. ودُعي «ماني» آخر الأمر بحركة إلى تقديم نفسه.

- إني طبيب من بلاد (بابل).

- لقد أرسل إليّ ابني الحبيب كتاباً مجيداً بحقّك. يبدو أنك عرفت كيف تروق في عينه.

- شاءت «العناية» أن أشفي ابنته التي كان يظنّ أنه فقدوها.

- كيف تطبّب؟

- بالكلمة وبالنباتات.

- والسكين؟ والنار؟ والعلّق؟

- سواي أمهر مني فيها.

لم يكن «ماني» ليدري أن كلمة «علّق» كانت شركاً نظراً لكره «شاهبور» الشديد لهذه الطريقة في العلاج ولمن يستخدمونها. وإذا اطمأنّ العاهل إلى هذه النقطة فقد تابع قائلاً:

- لوّح ابني كذلك ببعض الأفكار التي ترغب في نشرها.

- لقد أوحى إليّ برسالة.

تعالت غمغهمات في صفوف رجال الحاشية، غير أن أحداً لم يجرؤ على استباق ردّ فعل الملك الذي كان بانتظار أن يُكمل «ماني» كلامه. وإذا طال انتظار بقية القول فقد سأل زائره ببادرة انزعاج:

- أية رسالة؟ إننا مُصغنون إليك.

- لقد بدأ عصر جديد، وهو يستلزم ديناً جديداً، ديناً لا يكون لشعب واحد ولا لعرق واحد ولا يقتصر على إرشاد واحد.

لم يكن «ماني» بحاجة قطعاً إلى تحديد الشعب أو العرق أو الإرشاد المشار إليها تلميحاً في حديثه. ولوّح منديل بين وجهاء الصفّ الثاني.

- لقد سبق أن قابلت هذا الرجل!

كفى «ماني» أن يلتفت ليلمح في حشد الكهنة لحية «كردير» الشقراء.

- إنه «ناصرى» وألذ أعداء ديانتنا. ولقد اعترض سبيلي عندما كنت في (الهند) بقرب جيشنا المظفر. ولقد أمرني سيدنا الإلهي «أردشير» بإشعال نار كبيرة مقدسة في تلك البلاد للاحتفال بنصر الأسرة المجيدة وخنق أصوات الكفرة. بيد أن هذا «الناصرى» قد ضاعف الإساءات لمنعي من إنجاز ذلك العمل التقوي.

لقد فاز «كردير». فقد كان في وسع الحضور بعد الآن أن يُبدوا ما لحق بهم من إهانة بسبب موقف هذا الطبيب البابلي من المرحوم ملك الملوك. ومن بين جميع الذين كانت عيونهم مُسلطة الآن على «ماني»، بدا «شاهبور» أقلهم عداوة، وواحدًا من الندرة التي لا تزال مستعدة لسماع دفاعه عن نفسه. وتابع «ماني»:

- لست هنا إلا لإبلاغ أول الناس رسالة. لقد أضفت «السماء» على حكمه من الثقل أكثر مما منحت جميع آرائنا. وحبذا لو تلقى كلماتي بدعة من غير أن يدع مجالاً للعداوة التي يريد بعضهم إحاطتي بها كي تلهيه عن ذلك!

- إذا كنت قد وافقت على استقبالك فذلك للإصغاء بالطبع إلى بلاغك. لك أن تتكلم.

- لقد اتسعت «إمبراطويتكم» في الغرب فشملت بلاد (آرام) والـ (أديابين) والـ (أسروان) [يعرفها العرب باسم (الحيرة)]، حيث «الناصرىون» كثر، وفي الشرق (الباكتريان) [تقع شمالي أفغانستان وعاصمتها (بلخ) وهي موطن «زرادشت»] و(الهند) و(طوران) حيث يُعبد «بوذا». وغداً يمتد حكم الأسرة فيشمل نواحي ليس من عادة أهلها عبادة «أهورا - مازدا»، وسيكون فيها ما لا يُحصى من الرعايا الذين يذعنون إلى جميع أنواع المعتقدات، فهل من الحكمة إذلالهم إلى حد تحويلهم إلى خوثة؟ فمن يكون أفضل حليف إذن للأسرة، الذي يسعى إلى أن يضم الناس إليها أم الذي يجلب لها حقد رعاياها أنفسهم؟

كان بالإمكان أن يُرتاب من خلال قَسَمات الملك في إرهاب بالموافقة فبادر «كردير» إلى تبديده متهكماً:

- خير حليف للأسرة! إني في حضرة سيّدنا الإلهي، وأراي مضطراً إلى أن أشرح كيف يكون عابد «أهوار - مازدا» حليفاً للأسرة خيراً من «ناصرّي»! وإذا كانت القلوب لا تسمع قطّ كلمات التورية فهل أُمْنَح حرية الكلام بلا موارد؟ لقد وقع في يدي بعض النصوص التي يروّجها «الناصرّيون» في مدن «الإمبراطورية»؛ ونُقلت إليّ أيضاً بعض الأحاديث التي يتناقلونها في اجتماعاتهم. فهل يرغب سيّدي الإلهي في معرفة الصيغ التي يتحدّثون بها عن ديننا وقوانيننا وتقاليدينا وسلالتنا؟ إن هؤلاء الناس يزعمون أن اللعنة نازلة بكل نسل «الساسانيين».

لم يكن «شاهبور» ليوافق على التلقّظ بمثل هذه الأقوال حتى وإن كانت منسوبة إلى «الناصرّيين» فشَدّت يده على مقبض صولجانه. ولم يُظهر «كردير» أي هلع وتابع بصوت أكثر جهورية وأشدّ حقناً، ولكنه حقن مُتَحَكِّم به.

- ألم يبحي في «الأستا» أن البهاء الإلهي يصاحب الـ «خفيدوداه»، زواج الأخ من الأخت الذي يمحو الخطايا المميتة ويطرّد الشياطين؟ أليس مكتوباً فيها أيضاً أنه ما من عمل ورع أحب إلى «السماء» من ذلك؟ ألم نتعلّم أنه اقتداء بـ «دارا» العظيم، كان على جميع ملوكنا الإلهيين، كما على الكهنة والمحاربين، أن يتزوجوا بأقرب الناس إليهم، أختهم أو بنتهم أو أمهم حين تترمل؟ ألم يجعل سيّدنا الإلهي من أخته الملكة الإلهية «أزور - أناهيت» زوجة يؤثّرهما على جميع أزواجه؟ ليُعلّم إذن أننا جميعاً هنا منذرون في نظر «الناصرّيين» لـ «جهنم»، وسيّدنا الإلهي نفسه، وكذلك الملكة الإلهية أخته، لأن ما هو عندنا تقوى رفيعة هو عندهم فظاعة ما بعدها فظاعة.

كان «كردير» يجازف برأسه وهو يتلقّظ بعبارات بمثل هذا القدر من عدم اللياقة. غير أن جسارته أثمرت. فقد حنّ كل أحد معنى الغضب الذي انتفخ به الآن وجه الملك وقَدَّر مَنْ سيكون ضحيّته.

- أيها الطبيب البائلي الحقيق، أهذا هو الشعور الذي تكُنّه للإلهيين من أسرتنا؟ لسوف تلقى المصير الذي تُعدّه شريعتنا للمُجذّفين!.

هرع الحرم للإسك بالمذنب. وعندما شعر «ماني» بأيديهم الفظة تحطّ فوق ذراعيه وكفّيه خيّل إليه أن جميع الصور تختلط من حوله. وإذا كان بلا حَوْل وقد أخرسه الرعب فقد أحسّ أنه على وشك أن يُغمى عليه. فكرة واحدة أبقتة واقفاً على قدميه: إن «الثَّوَام»، رفيقه السماوي لا يمكن أن يتخلّى عنه في هذا اليوم! وأغمض عينيه باحثاً عن مَلَمَح وجهه المُطمئن.

انتشرت فجأة جلبة تخالطها ضحكات شبه مخنوقة. لقد كان التوتر الشديد الذي ناء بكلّكله على القصر قد بدأ يتلاشى وكأنما بمعجزة. فقد أخذ «بادهام» يتحرّك، وبدأ أن منظره وحده كان كافياً لفرج أسارير «شاهبور».

- ليقرب «جوفانويه» الأبدّي الشباب!.

انعكس مرح الملك المفاجئ للتوّ على جميع الوجوه. باستثناء وجه مَنْ كان يعنيه الأمر وما كان قطّ ليستسيغ ضحكات الهزء التي كانت تثيرها كل مداخلة من مداخلاته. وإذا كان مؤدّب الملك منذ طفولته فقد شغل منصب عميد كهنة البلاط حيث لم يكن أحد ليفكر في التشكيك بسعة علمه ولا بهتّماسك وعيه المُقيم. وما كان ليسيء إليه غير هذا الاسم، «جوفانويه»، «الفتى»، الشديد الانتشار في صفوف النبلاء والكهنة، بيد أنه شديد الإرباك فوق كتفي رجل في التسعين من العمر. وعليه فقد اتّخذ مهرج الملك من الكاهن الشيخ غرضه الأثير محاكياً بشكل رائع صوته الأجشّ ومشيته المخروطيّة والحركة الرقّاصة التي ترسمها لحيته الشبيهة بالقطن وفوضى أصابعه المعروقة. ولم يكن في وسع أي من رجال البلاط قُدّر له خلال السنوات العشرين المنصرمة أن يقاسم «شاهبور» أمسية واحدة من أمسياته إلا أن يستدعي في ذهنه إلى جانب صورة المؤدّب الجليل صورة المهرج الذي لم يكن أحد على كل حال يتذكّر اسمه لفرط ما اعتاد الناس على أن يُلصقوا به اسم ضحيّته.

ابتسم التلميذ الأجلّ كما فعل كل الناس، ولكنه ما كاد «جوفانويه» يتكلّم

حتى قُطِبَ حاجبيه ليفهم الجميع بأن فاصل المزاح كان قد انتهى .

- لقد حظيت على مدى حياتي الطويلة بامتياز تذكير سيدي الإلهي بالصفات التي ستجعل منه ملكاً عظيماً على شاكلة أعجد أجداده، حُسن التدبّر وسلامة الحسّ وقوّة العفو وحبّ الرعيّة والحبور والسخاء والعدل... .

ونفذ صبر «جلالته الإلهية» - وما كان ليجهل شيئاً من القائمة التي لا تنتهي - فقال :

- لم أنس .

- لقد اتهم هذا الرجل البابليّ بأمور خطيرة تستحقّ العقاب . بيد أنه إذا رفض سيدي أن يُعتَبَر طاغية في عين الأجيال القادمة فمن واجبه أن يُصنّف إلى دفاعه . تلك هي شريعتنا ! .

غمر «شاهبور» مؤدّبه بنظرة فيها حنان ووثوق . ثم استدعى بهزّة كتفين مريحة أحد أمناء السرّ :

- اكتب أي قرّرت في هذا اليوم خلع خلعة سنّية على الكاهن «جوثانويه» المبجل الذي جنبني اقتراف ظلم لا يليق بسلالتنا ! .

وفيا كان المؤدّب العجوز المشرق الوجه يطلع القهقري للعودة إلى مجلسه ، التفت العاهل إلى «ماني» قائلاً له إنه جاهز الآن لسماحه على الرغم من أن الجلاد لا يزال في تناول الصوت .

أفلتت كلمات ابن (بابل) وكأنها أنفاس من نجا من حادثة .

- لم يفعل الكاهن المحترم «كردير» وهو يسعى إلى معارضي سوى أن دعم أقوالي بأدْمَغ الأمثلة . إن كلّاً منا يشعر بالتقلقل والتهديد والمهانة ، وبحسّ كل واحد الآن إلى أي حدّ يمكن أن تُقيّد الأحقاد الدينية وجوده ووجود «الإمبراطورية» . وأنا نفسي ينبغي أن أكون في مثل اضطرابكم كلّكم ، فانا من

نسل «الهارتيين»، وطالما مارس أجدادي الزواج بين الأخ والأخت إخلاصاً
للتقاليد ورغبة في إتيان عمل محبب إلى «السماء».

«نعم، إن «الناصرين»، يأفنون من هذه الزيجات التي يسمونها زيجات من
المحارم. ومع ذلك فإنه مكتوب في «توراتهم» أن الله قد خلق الرجل الأول
والمرأة الأولى، وأنه منها وحدهما عمرت «الأرض». فلقد انبغى إذن أن يتزوج
أبناء هذين الزوجين الأولين! والبشرية كلها مستمدة من زيجات من المحارم.
وعليه فإن في وسع حملة «الافتسا» أن يسخروا بدورهم من حملة «التوراة».
ولكن لم هذه المشاجرات، وهذه اللعنات، وهذه السخريات؟ إن لكل شعب
تقاليد دُوت في شرائعه وينسبها إلى المشيئة الربانية. أف تكون هذه المشيئة مختلفة
بالنسبة إلى كل شعب؟ الحقيقة أننا لا نعلم شيئاً عن المشيئة الربانية، ولا
نعرف شيئاً عن الربوبية، لا اسمها ولا ظاهرها ولا صفاتها. ويطلق البشر على
«الله» ما لا يخص من الأسماء، وكلها صحيحة، وكلها أيضاً باطلة. فلو كان
«له» اسم لما أمكن أن يكتب بكليتنا، ولا أن نتلفظ به أفواهنا. يُقال إنه غني
وقوي. والغنى والقوة ليسا صفتين إلا على مستوى الناس، ولا يعينان شيئاً على
مستوى «الله». وتنسب «إليه» أيضاً رغبات ومخاوف وحالات سُخط وغضب،
ويقول بعضهم «إنه» يغار من صنم وتسوءه حركة ويهتم بطريقة كلامنا وعُطاسنا
ولُبسنا وعُربنا. وأنا، «ماني»، جئت أحمل رسالة جديدة لجميع الشعوب.
وكان أن توجهتُ أول ما توجهتُ إلى «الناصرين» الذين قضيت بين ظهرانيهم
طفولتي وشبابي. وقلت لهم: اصعدوا إلى كلام «يسوع» فهو حكيم وطاهر،
ولكن اصعدوا أيضاً إلى إرشاد «زرادشت»، واعرفوا كيف تجدون «النور» الذي
أضاء داخل نفسه قبل جميع الناس عندما كان العالم بأسره سابعاً في الجهل
والرسوسة. وإذا قلّرت لأملي أن يتتصر يوماً فتكون نهاية الأحقاد.

«وعليه فإني ألثقتُ إلى الكاهن «كردير» وأقول له بالاحترام الذي هو أهله،
لقد أجدتُ وصف الداء الذي يهدد «الإمبراطورية»، وأنا وصفتُ الدواء. لقد
تحدثتُ حديث مريض وتحدثتُ حديث طبيب.

قال الكاهن :

- إن هذا الرجل ماهر في إنامة شكوكونا . بيد أنه لم يعترف بعدُ إلى أيّ دين ينتمي .

- أنتمي إلى جميع الأديان ولا أنتمي إلى أيّ منها . لقد لُقّن الناس أن عليهم أن ينتسبوا إلى عقيدة كما ينتسبون إلى عرق أو قبيلة . وأنا أقول لهم إنهم كَذَبُوا عليكم . اعرفوا أن تجدوا في كل عقيدة ، في كل فكرة ، المادة المنيرة وأزيجها القشور . وَمَنْ يَتَّبِعْ سبيلي يستطيع أن يتהל إلى «أهور - مازدا» وإلى «ميترا» وإلى «المسيح» وإلى «بوذا» . وسوف يأتي كل إنسان بصلواته إلى المعابد التي سأشيدّها .

«إني أُجِلّ جميع المعتقدات وتلك هي جرميتي بالتأكيد في عيون الجميع . فالمسيحيون لا يسمعون ما أقول من خير عن «الناصرتي» وياخذون عليّ عدم الكلام بالسوء عن اليهود و«زرادشت» . ولا يسمعون المجوس حين أمجّد نبيّهم ، ويريدون أن يسمعونني ألعن «المسيح» و«بوذا» . ذلك أنهم عندما يجمعون القطيع فإنهم لا يجمعونه على الحبّ بل على الحقد ، ويجدون أنفسهم متضامنين فقط في مواجهة الآخرين . ولا يعترف بعضهم بأخوة بعض إلا في المحظورات وأعمال الحرم . وبدلاً من أن أكون أنا ، «ماني» صديق الجميع لا ألبث أن أرى نفسي عدوّ الجميع . وجرميتي هي رغبتني في مصالحتهم فيما بينهم . ولسوف أدفع ثمنها . ذلك أنهم سيتحدّون إلّغني . ومع ذلك فإنه عندما يملّ الناس الطقوس والأساطير والنهائم جميعاً فسوف يتذكّرون أنه في يوم من الأيام ، في العهد الذي كان يحكم فيه «شاهبور» العظيم ، رجّع كائن بشري متواضع صرخة في أرجاء العالم .

لقد سَقَطَ في يد الملك .

- هل سيكون للديانة التي تريد نشرها هياكل وكهنة ؟

- سيكون لها أماكن عبادة و«مختارون» . وسوف ينصرفون إلى الصلاة

والتعليم، إلى الفن والكتابة، إلى ممارسة العدالة، كما يفعل كهنة اليوم. شرط أن يستنكفوا مع ذلك عن الصبوة إلى الغنى أو المجد أو النفوذ.

لقد أثار هذا التحفظ لدى العامل رضى مؤكداً. ولوح «كردير» مجدداً بـ «بادهايم»، بيد أن «شاهبور» كان قد التفت إلى «خُرم - باشيه»، المكلف بالستار، الذي كان يقف على الدوام بجانبه، وبارتعاشه من أصابعه أصدر إليه أمراً. وفي اللحظات التي تلت رُوي كاتبان يسرعان ويتخذان مجلسهما عند قَدَمَي العامل. وكانت تلك إشارة إلى أن النقاش قد انتهى وأن الملك كان يتهيأ للتشريع، وهو إجراء عُمِل به منذ أيام «الهارتين»: يُعَيِّن ملك الملوك في لغة بسيطة رغباته فيرددها أحد أُمَيِّي السَّر بصوت مرتفع، لا كلمة بكلمة، وإنما بإخضاعها، كما بطريقة الترجمة الفورية، لمصطلح القرارات الرسمية الفخيم الذي كان الكاتب الثاني منهمكاً بتدوينه بخط جميل في السجل المخصص لهذا الغرض.

قال العامل: «لقد قرّرنا هذا اليوم...» فضخّم أمين السَّر «نحن، «شاهبور» الإلهي، ملك ملوك إيران وما «ليس من إيران»، الإله بين الناس والإنسان بين الإلهة...».

وفسح «شاهبور» في المجال للتدوين قبل أن يتابع: «... أن نجيّز لأحد رعايانا، المخلص «ماني»، أن ينشر بكلّ حرية في جميع مدن «الإمبراطورية» وقرأها رسالته السماوية التي حازت قبولنا السامي. ونأمر جميع الملوك والولاة والحكّام والموظّفين بأن يؤازروه وكأنّه في كل الأمكنة رسولنا الخاص».

- ٢ -

لم يَسْعَ «ماني» وهو يغادر القصر أن يفعل غير المشي، المشي بخط مستقيم إلى الأمام، قارِعاً طريق (المدائن) غير الممهّدة بعقبه الوحيد السليم. وكان الناس يلتفتون إليه وهو يمرّ ويشيرون بالأصابع إلى الغلمان أن ينظروا إلى هذا الغريب الرّجيم المتوحّش، تلك الجرادة اللثيمة التي هبطت من الغيوم، فأَيّ فكرة أخرى كان من الممكن أن يكوّنوها عنه اليوم؟.

بيد أن جميع هؤلاء الناس سوف يفهمون في الغداة، ولن يطول بهم الأمر أكثر من الغداة. وسيأتي الرّسل منذ الفجر يقرعون الطبول في الساحات العامة قارئين النداء الذي ذُكر فيه هذا الاسم، «ماني»، طبيب من بلاد (بابل). وستحمل العاصمة بأسرها عندئذٍ روايات مزوّقة إلى القصر عن الملأ الذين يستمعون إليه، ويروق للناس أن يصفوا ما يتزّيا به، ويزعم كل أحد أنه تعرّف في شارعهِ على المشية الملهّمة والعباءة المائلة إلى زرقة السماء. وقبل عشرة أيام سيكون البرّد قد انطلقوا إلى المناطق الساسانية النائية حاملين أوامر ملك الملوك المنسوخة جيّداً والمختومة بالشمع والملح.

كان «ماني» في السادسة والعشرين، ولم تكن هذه الشوارع وتلك الأرض من بلاد (ما بين النهرين) وهاتيك «الإمبراطورية» والكون بأسره لتسّع بما يكفي

لخطواته. فهل يمكن تخيل «يسوع»، «يسوع» الذي كان يحبه كثيراً منطلقاً، بعد أن بشر في بلدات (الجليل)، إلى (روما)، وداخلاً على «تيريوس قيصر» وتاركاً جبل «بالاتان» مزوداً بمرسوم يُجيز له نشر تعاليمه في «المدينة» وفي الأقاليم، وبأمر مطلق إلى جميع من هم في مصاف «هيرودوت» وجميع من هم في مصاف «بيلاتس البنطي» بأن يُسهّلوا مهمته؟.

كانت تلك المقارنة هي التي دارت في خلد «ماني» ذلك اليوم. وكانت ظواهر الأمور تدعم أشدّ آماله منافاة للمعقول. وإذا كان عاجزاً عن تهدئة خواطره أو خطاه فقد أخذ يمشي ثم يمشي نشوان مُتَمِّصاً.

كان أصدقاؤه ينتظرونه عند سياج القصر، وقد خرج من غير أن يراهم. كان هناك «ديناغ» و«باتيغ» و«مالكوس» و«كلوويه»، وقد نادوه غير أنه كان أصمّ. واندفعوا نحوه، بيد أنه كان هو نفسه شبيهاً في سيره بقطعة من الصخر أفلتت من منجنيق. ولم يَسعِ المراتان المنهكتان إلا التوقّف، وكذلك الأب. ولحق به «مالكوس» وحده. فقد احتفظ منذ عهد «أصحاب الملابس البيضاء» بذلك العناد باللحاق به على الدوام.

وإذا وصل «مالكوس» إلى محاذاته، بل تحطّاه ببضع خطوات ليحاول أن يقرأ فيما وراء عينيه المدعورتين، ما إذا كان يركض على هذا النحو من السعادة أو من الحلق، فقد تضرّع إليه على الرغم من لهائه أن يخفّف من خطوه ويلتفت إليه وأن يجيبه آخِر الأمر. بيد أن «ماني» لم يحدثه لا عن «شاهبور» ولا عن «قاعة» العرش. واكتفى بأن أعلن له عن نيّته بالرحيل.

- الرحيل؟ لقد قطعنا أرجاء «الإمبراطورية» من (المدائن) إلى (دَبْ)، ومن (دَبْ) إلى (المدائن) على جميع الطرقات وفوق كل الأنهار وفي (البحر الكبير). فإلى أين نرحل بعد؟

- في أربعة أرجاء المعمورة، وإلى أقصى أفق السهول، وإلى أبعد من ذلك وأبعد، إلى عتبة كل مخلوق! فهل تتبعني؟.

وتابع حتى قبل أن يجيبه صديقه، وكأنه لم يكن يستطيع التوقف، وكان كلماته كانت قد اندفعت :

- لن أقول للذين سيُقبلون إليّ بعد اليوم أن ينتظروا، ولن أدعوهم إلى الانضمام إلى موكبي . لسوف نكون مئات وألوفاً، ونثير من الغبار أكثر مما يثير جيش، ونحفر على جلد الدنيا ثلماً لن يمحي أبداً .

وإذ قال ذلك فقد حثَّ الحظوظ . وعليه فإن «مالكوس» لم يسعَ إلى اللحاق به . وجلس على صخرة كبيرة في حين كان صديقه يتجدد .

وقد تساءل «الصُوريّ» قائلاً: «كيف أستطيع بعدُ أن أتبعه؟» ولم يكن يتحدث عن هذا السباق اللامعقول خلال شوارع العاصمة، بل كان قد أخذ يفكر في تلك المرحلة الأكثر لامعقولية أيضاً، تلك السباحة في أربعة أرجاء المعمورة التي كان «ماني» قد دعاه قبل قليل إليها .

«دعاه... أتكون هذه الكلمة هي المناسبة حقاً؟»، هذا ما تساءل عنه «مالكوس»، وتنتكرت الابتسامته التي كان قد رسمها في تكشيرة ألمٍ بفعل التعب . إنه منذ ذلك اللقاء الأول في مقصف بستان النخيل لم يكن قد رفض قط شيئاً لـ «ماني» . وكان يحدث له أن يناقش، أن يشاكس، أن يشتم، أن يؤالٍ أن... ولكن ما الجدوى، لقد كان الأمر ينتهي به إلى أن يفعل بالضبط ما كان صديقه يريد . وإذا حدث أن سعى في بعض الأيام إلى المقاومة فقد كانت «كلوويه»، زوجته، هي التي تتدخل لمصلحة الآخر .

ومع ذلك فإنه لن يقدر أبداً له ولا لها أن يشاطرا «الرسول» اهتماماته . وربما كان ذلك هو الأمر الفريد في صداقتهم . فالعيش إلى جانب مؤسس عقيدة من غير أن يسعى إلى فرض قناعاته، إن مثل هذا لم يكن ليُعقل إلاّ لأن «ماني» كان ما كان، رسول دين سمح . ولأن ربّه لم يكن يبحث عن عبدة .

لم يكن لـ «الصُوريّ» ما يفعله بالأفكار الدينية، فقد التقى ببساطة رجلاً حكيماً، حكيماً مفتوناً بالجمال، شخصاً يودّ كل كائن بشريّ أن يصبح صديقه .

ولم يكن في وسعه، هو بالذات، أن يستخفّ بمثل هذا الامتياز. ولسوف يتبعه ما دامت ساقاه قادرتين على حمله.

بينما كان «مالكوس» غارقاً على هذا التحو في أفكاره كان «ماني» مستغرقاً فيما يدور بخلدّه هو. كان قد سار إلى ضفاف «دجلة». وهناك، في مكان يغشاها الناس أقلّ ممّا يَغشَوْنَ غيره، هبطت حماسته لِيَحُلَّ الحَصْرُ محلّها.

وعندما لم يكن يحظى بالحماية ولا بمقايلة الملوك كان يحلم بأن يُمسك بالعالم بيديه العاريتين. ولكن ها هو ذا وقد مُنِحَ العالم، وعُبدت له الدروب، وغدا من الواجب أن يبدأ الفتح! الفتح من غير أسلحة! أن يجرّ ساقه المعطوبة من بلد إلى بلد، ويواجه المَرازية والأمم والطوائف والشّيع والأخويّات، ويزعج القطعان المحزّبة والطقوس المُحوّلة إلى عِظام وكلّ أنواع الكُمدَة في كلّ إنسان؟ أن يعلم ويكتب ويرسم وينقاش بلا هوادة ثم ينطلق إلى مرحلة اليوم التالي فيجمع حشوداً أخرى ويتبدع لكل جمهور من المستمعين النبرة التي تخلق وتُربك وتؤاسي وتُلهب في آن، إلى أن تغدو البشرية جمعاء مُشكّلة من جديد؟.

وكما كان يحدث له في بعض الأحيان فإن تأملاته التي تبدأ بشكل مناجاة مع النفس قد اتخذت في لحظة من اللحظات شكل حوار مع «أناه الآخر»، مع «توأمه».

- ما هو الوقت الممنوح لي لكل ما عليّ عمله؟.

وقال له «الآخر»: «لن تعلم شيئاً من هذا»

- هل لي أن أعرف على الأقلّ ما إذا كنت أملك بعدُ سبع سنوات، ما إذا كنت سأبلغ ما بلغ «المسيح» و«الإسكندر» من العمر؟.

«تملك الأبدية واللحظة، فما همّ؟ الزمن شصّ «الظلمات» فلا تتخدغ، ولا يكنّ لك من همّ سوى رسالتك، في كلّ يوم!».

- أستطيع أن أعرف على الأقلّ ما إذا كنت سأرى نهاية عملي؟.

«اعهد إليّ بالمستقبل، سِرٌّ، إنَّ مصيرك قد أخذ يَحْبُ بعيداً أمامك، إنَّ الناس ينتظرون بفارغ الصبر في (بيت - لايات ١).

لم يُعَدَّ من مدينة لم يكن «ماني» مُتَنَظِّراً فيها منذ أن نُشر المرسوم الإمبراطوري. غير أنه لم يترث لحظة في التردد. وسلك الطريق باتجاه (بيت - لايات).

لم تكن سوى قرية كبيرة من قرى (سوزيانا) [هي اليوم «خوزستان»] بلا ماضٍ ولا هبة؛ إلا أنه كان يُحكى أن «شاهبور» الذي كان قد أقام فيها أحياناً سره هواؤها ومياهها، وكلف معمارييه أن يقوموا فيها بأعمال التوسيع؛ وحسب بعض الشائعات فإنَّ الملك كان يدغدغ خاطرة بأن يجعل منها ذات يوم مقره الصيفي. ولا ريب في أنه كان يرجو أن يستفيد من موقعها الممتاز بين (بلاد ما بين النهرين) و(پرسيديا)، ومن هذا الواقع بين شقي «الإمبراطورية» الساسانية، (الغرب) السامي و(الشرق) ذي اللغة الآرية. أف يكون هذا هو السبب في أن «ماني» كان يرى نفسه مُلْزَماً ببدء رحلته بِـ (بيت - لايات)؟.

وعلى الرغم من أنه لم يكن قد زار قط تلك الدسكرة فقد كان يعلم أن طائفة مسيحية نشيطة قد نمت فيها، وإليها كان ينوي أن يتوجه أولاً. بيد أنه سرعان ما توجَّب عليه أن يقبل حقيقة الأمر: لم يكن في زمن الحِجَّات المُغْفَلَة، ولا كان يملك، كما في (دَب)، حُرِّية توجيه خطاه نحو المبني الذي يقع عليه اختياره.

ما إن علم وجهاء الموضع بوصول الزائر وحاشيته حتى هرعوا وعلى رأسهم المُلْكُ المحلي الذي طالب متنفخ الصدر بامتياز إيساء تحيي «شاهبور» الإلهي تحت سقف بيته. إلى حدِّ أن الرجل غضب عندما أجاب «ماني» بأنه اعتاد أن يختار لإقامته جذع أجَلَّ الأشجار في إحدى الحدائق، وأعلن بأنّه عن نَسْبِهِ الذي يعود به إلى أعرق السلائل، وسمح لنفسه، بموازرة الكُتَبَة المحيطين به، بأن يُصرَّ ويلجف. فإن رُفِضت دعوته فمعنى ذلك احتقار أسلافه، وإلا

فالتشكيك في طهارة بيته. ولم يستسلم «ماني» على الرغم من حَرَج «ديناغ» وإعياء «باتيغ». فليسوف يأتي الناس للاستماع إلى تعاليمه عند جذع الشجرة، وهناك لا في أي مكان آخر سوف يقضي الليل.

كان السلوك في الحق قليل التوفيق، بل ربما كان جارحاً من غير جدوى، ومع ذلك فقد كان السلوك الوحيد الحكيم. إذ كان على ابن (بابل) أن يواجه على امتداد أسفاره هذا النوع من الهجمات التي كانت تُملِّها أحياناً أشدَّ غرائز الضيافة نقاءً، وفي أغلب الأحيان اعتبارات أقلَّ قابلية للتقدير كمثال رغبة أحد الوجهاء في تسجيل رفعتة باستضافة أحد تَحْمِيي «شاهبور»، هذا إذا لم تكن لديه رغبة في التجسُّس على «ماني» ورفاقه والذين يَبْدُون متأثرين بشكل خطير بتعليماته من أهل البلد.

ولقد ظهر التباس بالفعل منذ بدء الرحلة. فإذا لم يكن بمقدور أعيان الأقاليم سوى إبداء الخضوع المطلق ما إن يتعلَّق الأمر بإطاعة أوامر ملك الملوك، وإذا كان عليهم بالتالي أن يَخْصُّوا بأحسن الترحاب الأشخاص الذين عرفوا كيف يفوزون برعايته السامية، فإنهم لم يكونوا يجهلون أن أزمنة الحُطُوة عابرة، عند العاهل أكثر ممَّا عند غيره، وإذا كانوا ينظرون إلى الزائر بحسد فإنهم كانوا يحتفظون في أذهانهم على الدوام بإمكان زوال حُطُوتِهِ؛ وعليهم إذا حان الوقت أن يكونوا متاهيين لأن يُثَبِّتوا أنهم لم يفقدوا قطَّ حَذَرَهُم.

وإذا كان الأمر يتعلَّق بِـ «ماني» فإنه كان أجلى أيضاً وأصرح. وكانت الأخبار تسري بسرعة في «الإمبراطورية». وكان يكفي أن يمس أحد رجال البلاط في أُذُن أحد «المُرُوجِينَ»، وأن يُلقِي هذا بكلمة في مائدة خاصة بنبلاء الريف لكي تُناقش القضية بعد ثلاثة أسابيع في ساحات القرى. وعلى هذا النحو عُرفت المناقشات التي دارت في قاعة العرش ونُقلت أقوال «كردير» التي أثارت أعظم الظنون بالطبيب البابليّ.

لقد استقبل «ماني» إذن في (بيت - لابات) بقواعد الآداب اللائقة، غير أن كل شخص ظلَّ آخذاً جذره. وعندما استقرَّ في أصل ذلك اليوم عند جذع

شجرة، شجرة زعرور، وقف فوق التلّ الأعيان، وبالتالي الكهنة بالطبع، في الصفوف الأولى من الحشد. في حين كان بعض الجنود يطوفون. حُلّاء مع ذلك وموقّرين للحدث الذي كانوا بمحاذاته.

أوجب الزائر على نفسه أن يقول في الاستهلال إلى أيّ مدى يرى أنّه شرف بالثقة التي أولاها إيّاها ملك الملوك، وإلى أيّ حدّ تأثّر بالاستقبال الذي خصّته به (بيت - لايات). وإذ قدّم على هذا النحو أوراق اعتياده في بضع عبارات فقد أبدى أمله في أن يرى - كما قال - جميع رعايا «الإمبراطورية» مُنصّوين حول حكمة مُشتركة. «إن الشراة الإلهية موجودة فينا جميعاً، لا تنتمي إلى أي عرق، ولا إلى آية طائفة، إنها ليست ذكراً ولا أنثى، وعلى كل أحد أن يغذوها بالجمال والمعرفة، وبهذا تتمكّن من التألّق، ولا يكون الإنسان عظيماً إلّا بـ «النور» الذي فيه وحسب».

تبادل المستمعون الذين كانوا هناك نظراتٍ مستبكرةً مغيظة. فهم الفخورون بعرقهم، هم الذين كلّفهم «أردشير» بفرض احترام تراتيية الطبقات لكي ينظر كلّ إنسان بتبجيل إلى من ولدتهم «العناية» فوقه، ويتعاطف إلى من وضعتهم دونه، هم الذين لقنوا أن هذا هو أساس النظام الساساني وكل نظام أرضي أو سماوي، ها هو ذا إذن هذا الطبيب البابلي وقد جاء يعلن أمامهم، بل أسوأ من ذلك أمام جمهور الرعايا، أمام عامّة الناس من نحاسين أو أصحاب دكاكين أو حمالين أو حابكي بُسْط أنه ينبغي تجاهل الطبقات بلّة احتقار الانتهاء إلى عرقا إن هذا الرجل كان، في أوقات غير هذا الوقت، يُقبض عليه مُدّ كلماته الأولى ويُكبّل وتُكال له الضربات، وربما مُزّق إرباً. غير أن الذي كان يتكلّم على هذا النحو هو المبعوث المحيي من ملك الملوك! وإذ استنكف بعض الأعيان عن التفهّم فقد آثروا الاحتجاب بصمت، بيد أن الأمر كان مختلفاً بالنسبة إلى الكهنة الشباب الذين انسحب بعضهم بصخب وحقق.

انتهى الأمر بـ «ماني» على مرّ الأسفار إلى أن يُلصق بنفسه سمعة زارع

قلائل لا سبيل إلى تحوُّها. وفي كل مرة كان يبدأ فيها الكلام كان يظهر بعض المستفزِّين باحثين عن المتاعب، مُتَفَنِّين في جعله يتلفظ بأشدَّ العبارات تحريضاً. ولم يكن هو نفسه يكره الاستفزاز، فقد كان جزءاً من الأدوات التي كان يستخدمها، وعلى الرغم من أنه كان يُحسِّن إبقاءه في بعض الأحيان في حالة خَدَر، ويلطِّف من انتقاداته، ويُغضي عن بعض الكلمات التي قد تزرع الفُرقة، فإنه ما إن كان يُسأل بشيء من الإلحاح حتى يجيب مهما تكن مقاصد السائل. وسواء تعلَّق الأمر بذهنيَّة العرق، أو بالفوارق بين الطبقات، أو بطقوس الكهنة، أو بالربوبيَّات التي اعتراها الحسد، فإنه كان يتكلَّم باستقامة ومن غير مَلَق! وإذا حدث أن أخذ الاجتماع بالانحلال فإنه كان يكتفي بهزِّ كتفيه وهو يقول:

- إنها نفسُخات بَشَرَة العالم القديمة! ولسوف أبدأ بالقلق عندما تغدو أقوالي في أذان الناس أنعمَ من ريش وسادة.

كانت مثل هذه التفسيرات توجَّه في العادة إلى «ديناغ». فقد غدت مَذَاك الكائن المقرَّب. وعندما كان «ماني» يتمدَّد عند جذع الشجرة لدى زوال النهار، أو تحت سقف أحد المؤمنين حين ترغمه رداءة الأحوال الجويَّة على ذلك، فإن «ديناغ» لم تكن قطَّ بعيدة. وكان في وسع كل شخص من أشخاص الموكب أن يلاحظ الرعاية المتقدِّمة التي كانت رفيقته تحيطه بها، وكان كل أحد يَحْمَن المكانة الخاصة التي تحتلُّها، على الرغم من أن أحداً لم يعلم علم اليقين ماذا غدا كلُّ منهما بالنسبة إلى الآخر، ولا بأية كلمات أو بأيَّ عينيْن أو بأية صداقة كانا يتلفعان عندما يكونان وحدهما.

وعلى أي حال فمن ذا الذي يجسر على السؤال عن ذلك؟ وحاول «باتينغ» ذات يوم أن يطرق الموضوع. بمواربة وحيطة.

- ليُبَارِكك الله يا بني، ليُبَارِك اليوم الذي دفعني فيه «العناية» إلى اقتفاء أثرك. إن قلبي ليملأه الفرح في كلِّ مرة اسمع الناس يذكرون فيها فضائلك وحياتك الزاهدة وما تفرضه من حرمان على جسدك الفتيّ.

وقاطعه «ماني» قائلاً:

- أيّ فضيلة في أن يحرم المرء نفسه من لذة لم يسبق له قطّ أن ذاقها؟
وآثر «پاتينغ» أن يبتعد مكتفياً لاستعادة رباطه جأشه بغمغمة عبارة مباركة.
ولم يكن «ماني» قد نظر إليه وهو يلقي برّده، بيد أنه لم يلبث، بعد أن تركه
يخطو بضع خطوات، أن ناداه كأشدّ ما يكون النداء من احترام:
- يا «مار پاتينغ»!

وهرع أبوه من جديد على عجل. ولكن ليسمع قوله له:

- أما آن لك يا «مار پاتينغ» أن تتوقّف عن أن تكون من «أصحاب الملابس
البيضاء»؟
جعلت النبرة الساخرة والنداء الوقور السؤال أشدّ إيلاماً في عين الأب الذي
أراد الدفاع عن نفسه:

- لقد غادرت «الجماعة» وجميع إخوتي للحاق بك، وجشوت أمامك، أنا
أبوك، وأصغيت بخضوع إلى كل موعظة من مواعظك. . .

- لقد أصغيت إليّ كل يوم يا «مار پاتينغ»، غير أنك ما تزال تتحدّث حديث
واحد من «أصحاب الملابس البيضاء». وأقولك تهينني.

- لم يكن لي من أقوال إلا في امتداح فضائلك!

- إن من يفرض على نفسه الحرمان لكي يجني المديح لا يستحقّ أيّ مديح،
لأنه أشدّ ادّعاء من أحقر الماجنين. والحكيم لا يصوم إلا لكي يكون أكثر قرباً
من ذاته، وهو وحده الحَكَم، ووحده الشاهد. وإذا ما حرمت نفسك فلا تفعل
ذلك امثالاً لمتطلّبات جماعة ما، ولا خوفاً من العقاب، ولا حتى رجاء تكديس
فضائل تُباهي بها في عالم آخر. إن مثل هذه الحسابات تثير في نظري
الاشمئزاز.

حمل «پاتينغ» نفسه على الابتسام.

- إذا كنت تقول لي يا ولدي إنه يجب عمل الخير لأجل الخير ومن غير انتظار لجزاء فإن فضيلتك تزداد عِظماً.

نظر إليه «ماني» آخر الأمر، ولكن نظرة قنوط.

- هل سمعتني يوماً أتحدّث عن الخير أو عن الشر؟ إنّ هاتين الكلمتين لا تنتميان إلى قاموسي!.

« لقد حدّرتني «توأمي» السماوي. فسوف أقول شيئاً ويفهم الناس، حتى أقرّبهم مني، شيئاً آخر. لقد قلت إنّهُ في كل كائن يختلط «النور» و«الظلمات»، وينبغي للفصل بينها مهارة حكيم بأكملها... »

ثم تنفّس طويلاً وكأنّه ينتظر استعادة هدوئه.

- الحقّ أنك جئت تسألني ما تكون «ديناغ» بالنسبة إليّ.

ولاذ بوغت «باتيغ» فقد رفع كلتا يديه وكأنما يقوم بحركة دفاع عن نفسه. وتابع ابنه قائلاً:

- إن ملابسها ترسم حدود مملكتي المشرّدة.

وفي هذه المرة كان «ماني» هو الذي نهض وابتعد بخطى أشدّ تواشياً من أيّ وقت مضى تاركاً أباه يُجِيل في ذهنه إلى ما لا نهاية هذا الاعتراف ذا الوجهين.

لم يجسر أحد على سؤال ابن (بابل) بشأن رفيقته. ولا سيما «كُلُوويه» التي كان يعتمرها الفضول. ولقد بقيت في (المدائن) للاهتمام بأسرتها وبأعمال «مالكوس» حين يكون مرتحلاً، ولكنّ «ماني» كان يقيم عندها إذا مرّ بعاصمة «الإمبراطورية» ولم تكن تستطيع منع نفسها عن مراقبته وهي ساهمة متفكّرة. لماذا كان قد أكّد لها فيها مضى أنه ما من امرأة ستأخذ أبداً مكاناً إلى جانبه؟ أتكون هي قد ظهرت في وقت مبكّر جداً من حياته؟ أيمكن قد كذب عليها لمجرد صداقته لـ «مالكوس»؟ كثير من الأسئلة لم تكن ابنة «الإغريقي» لتستطيع مفاتحة أحد بها، بل كانت تكاد تفتح بها نفسها، أسئلة كانت تظنّ أنها تطردها

من ذهنها وهي تزداد تودداً إلى «ديناغ»، ولكنها كانت تعاودها في كل مرة ترى فيها المرأة الأخرى جالسة بالقرب من «ماني» وعيناها مسدّدتان إلى شفتيه.

«ديناغ». لقد كانت ضغيرتها الملقاة إلى الأمام تحجب سُمرة عُنُقِها المائل الوردية. وكانت تفوح شباباً بغير صلف، وجمالاً بلا تطرية ولا امرأة، غير أنه جمال نهائي كالحبّة الأخيرة في نقاش. وكانت تربط حول خصرها زناراً سميكاً من الصوف ملفوفاً ومعقوداً. وذات عصر، بينما كانت السماء تبرد وتهبّ ريح باردة، ارتعشت «ديناغ» وفكّت الزنار وحلّته وكشفت عن كتفها. ورؤي مرسوماً على القماش بلمسات دقيقة وجهه، وجهه هو مؤطراً بالأزهار. وعرف كل أحد في الرسم ريشة «ماني»، وغدا القماش في نظر الأتباع بمثابة تذكّار مقدّس. وكان من يقتربون للمسّه يستنشقون العطر الذي يفوح منه، وهو مزيج من خشب الصبر والعنبر والنيلوفر والمسك التيبّي كان «ماني» قد ركّبه بنفسه.

أفلم يقل ذات يوم إن كل شيء في «حدائق النور» سوف يكون عطراً ولوناً، وأنه ما من شيء سيظلّ مادّة؟

إذا كان القوم في موكب «ماني» يطرقون على الدوام موضوعات متقشّفة فإنه كان يسودهم مع ذلك جوّ وادع من أجواء العيد. وكان كل واحد يعتبر نفسه مُلزماً بتعهّد فنّ من الفنون، الموسيقى في أغلب الأحيان والغناء، لأنها كانا مشرّفين في البلاد الساسانية، وكذلك الشعر، وبالطبع الرسم والخطّ اقتداءً بالمعلّم، المعلّم الذي كان يرخص لهم بالتجمّع حوله حين يشدّ النسيج أو يرقّش الرّق، وحين يحضّر الأصباغ والألوان، وحتى حين يخطّ حدود اللوحة ويبدأ بالرسم. ولم يكن يسمح لوجود التلاميذ بإلهائه، ولا كانت نظراتهم لتلقي بثقلها فوق يده؛ وكثيراً ما كان يتكلّم وهو منهمك في الرسم، وكانت كلماته تتحدّد بلمسات ريشته. وكانت تلك اللحظات أشدّها كثافة، ولوّد التلاميذ لو تطول إلى ما لا نهاية، وكانوا يقضون الساعات في المكان نفسه حابسين أنفاسهم خوفاً من انقطاع الروعة والسحر.

على الرغم من الإجلال الصامت الذي كان رفاق «ماني» جميعاً يحيطونه به فإن وجوده لم يكن قط مثقلاً. وإذا كان ابن (بابل) يطلب من تلاميذه الأقربين، من «مختاريه»، من أولئك الذين سيُدْعَوْنَ يوماً «الكاملين»، أن ينصرفوا إلى الفن، إلى التعليم، إلى التأمل، وأن يتخلصوا من كل ملكية، فإنه كان لا يني يردد أن بالإمكان المجيء إليه من دون التخلي عن العمل والممتلكات، ومن دون التحول عن العادات ونمط العيش. شريطة عدم إيذاء الكائنات وعدم ترك الحكماء يموتون.

وذات يوم أبدى أحد المعارضين جزعه بقوله:

- على هذا فإنه سيكون في ديانتك أخلاقيتان؟.

لم يفكر «ماني» في إنكار ذلك.

- هناك طريق وغر يسلكه الذين يصبون إلى الكمال. وطريق مُمَهَّد للبشر كافة.

- ولكن إذا كان الطريقتان يؤدّيان إلى الخلاص فما هي الامتيازات التي أحصل عليها باختياري الطريق الأصعب؟

- إذا لفظت كلمة «امتيازات» فمعنى ذلك أنك اخترت سلفاً.

كان الأتباع يتضاعفون على مرّ المراحل، ولا سيما في المدن بين الحرفيين والتجار والغرباء والمُهْجِنين. ولا ريب في أن «ماني» كان يجلب الذين يعيشون في عزلة داخل نظام الأديان والطوائف الصارم، والذين يعانون من كونهم مُتْجَاذِبِينَ بين مختلف الانتهاءات، والذين لم يكونوا يَرَوْنَ أنفسهم جالسين منذ الأزل وإلى الأبد على طنفسة وثيرة من الامتيازات.

ومع ذلك فإن انتشار تعاليمه كان أبطأ ما يكون في أقلّ الطبقات ثراء. وعندما كان يقول: «لا تقتلوا الشجرة، لا تحرقوا الأرض» فكيف كان من الممكن أن يحصل على انخراط الفلاحين بحماسة؟ وربح إلى جانبه على العكس من ذلك بعضاً من أبرز ممثلي طبقة المحاربين. مثل «فيروز» و«مهرشاه»، وهما

أَخوان من إخوة «شاهبور». وعلى الأخص بالطبع، أسبقهم جميعاً، الابن الأصغر لملك الملوك، «هرمز» الذي أخذ يعلن جهاراً منذ الآن أنه تلميذ «ماني»، والذي سَكَّ في (دَبْ) نقوداً تحمل على وجهها الثاني صورة «بوذا»، مع أنه ظلَّ يتعبَّد لِـ «أهورا - مازدا». والحقُّ أن أقرانه كانوا في معظمهم يُنْكروْنَ عليه تصرّفه، وكذلك الكهنة. وكانت تعقد اجتماعات صاخبة في بيوت النار المقدّسة في (المدائن) و(پرسیدیا) و(أتروباتين). وكان يُسمع فيها أن «بوذا» على نقود ساسانية! ولم لا يكون غداً صليب «الناصري»؟.

احتجاجات وتساؤلات لم تكن موجّهة بالطبع إلى «ماني». وإذا كان يريد أن يقلب على هذا النحو نظام «الإمبراطورية»، ويقلقل الأسس التي بُنيت عليها السُلالة الساسانية و«الدين الصحيح»، فذلك يؤكّد في نظرهم حكم «كردير» الدائم بأنه «ناصريٌّ من أبشع الأنواع، وذئب بَقْدَمين». وأما «شاهبور»؟ فلماذا يريد ملك الملوك الإلهي وسيّد «الإمبراطورية» أن يهدم بيديه ما يؤلّف دعامة تقوّته؟.

كأن النبلاء والكهنة يؤثرون القول في أحاديثهم بأنّه قد خُدع. وما إن يُنبأ كما ينبغي بالأضرار التي أنزلها المهرطيق حتى يسحب بالتأكيد حمايته ويُنزل به العقاب الذي نصّت عليه الشريعة. وشُكِّل وفدٌ ضمّ أمراء عريقين وكهنة رفيعي المقام ومثّل أمام «العرش» مُثَقَلًا بالشكاوى.

- إن هذا الـ «ماني» يقود جحفاً من المتسولين المنقضّين على كل ناحية من نواحي «الإمبراطورية» انقضاظ الجراد على واحة، ويتحدّى التعاليم السماوية ويحرّض عامّة الناس على احتقار الذين وضعهم مولدُهم فوق رؤوسهم. إن الحيرفيّ يريد أن يصبح كاتباً، والكاتب فارساً، وقد فقّدت الهبة والسلطان وتداعى نظام السُلالة، ويُشاع في أرجاء «الإمبراطورية» أن سيّدنا الإلهي شخصياً هو الذي شاء أن يكون الأمر كذلك. . . .

وأصغى «شاهبور». وغرق في تفكّر طويل. ثم نهض بطريقة غير متوقّعة. ولم يملك رجال البلاط إلّا ما يلزم من وقت للغوص ووجوههم إلى الأرض.

وحين جسروا على النظر من جديد إلى العرش كان الستار قد أُسدل.

أَيكون ملك الملوك قد تقلقل بفعل ما نُمي إليه؟ أأتكون النبرة التي استعملها
الأمراء والكهنة قد أزعجته؟ على كل حال فإنَّ أيَّ حكم لم يصدر بحق أعضاء
الوفد. ولكن أيَّ تدبير لم يُتخذ كذلك بحق «ماني».

مضت بضعة أسابيع ولم يحدث شيء. واستؤنفت الاجتماعات والمناقشات.
ومرَّ بخلد «كردير» أنه ما دام «شاهبور» لم يستجب فمعنى ذلك أنه أساء تقدير
فداحة الأخطار، أو أنه متردد. فليحدث أمرٌ جَلَلٌ وسيكون العاهل مُكرَّهاً على
اتخاذ موقف حاسم.

والحادثة الجُلِّي لم يكن «كردير» في حاجة قط إلى إثارتها، فـ «ماني» هو الذي أوجد جميع ظروفها بعزمه المفاجئ على زيارة (أيكبتان)، المدينة التي كان أبوه من مواليدها، بيد أنها على الأخص عاصمة (ميديا) وإقطاعة الكهنة منذ أقدم الأزمنة. وكانت للزيارة بحد ذاتها سبباً التحدي إذ عُني ابن (بابل) بإعلانها قبل عدة أسابيع في عظة على الملأ في الساحة الكبرى بـ (سلوقيا) إحدى ضواحي (المدائن)، وهو يؤكد بأن هذه الرحلة ستكون شاقّة، وأنه لن يشجع أتباعه على اللحاق به فيها. غير أنهم تبعوه بالآلاف.

وفي صفوف الخصوم كان «كردير» هو الذي عقد العزم على الذهاب إليها شخصياً، ولم يُغفل التحوُّط باصطحاب «بهرام»، ابن «شاهبور» البكر. ولم يكن في عداد طبقة الكهنة ولا طبقة المحاربين أشرس منهما عدواً لـ «ماني». فقد كان «كردير» يرى في ابن (بابل) تهديداً للنظام الديني الجديدي الذي كان الكهنة يَسْعَوْنَ إلى فرضه على «الإمبراطورية»، في حين كان «بهرام» يرى فيه بشكل خاصّ حليفاً لأخيه الأصغر «هرمز» الذي كانت تُحْفِظُهُ عليه منافسة مُقيمة. ولم يزد مآل «ديناغ» بالطبع على أن فاقم الأمور: فلأنّ تفضُّل فتاة من النبلاء يطمع فيها «بهرام» أن تتبع الطبيب البابلي في تشرده بموافقة من «هرمز» فتلك لعمرى إهانة لا تنسى! ولن تكون أحداث (أيكبتان) سوى فاتح للشهية

على ما سيكون من انتقام في قابل الأيام!

كان البلاء الأول الذي على موكب «ماني» مواجهته هو القُر. وكان الزمان آخر الخريف. وقد ظَلَّت الأيام ناعمة ما دام المرء في سهول (ما بين النهرين)، ولكن ما إن يأخذ في طريق الجبل حتى تَمَسَّ الحاجة إلى ارتداء الملابس السمكية. وعلى بُعد ستة فراسخ من (أيكبتان) صودفت رقاع الأرض المفروشة بالثلج الذي أقبل سكان الأراضي السبخة يَحْسُونه جَدِيلين.

لم يكن الموكب لحسن الحظَّ يشبه قطَّ «جحفل المتسولين» الذي كان يملو للكهنة الهزء به. فقد كان بين الأتباع في الواقع بعض التجار الموسرين الذين أوجبوا على أنفسهم كسوة المُعْدِمِينَ وإنعالمهم وإطعامهم. ولم يكن أحد هؤلاء الموسرين غير «مالكوس» الذي كان ما إن يحتدم النقاش في الدين حتى يجد على الدوام ما يشغل به نفسه في مكان آخر، صوب المطايا بوجه عام، إذ كان قد ألزم نفسه بتجنّب «ماني» جميع المهموم الدنيوية. ولَمَّا كان خبيراً بالقوافل فقد تَكشَّف عن واحد من أفعال مُنظَّميها. حتى لقد كان بالإمكان رؤية معاطف وأغطية صوفية مكوَّمة على ظهور البغال ومحفوطة لأوقاتٍ أشدَّ وطأة. وما كانت لتكون فائضة عن الحاجة، وهذا ما كان يشير إليه عند مدخل (أيكبتان) أسد ضخم في أعلى لبدته خصلة بيضاء منمنمة ولكنها مُدْلَةٌ لأشهر ثمثال في «الإمبراطورية»، وقد نُحِت بالضبط ليكون بمثابة طلسم لحماية المدينة من انهيار الثلج.

كانت شوارع (أيكبتان) خالية عند وصول «ماني». أو هي بدت كذلك. فقد كانت ريح الصباح قد هدأت؛ وكادت الشمس في كبد السماء تكون محجوبة، وكانت أشعتها الفتية منهمكة في تعديل الجو وتدفتته. واجتاز الموكب شارعاً محفوفاً بالدكاكين التي كانت جميعها مقفلة. مع أن الوقت لم يكن وقت غداء ولا وقت قيلولة. فأية لحظة غير هذه يمكن أن يختارها الأهالي للعمل. تنزّه والقيام بمشترى ما يحتاجون إليه؟.

وتمت «ديناغ» بسذاجة:

- أين هم الناس يا تُرى؟

- خلف قضبان النوافذ للتلصص علينا، فالظاهر أنهم تلقوا أمراً بالبقاء في منازلهم.

بهذا أجاب «ماني» وهو يربّت على مطيّه، ثم نظر إلى «ديناغ» نظرة حبور شعرت معها بأنه ينبغي عليها أن تقلق. بيد أنه تابع بنبرة تشي بتحد متوهج:

- لقد تركونا نمرّ عند أبواب المدينة من غير أدنى سؤال. وها هم أولاء يراقبوننا الآن عن بُعد من غير أن يعترضوا طريقنا. ولست أعرف بعد أي مكان اختاروا لانتظارنا. قد يكون قبالة القلعة.

كانت «ديناغ» قد لمحت، مثلها لمح جميع أفراد الموكب، خلف البيوت الواطئة، الطيف الداكن لما كان فيما مضى ملاذ «دارا» الأخير. فبينما كان «الإسكندر» يجتاح «فارس» ابنتى ملك الملوك في (أيكبتان) قصرًا من ألف حجرة بسعة مدينة كاملة، نوعاً من خزانة عملاقة يحبس فيها خلف ثمانية أبواب من الحديد نساءه وأولاده اليافعين وكذلك ما يملك من مال. وكان جميع ذلك أطلالاً في الوقت الحاضر باستثناء جناح واحد أعيد بناؤه وكان يأتي للإقامة فيه من حين إلى آخر أحد أفراد الأسرة الحاكمة.

وعلى مقربة من القلعة كان الجنود يقومون بدوريات من عشرة أشخاص على الأقدام أو فوق الجياد منهمكين وكأنهم في عمل دائم في إحدى الورش، ومن غير أية نظرة إلى القافلة التي كانت تقترب. وسألت «ديناغ» «ماني» عما إذا لم يكن من الحكمة الرجوع على الأعقاب، غير أنه لم يُرد أن يسمع أي شيء. فحتى لو كان مهتداً بالمصادرة والموت فإنه سيقضي الليل في المدينة، لأنه لم يكن في وسع أحد أن يتجاهل أنه مزود بأسمى الأذون. ولكي يؤكّد أقواله بأفضل الوسائل فقد ترجّل وترك العنان. وحاكاه رفاقه. حتى لقد أصبح الجنود الآن بينهم، وحوطهم، وكأنهم يَفُورون وسطهم حتى وإن لم يكونوا يلمسون أحداً.

توقف «ماني» ورفع يديه كما كان يفعل إذا رغب في أن يكفّ موكبه عن الحركة. واستأنف هو السير وحده على الأرض المنبسطة المفضية إلى القلعة. وعندها اندفعت خمس ثلّ من جنود المشاة وكأنهم ينصاعون لإشارة متفق عليها وأحاطوا به من كل صوب مشكّلين من أجسادهم حاجزاً ثابتاً. وسعى بعض الأتباع، ولا سيما من النساء، باستماتة يرثي لها، إلى إزاحة الجنود لتخليص «ماني»، إلّا أن هذا طلب إليهم أن يتعدوا. وعاندت «ديناغ» وحدها في اختراق خطّ العسكر الذين أفسحوا لها الطريق علانية في لحظة من اللحظات وكأنّه كانت لديهم تعليمات استثنائية فيما يتعلّق بالفتاة ذات الضفيرة التي ركضت تلحق بـ «الرسول».

كان «بهرام» وقد صعد مع «كردير» إلى أعلى برج من أبراج الرصد يراقب المشهد بحبور: فمن غير أن يكون أحد قد ضايق «ماني» أو وجّه إليه أدنى وعيد فقد وجد نفسه ورفيقته في ذلك السجن الغريب الذي لم تلبث جدرانها أن غلظت بصفّ ثانٍ من العسكر. ولسوف يقضيان الليلة، ثم اليوم التالي، وبعده الليلة مجدّداً، في المكان نفسه بلا نار ولا ماء ولا قوت، ولا أعطية أيضاً، ولن يكون من دفء لأيّ منهما سوى وجود الآخر المعزّي والمنشط، في حين سيبدّل جنود الحراسة بالتناوب كل ساعتين.

لم يوقف ابن «شاهبور» البكر عملية التعذيب إلا في اليوم الثالث عندما أخبر بأن «الهرطيق» قد وقع مغشياً عليه بين ذراعي «ديناغ». وبينما اندفع الأتباع لإسعاف المحجور عليهما والاستعجال في أخذ «ماني» إلى خارج (أبكتان) خوفاً من أن يقرّر حين يثوب إليه رشده أن يمدّد إقامته فيها، كان «بهرام» قد أمر بإقامة مأدبة وضحكته تجلجل في أرجاء المدينة. فلو حدث أن اشتكى «ماني» إلى ملك الملوك فسيكون في مقدور الأمير الاحتجاج على الدوام بأنه لم يتدّر منه غير الحفاظ على سلامة الزائر عن كُتب وأنّه ما من يد امتدت إليه.

بيد أن «شاهبور» لم ينظر إلى الأمر على هذا النحو. فما إن انتشر الخبر حتى استدعى ابنه إلى (المداثن) حيث اتّهمه أمام حشد من رجال البلاط بالعصيان

ونعته بالماجن والعاجز، ثم أمر بحبسه في أحد الأجنحة المخصصة لرحلات الصيد.

وبينما كان فرسان الحرس الإمبراطوري في طريقهم لـ «بهرام» في ذلك اليوم، كانت مفرزة أخرى تسلك طريق «كنغفار» حيث كان «ماني» لإعادته على جناح السرعة إلى العاصمة. على جناح السرعة، وبمفرده. وإذا لم يسبق أن تسامح «شاهبور» في أشدّ حالات التطاول على كرامة منصبه براءة فإنّ أحداً لم يغامر، منذ أن أدين ابنه بالذات على رؤوس الأشهاد، في تخيل المعاملة التي سيلقاها مَنْ كان في رأي جميع الناس زارع القلاقل.

وقبل أن يغادر ابن (بابل) رفاقه ترك لهم وصايا لمتابعة العمل الذي كانوا قد بدأوه. ولقد ودّ لو يقول كلمة لكل واحد من المقرّين إليه، غير أن الضابط ألحّ عليه بأن يقتضب مواقف الوداع.

عندما مَثَلَ «ماني» في القصر اقتيد إلى مكتب «الدهقان» الذي يدبّر شؤون البيت الإمبراطوري . واستمعله هذا بضع دقائق وغاب ، ثم رجاء لدى عودته أن يتبعه . وعلى كل حال فإنه لم يَنْتَهِ إلى قاعة العرش ، وإنما قاده عبر الدهاليز والحدائق إلى باب منقوش وواطىء سرعان ما أغلقه خلفه .

لقي «ماني» مشقة في التعرف على «شاهبور» في شخص الرجل الذي كان جالساً في هذه الحجرة الخالية من كل أثبة . فلم يكن هناك أي أثر لبذخ الذهب في هذه المرة . وكانت الثياب مفضلة بالطبع من أكرم القماش وفائحة بتناغم الزوائد التزيينية المضمومة إليها ، بيد أنها ما كانت لتبهر قط فوق كتفي أحد رجال الحاشية ، ولا حتى الشعر الطويل المعقوص والمضْمُخ بعطر الصندل . وكانت الحركات قد عِدِمَت الاستدارة الحذرة الخاصة بالاحتفالات الرسمية ، وبدأ أن الأصابع المتعويّة إصدار الأوامر بالإشارة المقتضبة كانت تتعزّى عن عدم جدواها بمداعبة الأكر المائلة إلى اللون الوردى في جهاز لترجية الوقت .

ولاذ اكتشف ابن (بابل) في بارقة متأخرة أنه كان في حضرة العاهل الإلهي فقد وضع ركبته على الأرض وهو يبحث في رُذنه لاستخراج المنديل الاحتفالي .

- دُعْ عنك هذا الـ «پادهام». «ماني»، هناك نفحات أقلّ نقاوة من نفحتك .
ثم انفض وتعال فاجلس إلى يميني على هذه الطنفسة .

كان الصوت قد هدا وصاحبته ارتعاشة على الرغم من أنه ظلّ يلجأ إلى إصدار الأوامر المتلاحقة . ولا ريب أن ذلك لم يكن غير انزعاج الممثل الذي خرج للحال من أداء دوره .

- تؤكّد التقارير الواردة من الأقاليم أنّ تعاليمك أخذت تنتشر، وأنّ جماعات بأسرها في المدن الكبرى بدأت تعلن انتماءها إليك . وبعض الأشخاص في هذا القصر فرحون بما تحرزه من نجاح، وآخرون يثور جنونهم أو يستنكرون بسبب الحوادث التي أخذت تتضاعف .

لم يفكر «ماني» في الدفاع عن نفسه . فلم يكن يبدو أن العاهل ينتظر ردّاً، وإنّما كان يروز بقية حديثه :

- إنّ ما حدث حتى الآن لا يقلقني كثيراً، فقد كنت أخشى حدوث أعمال مقاومة أشدّ عنفاً بما لا يقاس بتصرّفات ولدي الصبانية .

- إنّ هذه الحادثة قد طواها النسيان بالنسبة إليّ، وكل يوم يفصلني عنها هو عندي كمثّل قرن من الزمان، ولن أحتفظ منها بأيّ غلّ .

- أنت مخطئ في هذا فقد علّمتني الحياة عكسه . إن الوجود عِقْد من الديون وسلسلة من تصفية الحسابات، وفي إمكان المرء أن يُسدّها بحقارة أو بشهامة، غير أنّ عليه تسديدها . والصفح عندي لا يُطاق حتى عندما أكون المستفيد منه . وليس من حقّي، بوصفي حارس «الإمبراطورية»، أن أتسامح فيه . وسوف يُكفّر ولدي طويلاً عن ضعف نفسه وعصيانه .

وضعت نبرة العبارات الأخيرة «ماني» بحضرة «شاهبور» الذي عرفه في قاعة العرش .

- ألم يحدث قطّ أن صفحت؟

- فقط عَمَن قد يُثقل عليهم صفحي إثقالاً أشدَّ إيلاماً، من العقاب. وليس
ولدي البكر من هذه الجبيلة. وكذلك أنت، لي مآخذُ عليك.

كانت النقلة من المباغثة، بحيث أجفل «ماني».

- كيف تسمح لـ «بهرام» بأن يذللَّك على هذا النحو؟ أتراك نسيت أنك في
حمايتي تسافر وترشد في طول «الإمبراطورية» وعرضها، وأنَّ ضيائتي ونفوذتي هما
اللذان تحملهما في ذاتك، وأنتك بساحك بأن يُسخر منها تكون قد عملت على
الخط من قدرتي؟.

وإذ انقضت لحظة المفاجأة فقد اعتدل ابن (بابل) وحمل صوته الفخار
والتحدّي.

- إن لي أيضاً حامياً آخر، حامياً سبواً لا يخشى أن يُهان.

أطلق «شاهبور» ضحكة مُصطنعة ومُقتضبة كان لها على وجهه قيمة الاعتذار.

- لم أطلب منك المجيء لكي أعظك. ولقد خرجت عن طوري تكما أخرج
في كل مرة أتحدث فيها عن هذا الابن. وإني لأجد عليه أن هزئ بالحماية التي
كنت قد أوليتك إياها. وآسى على الأخص لرؤيته وقد أصبح دمية في أيدي
كهّان (ميديا).

« افهم ما أقول، فأنا لا أشعر بالعداء نحو الكهنة، ولقد كان شخص مثل
«جوفانويه» أقرب إليّ من والدي، فقد علّمني كل ما أعرف، وليس، بكامل
كيانه، إلا نقاء وإخلاصاً وحكمة. ولكنهم ليسوا جميعاً من هذه الجبيلة. وهناك
في مقابل كاهن مخلص واحد أربعون كاهناً يحملون بالسلطة ولا يتحيّون إلا
بالدسائس والمكائد. وهم يملكون على كل أحد كيف يلبس ويأكل ويشرب
ويسعل ويتجشأ ويعطس، وبأية عبارة يجب أن يُغمغم في كل مناسبة، وأية
امرأة ينبغي أن يتزوَّج، وفي أية لحظة يجب أن يتهرب منها أو يعانقها، وبأية
طريقة. ويجعلون الكبار والصغار يعيشون في هلع الدّنس والكُفر.

« لقد تملّكوا أفضل الأراضي في كل منطقة وجمعوا الثروات، وهياكلهم

طافحة بالذهب والعييد والحبوب؛ وعندما تبرز المجاعة فإنهم الوحيدون الذين لا يقاسون قطّ منها. ولقد كدّسوا الامتيازات على مرّ العهود. وما من يافع يُحسّن خطّ حرفين في لوح من غير أن يُمسك بيده أحد الكهنة. ولا من صكّ يتّبع يُعقّد من غير أن يقتطعوا نصيبهم منه. ولا من نزاع يمكن أن يُقضّ من غير حكومتهم. وفوق هذا فإن لهم أن يقرّروا ما إذا كان مرسومٌ ملكي متوافقاً مع الشريعة الإلهية، شريعة يفسّرونها بالطبع حسب ما يلائمهم. بيد أيّ أذعن وأنحاشي معارضتهم ولا أسعى إلى حرمانهم من هذه الامتيازات المفْرِطة. فهل تتصوّر أن ملك الملوك قادر على مثل هذا القدر من الصبر؟

فوجئ «ماني» بأنه شرع في حركة إشفاق فيها واصل سيد «الإمبراطورية» تعداد اتّهاماته.

- أتنظّر أنه يكفيهم هذا كله؟ إن ذلك سيكون جهلاً مُطبّقاً بكهنة (ميديا) ! إنه «العرش»، «عرشي» أنا، هو الذي يطمعون فيه، ولا شيء أقلّ منه، ولما كانوا عاجزين عن الاستحواذ عليه فإنهم يرغبون في تشويهه وإخضاعه لوصايتهم الجارفة.

« وإذ شعر أبي، «أردشير» الإلهي، بدنو أجله ذات يوم فقد حضر أعظمّ الكهنة إلى فراش مرضه يحملون بعناية فائقة بضع صفحات منسوخة من «الأفستا» وشرعوا يقرأونها بأهّة كبرى وسط دخان خائق من البخور. ماذا كانوا يبتغون؟ تعزية سيّدهم وجعل ساعاته الأخيرة أقلّ مشقّة؟ أن يصفوا له عالماً أفضل تُنسى فيه آلامه ويكون في مكنته أن يتبوّأ فيه مكانه بين ملوك الماضي الأماجد؟ كلا، إن شيئاً من هذا لم يكن ليجعلهم يهرعون من مواقد النار الأربعة الكبرى في «الإمبراطورية». وإذا كانوا قد تحرّكوا من أمكتهم فلغاية وحيدة هي حمل والدي الشائخ المتضائل على توقيع قرار يسمح للمؤبذان بتسمية الخلف على «العرش» ! وإن صوّر الأمر بالطبع بشكل آخر: إن ملائكة «السماء» هم وحدهم المفوضون حسب «الأفستا» لتسمية ملك الملوك المقبل، إلا أن اختيار الملائكة ينبغي، حسب فقرة أخرى من «الكتاب»، أن يُنقل إلى

المُؤبَذَان الذي يتعهَّد بأن يُنبئ به الناس .

« وإذ كان الأمر متعلِّقاً بي فإن المشكلة لم تكن مطروحة ، فقد أسهمت بقدر ما أسهم والدي في بناء هذه «الإمبراطورية» ، وكان قد أشركني أثناء حياته في «العرش» . ولكن الكهنة سوف يُعيدون الاهتمام بهذا الوضع العجيب حين أرحل . وقد بدأوا يمسسون على أيِّ حال في آذان ولَدَيَّ وإخوتي بأنه ينبغي على من يصبو إلى الوصول إلى سُدَّة الحكم أن يخضع لمشيئتهم . أفهمت الآن معنى حقيقي عندما يخرج ابني عن طوعي إرضاء لصانعي الملوك المزعومين أولاء؟ أفهمت معنى غضبي حين أرى واحداً من الذين أحبيهم يتعرض للإهانة على مرأى من عيون الكهنة القريرة؟ إن لك ولا ريب يا «ماني» حامياً يَحُلُّ بعيداً فوق المطامع الأرضية ، بعيداً فوق الأحقاد . ومع ذلك فإن حمايتي هي التي طلبتها أيها الطبيب البابلي . ولقد منحْتُك إياها . وقبلتها . وقد نُوِّهت بها في جميع المناطق التي زرتها . وليس لك الحق في الفرار ولا في خيانتِي ! .

الفرار؟ الخيانة؟

- لقد شأنت «السماء» أن أقبل على هذا القصر ، وأن يتفتَّح أُملي في كنف هذه «الإمبراطورية» وتحت هذا الحكم المبارك . فلماذا أرغب في الخيانة؟
- إنك لا تنوي بلا شك خيانتِي ، بيد أنك تخونني .

إنَّ الفهم ليزداد استغلافاً على «ماني» حين تكون النبرة احتفاليةً ، شبه ودِّيَّة ، من غير صلة ، على كل حال ، باتِّهام في مثل هذه الخطورة .

- لقد جئتُ تحدِّثي يا «ماني» عن دين جديد يحظَّر ، مع احترامه حكمة «زرادشت» وعبادة «أهورا - مازدا» ، على رجال الدين امتلاك الأراضي والذهب ، وبيقيهم في نطاق الصلاة والإرشاد والتأمُّل . وإنك لترغب في رؤية هذا الدين يسود لأن ذلك هو البلاغ الذي أُوحي به إليك ، وإنِّي لأرجو كذلك أن أراه ينتشر لأن مصلحة السُّلالة تقضي بذلك . وإنك لتبشِّر بالتساوق بين الشعوب والمعتقدات امتثالاً لأوامر «العلي» ، وإنِّي لأنشد في صلواتي التساوق

نفسه لأنه ضروري لتماسك «الإمبراطورية» ونماؤها. وأنا و«السياء» نلاحق الطريقة نفسها، وهي «ماني»، وأنت من أفهمني ذلك. وسوف نعرثر أنا و«السياء» على الأعداء أنفسهم يعترضون سبيلنا. وإني لأرغب في قتالهم وإفنائهم وأرجو أن أجِد فيك الحليف المقدّر من «السياء»، وأنت تعاند في خيانتني.

سُقط في يد «ماني». فما إنْ يظنُّ أنه فهم حتى يتكفّل «شاهبور» بالتّعمية عليه. ولو كان أمام أي شخص غير ملك الملوك لانفجر. وأما والحالة هذه فإن عليه أن يعبر عن غضبه بصورة مواربة.

- ما زلت لا أفقه الأمر الذي جرّوتُ على الخيانة فيه، ولكن إن كنت فعلت فعقابي هو الموت وأنا مستعدّ لمجابهته.

دفع انعامل برأسه إلى الوداء. ولكأنه كان يُشهد شعاع الشمس الذي كان يتسلّل من الكوة المنحوتة على شكل وردة. وشدّ سبخته النّونويّة إلى الأمام، حول أصابعه. ثم باح بقوله:

- إن حبي لك أشدّ من حبي لسولديّ أنفسهما. وما دمتُ حيّاً فما من يد ستنال منك، لا يدي ولا أية يد غيرها. ولكن لماذا تصرّ على الحديث عن إلغاء الطبقات؟

ذلك هو الأمر أذن، هذا ما ناجى به «ماني» نفسه شبه فريح بإدراكه آخر الأمر الغاية التي كان «شاهبور» يريد بلوغها. وكان قد أخذ يستجمع أفكاره لتبرير نفسه. غير أن الملك أعفاه من ذلك.

- من غير المجدي أن تعرض لي عقيدتك بحذافيرها، ففي وسعي تماماً أن أكون من رأيك. إنني ملك الملوك، ولست في حاجة إلى إعلان انتبائي إلى طبقة أو إلى عِرْق فهما اللذان يُعلنان انتهاءهما إليّ. بيد أننا إذا ما حاربنا الكهنة عجزنا في الوقت نفسه عن تطويع طبقة المحاربين للوقوف في صفّنا. فالمحاربون هم كل حكام الأقاليم، وكل قادة الجيش، وكل الأمراء! ولو انحاز جميع هؤلاء

الناس إلى الكهنة لَسُحِقَتْ وذهب أَمْلُكَ أدراج الرياح، ولن أَمْلِكَ، أنا نفسي، «شاهبور»، ملك الملوك وسَيِّد «الإمبراطورية»، أن أفعل لك شيئاً. بل ربما جرفني سقطتُك. إنَّك في كل مرة تتحدَّث فيها تكسب لقضيتك بعض المتعلِّمين والحِرَفِين والبرجوازيين، وكذلك بعض العبيد، كما قيل لي، وكثيراً من النساء، وكثيراً من الغرباء. غير أن هؤلاء المرِدين لن يساوا شيئاً في ساعة المواجهة الكبرى.

ثم تابع من غير أن يستعيد أنفاسه، ولكن بصوت كان قد لُطف فجأة وبدا فزعاً بعض الشيء:

- لقد أصدرتُ هذا الصباح أوامر بشأنك. وسوف يُخصَّص لك مقعد في كل قصر من قصوري. في قاعة الاجتماعات العامة، وكذلك في مجلسي الخاص. وسوف ترافقني أتى ذهبتُ.

- لديَّ رسالة عليّ إيصالها إلى الأمم...

- سيقوم بذلك تلاميذك باسمك. وأما أنت فستكون من الآن فصاعداً أحد أخصائي. وسوف تكون رحلتك مسيرة مظفَّرة بلا حوادث مُدَلَّة، بلا استفزاز ولا مشاجرات ولا اضطرابات. وإني أريد أن يلتفَّ حولك أناس من جميع الطبقات وجميع الأعراق، ولا سيما من المحاربين والأمراء وحكَّام الأقاليم. وحتى من بين الكهنة أريد أن تكسب بعض المرِدين. وإذا نجحت...

توقَّف «شاهبور» عن الكلام، وبدا أنه يتردَّد للمرة الأخيرة، ثم إنه، بنوع من الحياء، أو بشعور قريب من ذلك، غَضَّ بصره فجأة وهو يختم كلامه:

- وإذا نجحت فسوف يصدر قرار ينصَّ على أن مَلِك الملوك قد اعترَم أن يعتنق ديانة «ماني».

كان «ماني» قد خرج من زيارة القصر الأولى التي حصل فيها على حقّ بث الدعوة وحسب، مستبشّر الوجه مُقْتَحِمَ الخطو. وخرج من مقابلته الثانية، وقد وعده مَلِكُ الملوك باعتناق دينه وناشده أن يجمع حوله وحول رسالته مجموع رعاياه، مغموماً وكأنّه يحمل في آوٍ صليب «المسيح» وتاج «الساسانيين»^١.

ما الذي حدّد؟ ألم يكن ذاك أمله الأخير الذي يقترب أسرع مئة ضعف مما كان يتوقّع؟ غداً ملك الملوك، وبعد غد «الإمبراطورية»، ولن تلبث آراؤه أن تُحرّك البشرية جمعاء. ولم يكن الأمر حلماً من أحلام اليقظة وحسب، ولا وعداً من «توأمه» على حافة ترعة من ترع «دجلة»، ولا كان هو ذلك المتسوّل المشرّد زارع الكلام، بل كان النصر في متناول اليد.

ومع ذلك فقد ذهب يحبس نفسه بين جدران الغرفة التي لا يزال يشغلها في بيت «الكوس» في كل مرة يمرّ فيها بـ (المدائن). ولن يخرج منها اليوم ولا غداً وسيظلّ ساجداً ومُغمّناً في الصوم والتأمل من غير أن يُوجّه كلمة مُطمئنة إلى المريدين الذين احتشدوا حشوداً في كل ركن من المنزل والحديقة. «ديناغ» وحدها جسرت على الدخول لحظة لكي تضع بلا أدنى صوت كوز ماء على إفريز النافذة المُغلّقة.

إنّه لعجيب حقاً وعجيب هذا اللقاء بين صبيّ بستان النخيل الأعرج و«شاهبور» الذي كانت الكتابات والنفوش تدعوه «سليل الآلهة، وأخا القمر والشمس الأسمى، وسيّد الأقطار الأربعة...» فأية قرى يمكن أن تكون بينهما، وأيّ توافق، وآية حميمية، وأيّ فكر مشترك؟ ومع ذلك فقد لَوّح العاهل بحركات اعتذار. ومع ذلك فقد احمَرَّ وجهه وأشاح بنظره، ثم تمهّرب لمداواة حياته ما إن باح برغبته في اعتناق مذهبه.

اعتناق مذهب «ماني»؟ الارتداد عن دينه هو؟ هو، ملك الملوك، يضع ركبته على الأرض ويرجو «ماني» أن يباركه بوضع يديه عليه؟ ألا يكون ذلك خداعاً عريضاً وجائراً؟

ومرة أخرى انصبَّ ارتباك ابن (بابل) في عادثة مع «توأمة» الذي قال له بأوثق نبرة: .

«إن «شاهبور» يملك عنك من الطموح فوق ما تملك عن نفسك! إنَّه في هذا اليوم أقوى رجل في الدنيا، وجيوشه قادرة على هزم جيوش (روما) و(الصين)، وها قد تسمَّى عاهل «الشرق» و«الغرب» ويرى نفسه خليفة «الإسكندر». وقد أقبلت أنت يا «ماني» تعلن له أنَّ عصرًا جديدًا قد بدأ. وإنَّه ليرغب كثيرًا في أن يكون ذلك صحيحًا ولأن يتوافق «الوحي» مع بداية حكمه، أفليس هذا آيةً وجهتها «السماء» إليه، هو «شاهبور» لتؤكد له أن مطامحه مشروعة ومتطابقة مع مقاصد «العناية الإلهية»؟ وإنَّه ليرغب في الإيمان بك، ويريد أن تكون أكرم خَلْفٍ لأعظم الأنبياء، أن تكون صِنوًّا لـ «زرادشت»، بل أن تكون أعظم من «زرادشت». وبعدُ فإنَّ الأمراء الذين كانوا يحكمون زمن «زرادشت» لم يكونوا أعظم من «شاهبور»!.

- سوف أكون زينة عهد «شاهبور»!.

«لماذا لا يكون هو أداة حُكمك؟ ثم لماذا تتكلَّم على الزينة؟ لماذا تظهر بمثل هذه المראה وبمثل هذا الازدراء؟ إن هذا العاهل يريد أن تُعينه على تقليص شوكة الكهنة. ولكي يُقيم الانسجام بين الجماعات التي يحكمها فهو بحاجة إليك. وعندما يفتح جميع الأراضي التي يطمع فيها ويصبح تحت إمرته هذا العدد من الشعوب المختلفة فكيف يكون في مُكنته أن يحافظ على تماسك «الإمبراطورية»؟ أبناء هياكل النار في كل مكان لكي يزيد أكثر فأكثر من رقاعة الكهنة؟ أم بترك شيعة الآلهة الأفذاذ يستشرون وتستشري جميع هذه الأديان المتعصِّبة والمتناحرة التي تُسمَّى لـ «الإمبراطورية»، ولجميع الإمبراطوريات، آلاف السنين من النار والدم؟ أنت وحدك القادر يا «ماني» على تجنب ضلال الناس هذا».

- إن هذا الملك يريد غزو العالم بالسلاح، وعليَّ أن أشارك في هذا أنا الذي يشمئز من جرح لحاء شجرة تين؟

عندما خرج «ماني» آخر الأمر بعد ثلاثة أيام من عزلته لم يكن يحتفظ في كلماته ولا في صوته بأي أثر للشكوك التي كانت قد هزته وأقبل يعلن للأتباع الذين كانوا لا يزالون كثيرين بانتظاره أن النصر قريب وأن «الإمبراطورية» في سبيلها لأن تُكسب، وأنه بسبب هذا الأمل بالذات ينبغي أن تصل الرسالة بلا ريث إلى أبعد الشعوب. وطلب من أفضل تلاميذه أن ينتشروا في أقاليم الإمبراطوريات الأربع، من (الصين) إلى (مصر) و(أكسوم) [إحدى مدن الحبشة] المهمة، ومن (روما) إلى (تدمر). «كانت الديانات السابقة تتوجّه إلى منطقة واحدة، إلى لغة واحدة. وديانتي مصنوعة بحيث يجب أن تظهر في جميع المناطق وبجميع اللغات في آن».

وأما هو فإذا كان في الوقت الحاضر أقل حرية في تنقلاته فقد شرع في الكتابة بحمية تقارب الجنون. مئات الرسائل التبشيرية وأناشيد ومزامير وكتباً لم يكن يكتفي بخطها بيده، بل كان يزخرفها ويزيئها بالرسوم ويذهبها، وكان التذهيب الفرصة الوحيدة التي تتنازل فيها أصابعه لحسن الذهب.

وإلى هذه الحقة يرجع أحد أعجب المؤلفات في كل العصور، كتاب كان «ماني» قد عنوانه ببساطة «الصورة»، وفيه شرح مجموع معتقداته في سلسلة من الرسوم من غير استعانة بالكلمات. وهل كانت لديه أفضل من هذه الوسيلة للتوجه إلى جميع الناس من خلف حاجز اللغة؟

غدا طيف «ماني» مَذَاك مُلْكاً لمشهد البلاط. ولو حدث أن احتجب من أجل بعض الاجتماعات بأتباعه فإن «شاهبور» كان يستدعيه، حتى لتبلغ مرّات استدعائه ثلاثاً في اليوم نفسه، لاستشارته في كل ما يشغل باله رجلاً ومَلِكاً، سواء تعلّق الأمر بصحّته أو بالكواكب أو بحالات غضب أخيه - زوجته «أزور - أناهيت» أو بدسائس الكهنة اليومية أو بالعلاقات بين «الإمبراطورية» والقوى الأخرى التابعة أو المُعادية.

وكان في طليعة تلك القوى (روما)، منافسةً «الپارتیین» ثم «الساسانیین» الأبدية. ولم يكن تاريخها مصنوعاً من انطلاقات سُلالیة، بيد أن أعظم أباطرتها كانوا یُصَبُّون، شأنهم شأن «شاهبور»، وشأن أبيه «أردشیر» من قبل، إلى ضمّ شَطْرَي العالم تحت لواء نسورهم البرونزية.

«الرومان» و«الفرس»، موجتان عدوّتان حکم عليهما وسواسٌ مشترك بالکَرّ إحداهما نحو الأخرى، بالتحطّم إحداهما على الأخرى.

ولقد أراد «الساسانیون» الذين تُوغِل أراضیهم بعيداً في سهوب (آسيا) أن تظلّ عاصمتهم قائمة في أقصى الغرب من أملاكهم في منطقة غربية عن ثقافتهم كما هي غربية عن عباداتهم، بلاد (ما بين النهرین) السامیّة هذه، المسيحيّة

جزئياً منذ زمن؛ وكان حلمهم أن ينشروا راياتهم فوق مجموع الأراضي الممتدة من «دجلة» إلى نهر «ستريمون» الذي وُلد «الإسكندر» بالقرب منه. لكي لا تكون (المدائن) في يوم من الأيام مرحلة من مراحل «الإمبراطورية»، بل مركزها.

وفي هذا الوقت كانت (روما) متجهة بأسرها نحو «الشرق»، «الشرق» الذي كانت تتخذ منه وثناً وتؤلفه وتتوقع منه المجد والخلاص. وعلى هذا كانت ترفع إلى سدة الحكم قادة عسكريين قادمين من (الشام) أو من (جزيرة العرب)، وكان فلاسفتها القليلون يتلقون مبادئهم في (مصر)، وكانت المعتقدات التي تقبل بانتشارها هي معتقدات «أدونيس» و«هرميس المثلث العظمة» [اسم أطلقه اليونانيون المقيمون في (مصر) على الإله «توت»] و«ميترا» (الهندي - الإيراني) و«شمس (أميز) التي لا تغلب» [«أميز» هي اليوم مدينة «حمص» السورية، وكانت مشهورة في ذلك الزمان بمعبد كبير تقام فيه شعائر عبادة الشمس]، بل وأبعد المعتقدات عن التوقع، معتقد يهودي من أنصار العنف السياسي تمرد قديماً على (روما) وفوق ذلك كانت تداعب نخيلة المسؤولين في (روما) منذ زمن فكرة إنشاء عاصمة ثانية لـ «الإمبراطورية» غير بعيد من (البحر الأسود)، عند ملتقى (أوروبا) بـ (آسيا)، في المكان الذي كانت تقوم عليه (بيزنطة)، عاصمة يكون لها شأن في قابل الأيام، وقد تجرأ بعضهم مسبقاً على تسميتها - يا للغرور الدنيس! - (روما) الجديدة.

من من القوتين اللتين كانتا تتنازعان العالم كانت ستتصر يا ترى؟ لقد كان للموجة الساسانية حظوظها. فبينما كانت «السلالة الإلهية» تتوطد تحت شعار الملوك المؤسسين، كانت (روما) تتحلل في الفوضى. فطوال عهدي «أردشير» و«شاهبور» وحدهما توالى أربعة وعشرون «قيصراً» وكأنهم يتناقلون يقبض خنجر ليكون لهم بمثابة صولجان. وبلغ الأمر بالمواطنين أن يجهلوا اسم عاهلهم لساعتهم، ولم تكن الفيالق تدري من تطيع؛ فما إن كانت «المدينة» تهتف لإمبراطور جديد حتى يكون محارب آخر قد ثار في بلاد (الغال) أو في (داسيا) أو حتى في (إيطاليا) نفسها. ولم تعد مياه نهر «روبيكون» تذكر أيام طهرها.

وإذا حدث أن هدد البرابرة مثل «الهون» أو «السرماطين» أو «الألانيين» بعض الأقاليم الساسانية فإن ملك الملوك كان يُرسل إليهم فارساً من أكرم الفرسان، «إسفيداراً» مقداماً ما إن ينجز مهمته حتى يصرع للسجود بفخار عند قدمي عاهله لتلقي بعض كلمات الثناء أو حلة زاهية. وبالمقابل فإنه عندما كان يحاصر تراب «الإمبراطورية» أولئك البرابرة أو «الفرس» فإن الأمباطور لا يلبث أن يشعر بانزلاق عرشه. ولم يكن من الصعب التنبؤ بأنه ما إن تصدّ الفيالق العدو حتى يزحف قائدها المتوجّه بهالة نصره الفتى على (روما) للاستيلاء على الحكم. وإذا ما حدث بمعجزة أن كان لا يتوق إلى ذلك ولا يحجر عليه فإن قادة المئة في جيوشه سوف يعلنونه «إمبراطوراً» عليهم وعلى سائر أفراد هذه الجيوش. وطريق الوصول لكل من يصبو إلى خلافة «الجليل»: أن يرأس بنفسه جيوشه على أمل أن يقطف بيديه غار النصر. ولكن ما إن يتعدّد عن «المدينة» حتى يبدأ حوك المؤامرات.

وحتى على الجبهة لم يكن بمنجاة. ولا يزال المؤرخون يتساءلون عما إذا كان الإمبراطور «غورديانوس»، وهو ثالث من حلوا هذا الاسم، قد جرح حتى الموت حين ذهب يُناوش شمالي (ما بين النهرين) بيد أحد المرتزقة لحساب «الساسانيين» أو يطلب من رئيس حرسه الخاص «ماركوس يوليوس فيليبوس». وعلى أي حال فقد عزّت الشائعات التي سرت في «المدينة» الجريمة إلى هذا الأخير. الأمر الذي جعل منه تبعاً للتقاليد الدستورية المعمول بها في تلك الحقبة أقرب ورثة الفقيد إلى منطلق الأمور. وقد ظهر في قائمة الأباطرة الرومان باسم «فيليبوس العربي» إذ كان قد وُلد في كنف قبيلة كانت تترحّل على أطراف الصحراء في (جزيرة العرب).

قبيلة كانت قد اعتنقت في وقت مبكر جداً دين «الناصري». ويؤكد مطران «القيسارية»، «أوسيب» وهو من المؤرخين «للكنيسة» أن «فيليبوس» كان، قبل «قسطنطين» بكثير، أول إمبراطور مسيحي، وأنه كان يذهب بالسر إلى المغاور ويؤدّي شعائر الاعتراف مع عامة المستغفرين؛ وربما منعه هشاشة وضعه

وحدها على رأس «الإمبراطورية» من الجهر بما كان يُتَهاَمُ به في الأحياء
الوضيعة خلف نهر «التير» كما في أروقة «الكابيتول».

ولقد حكم خمسة أعوام، من ٢٤٤ إلى ٢٤٩ م. وإذا ذُكرت هذه الأرقام
على هذا النحو تبعاً للتأريخ المسيحي المتأخر فإنها تظلُّ نَكِرة. وينبغي نقلها إلى
التقويم الروماني لإدراك مرماها. إن عام ٢٤٤ م يوافق عام ٩٩٦ على بناء
(روما)، ويوافق عام ٢٤٩ م ١٠٠١. وعليه يكون قد احتُفل برعاية «فيليب
العربي»، في بذخ لا يُصدَّق، بمرور ألف عام على «المدينة». وإنها لأفراح
ضخمة امتدَّت أشهراً، ألعاب سيرك، استعراضات، عروض تمجيد
بالانتصارات، أضاحٍ، ولائم لا تنتهي في الساحات العامة، حول موضوع لا
يُنيُّ نَوّه به، ربّما لإشهاد الحقيقة: خلود «الإمبراطورية» وشرعتها.

إنّه لزمُنُ حكمٍ مقتضبٌ بالنسبة إلى هذا المحارب البدويّ المحاط بالألغاز.
ولكن أيّ زمن!

وإذ كان «فيليب العربي» راغباً كل الرغبة في تذوّق الاحتفال بتلك «الألفية»
وتنظيمها بنفسه، ومهتماً كذلك بإزاحة منافسيه من طريقه وفرض الهيبة على
جحافل القُوط المُزْعِجة، فقد كان بحاجة إلى هدنة طويلة في النزاع مع
«الساسانيين». وقد أوفد إلى (المدائن) ابنه الذي كان يومذاك في العشرين من
عمره.

ولما استقبل ملك الملوك المُوقَد في الفخامة الخُلابة التي تضجّ بها قاعة
«العرش» وأخذ يُصغي إليه متكئاً باليونانية في زَهْوٍ، ولكن بنوع من نفاد الصبر
الفنيّ كذلك، عن مُنيته العارمة في الوصول إلى سِلْمٍ غير محدود، فقد فكَّر قبل
كل شيء في (أرمينيا). فلقد كانت منذ عهد «الپارتين» ساحة مواجهة دائمة
بين (روما) و(المدائن)، إذ كان أمراؤها مرغمين على المناورة بشكل يُثير الإشفاق
بين الناهبين الجبّارين. وفي (أرمينيا) كانت تقوم ذراع الميزان الشاطِرة
«إمبراطورية الشرق» الكبرى عن «إمبراطورية الغرب». وعليه فإنها كانت هي

التي طالب بها «شاهبور» ثمناً للسلام.

وتنازل ابن «فيليب» عن كل شيء، بل عن أكثر من ذلك. وسوف تنسحب الفيالق من (أرمينيا) ويُدعى النبلاء المحلّيون إلى القبول بعد اليوم بسلطة ملك الملوك، على أمل أن لا يستثني «القيصر» - كما كان يدعو - «بشهامته التي لا تُضاهى» أيّاً كان من سخاء عهوده السابقة. ووافق «شاهبور» بإشارة متعالية. ثم وضع يديه، وقد تحرك بكل البطء الذي تستوجبه عزّته، فوق كتفيه شابكاً مرفقيه، وتلك أماره عنده على الاستغراق في التفكير. وقال في نفسه إنه ما دام هذا «العربي من روما» قد عدل في ثوانٍ عن تطلّعات عمرها عمر الزمن فذلك يعني أنه مستعدّ لأن يدفع غالياً، غالياً جداً، ثمن السلام الذي يستجديه! ولكي يسبر أغواره أعمق نأعق فقد غامر بصوغ طلب مُغالى فيه. وسوف يشعر معه ابن «قيصر» ولا ريب بالإهانة، إلا أن ذلك سيُتيح فيما بعدُ رسم الحدود الدائرية لمعاهدةٍ ما.

وإذ لم يكن «شاهبور» يريد من البداية توريط شخصه الإلهي لأنه لن يكون من المناسب التنازل عن أدنى تفصيل من تفاصيل النزاع فقد أشار إلى أمينه بالاقتراب وأمل عليه في أذنه الوضع الذي سيُكلّفه التعبير عنه.

قال ما معناه إن (أرمينيا) لم تكن يوماً في نظرنا موضوع نزاع. وإذا انسحبت منها الفيالق فلن يكون الأمر كَرَمًا منها بل مجرد حكمة لأن جيوشنا الباسلة تتجهّز لكي تُعيد بحدّ السيف حقوقنا الأبدية في هذا الجزء غير المدافع من أراضينا. كلاً، إنّه إذا كان «قيصر روما» راغباً حقّاً في السلام بقلب خالص ومن دون رغبة في الخداع، فإن عليه أن يختار الطريق الذي سلكه كثيرون من الملوك الآخرين الذين عرفوا كيف ينالون رضانا.

انتظر المُوفد و«بادهامه» في يده أن يُعلن الأمين إرادة سيّده.

- على «روما» أن تدفع إلى «شاهبور» الإلهي، ملك الملوك وشقيق «الشمس» و«القمر» وعاهل «الشرق» و«الغرب»، مئة ألف قطعة ذهبية في كل عام.

جزية! لسوف يدفع الإمبراطور الروماني إلى «الساسانيين» جزية سنوية! ويكون تابعاً له، كما هو حال خان «الساسيين» [قبائل بدوية من «تركستان» الغربية كانت قد أقامت لنفسها إمبراطورية بجوار (آسيا الغربية)] أو العُرف الأكبر لـ «الفرتيين» [جماعات بدائية من سكان شمال (آسيا)] أو مُرُزبان «الجدروزيين» [سكان منطقة قديمة من آسيا] تعادل اليوم «بلوشستان» تقريباً! لقد غدا وجه المُوقَد الشاب يلون الأرجوان وانغرزت أظفاره في راحتيه وضغطت قبضته في سخط المنديل الأبيض وساورته رغبة في رميه كرة مدعوكة في وجه مَنْ قد أهانه. وحبس رجال الحاشية أنفاسهم وتوقعوا أن يروا «الروماني» ينصرف راکضاً لإبلاغ أبيه بالإهانة التي أصابته. وعندها سوف يستأنف المحاربون نشاطهم كأقوى ما يكون النشاط. بيد أن ابن «فيليب» لم يُغادر مكانه وتراخت قبضته شيئاً فشيئاً وانبسّطت وجنتاه حتى فقدتا كل لون من ألوان الدم. وعرف كيف يستعيد رباطة جأشه، بل جهد في اصطناع ابتسامة. وعندما سُمِعَتْ من قمه بعد ثوانٍ لا تنتهي بضغْ جَلٍ متناسكة فإنه لم يَسْمَعْ إلى رفض مبدأ يتعلّق بجزية، وإنما اكتفى بالمفاوضة على المبلغ الذي سيُدفَع وعلى طرائق دفعه.

لم يجرؤ «شاهبور» على تصديق ذلك، وعزا هذا الحدث الشاذ برُمته إلى عدم خبرة المُوقَد. ولا ريب في أنه سيؤخّر لدى عودته إلى أبيه وتبرّأ منه.

ولم يحدث شيء من هذا مع ذلك، ولسوف يدفع «فيليب». كل عام. المبلغ المتفق عليه. وسيكون الاحتياط المتبع هو أن تحمل الذهب قافلة من رجال قبيلته لكيلا يتعرّض اسم (روما) ولا ثياب عسكرها للإذلال. وإذا أنقذت المظاهر على هذا النحو فقد أصدر منذ تسلّمه العرش قراراً يُسند فيه إلى نفسه علاوة على لَقْبِي «إمبراطور» و«جليل» لقب «قاهر الفُرس الأعظم».

لم يدِر «شاهبور» بالطبع بكلمة واحدة من كل هذه الادّعاءات الفارغة، وتأن غداة المعاهدة يطفح بِشْراً. ولو أن أذن ريب كان قد ساوره على مصيره

المجيد، فإن الرب كان قد تلاشى. ولم يكن هناك ما يمنعه من التفكير بأن «العناية» كانت قد عيّنته على الدوام لحكم المخلوقات بأسرها. فكيف يُلام؟ وما الذي كان في وسعه أن يرجوه خيراً من وجدان نفسه سيّداً على منافسه الأوحى؟ وعندما كانت تصل كل عام شتاء القافلة التي تحمل ذهب الخضوع الروماني، كانت تُقام الاحتفالات ثلاثة أيام وتتخَرُّ الهياكلُ الأضاحي وتُوزَّع المؤن في جِرار كاملة على المُعوِّزين. وسريعاً ما كان ينتشر الخبر مجلجلاً في العاصمة، ثم في الأقاليم والممالك المشاركة، على يد الرُّسل لیسْمعه كل أحد، من أقوى حُكّام المناطق إلى أوضع رئيس قرية.

وذلك ما أَمَّن لـ «شاهبور» خضوع الجميع: فالرجل الذي كان يدفع له «قيصر روما» الجزية، منذ الذي يجسر يا تُرى على مقارعته؟

كان ملك الملوك يبدو راضياً أشدّ الرضا. حتى وإن وشت من حين إلى آخر كلمة واهية بحرمانه المتنامي. فما دام «الرومان» مُبَلِّلين وقابلين للطعن إلى هذا الحدّ أفلا يكون خفةً منه الاكتفاء بقبض جزية في حين أن بمقدوره صَرْع العدو المبض بضربة واحدة؟ ولماذا يُتيح لـ «الرومان» مجال تدارك أنفسهم مُضيعاً هو نفسه سنوات نفيسة؟ لقد جاوز الأربعين بكثير فهل ينتظر أن يشيخ قبل الانقضاض لغزو «الغرب»؟ بيد أن المعاهدة معاهدة، وليس «شاهبور» بالرجل الذي يحث بكلمته أو يخون خاتمته. ولسوف يخطئ خطأ فادحاً، هو الذي تتألف سلطته من آلاف أيمان الولاء، في أن يُقدّم المثال على الغدر.

وبدا أن صراعه مع نفسه قد حُلّ في اليوم الذي علم فيه بوفاة «فيليب» وقد ذبحه، كما جرت العادة، عسكريه الثائرون وذبحوا في الوقت نفسه ابنه ومعظم مساعديه. ومعهم عدد كبير من المسيحيين المُتهمين بمساندته.

وإذ دعا «شاهبور» أعيان «الإمبراطورية» الساسانية الرئيسيين وبعض النُصحاء فقد طلب منهم أن يُعَبِّروا بحرية عن السبيل الواجب اتّباعها. وكان «كردير» أوّل من حرّك «بادهامه» وقال:

- لقد أبدى «سيدنا» كرمأ متناهياً تجاه «الرومان». ولقد دُلّ، هو الذي كان

في وسع جيوشه المظفرة تشويه الكفرة وإبادة «إمبراطوريتهم»، على صبرٍ وطيبٍ ووازع خلقي تُشرِّفه، بيد أن أعداءنا لم يكونوا ليستحقوها! ولقد قامت معاهدة بين سيدنا والقيصر فيليب». وإذا كان هذا الأخير قد وفى بها فما ذلك بواجب الشرف وإنما بالخذاع المحض بسبب الإرهاب الذي كانت توحى به إليه قوة السلالة الإلهية. والآن وقد عاد «فيليب» إلى «ظلمات أهريمان» فسيكون في وسع (روما) أن تذوق غضبنا العادل كما ذوقت طويلاً شهامتنا.

لم يتحَفَ على أحد النقد الموجَّه إلى السياسة المتبعة حتى الآن، على الرغم من كونه مغلفاً بالمدح. ولم يكن على كل حالٍ من صنع «كردير» وحده لأن كل الذين عقَّبوا، كهنة كانوا أو أمراء أو أمناء، أوصَّوْا باللجوء إلى السلاح.

وعلى الرغم من الخطر المفروض بالنظر إلى شخص ملك الملوك فقد كانوا يرفعون أحياناً نظرة خاطفة محاولة منهم لَرَوُز مشاعره ومزاجه. والذي لا شك فيه أن ما كان الوجهاء يقولونه كان يتلاقى وأخص اهتماماته. لقد أخَّر شُنُّ الحرب على (روما) طويلاً، طويلاً جداً. وما هي ذي تفرض نفسها بعد اليوم وقد عُثِرَ على الداعي إليها. وكان العاهل على أهبّة الكلام باحثاً فقط عن الكلمات المناسبة، إذ لم يُرد أن يُقدِّم الانطباع بالاستسلام إلى استفزازات الكاهن، عندما لَوَّح «ماني» الذي ظلَّ متوارياً حتى الآن، بمنديله. وإذا اعتمد على ذراعه اليمنى للخروج من الطنفسة السميكة التي كان يجلس عليها فقد بدأ بتعداد الامتيازات التي كان ملك الملوك قد نالها «بفضل سياسة الصلح الماهرة التي انتهجها»، متوكِّفاً على سنوات الرخاء التي اجتازتها «الإمبراطورية» الساسانية، وعلى المكانة السامية التي اكتسبها في عيون جميع الأمم «أولُ الناس». وكان الاستهلال بارعاً في تلطيف ندم «شاهبور» ووضعه في موضع أفضل في مواجهة جميع مُلقني الدروس. ثم حذَّر: .

- إذا انطلقت عساكر السلالة لمحاصرة «الإمبراطورية» الرومانية فسيكتب لهم النصر لا محالة، بيد أنهم سيرغمون الفيالق على الاتحاد تحت قيادة واحدة. وبدلاً من الإجهاز على العدو، كما يُطالب بذلك بعضهم، يكون قد عولج بدواء

قويّ، مُؤلم ولكنّه ناجع، ومُخلّص بالنسبة إليه. أفيكون ذلك هو الهدف الذي صبا إليه من تحدّثوا قبلي؟ أفيكون هذا الجنون هو الذي يريدون أن يُسدّلوا به السياسة الرشيدة التي يتهجها سيّد «الإمبراطورية»؟.

بدا «شاهبور» مضطرباً، يل لقد كان التردد يُقرأُ بجلاء على ملامحه، وأخذت بعض المتاديل تهتزّ حوله بفوضى. بيد أنه لن يسمح بالكلام، فقد آن الأوان لكي يستعيد سلطانه ويلفظ الكلمات الحاسمة: .

- إنه لم يتغيّر شيء بالنسبة إلينا فيما يتعلّق بالمعاهدة مع «الرومان». فعندما يحلّ «قيصر» محل آخر ينبغي عليه أن يحافظ على التعهّدات التي قطعها سلفه. وسنواصل «نحن» والحالة هذه احترام تعهّداتنا بإخلاص. ولكن إذا انقطع دفع الجزية «فلننا» سنُجيب بكل القوة التي نملك الحقّ باستعمالها تجاه الخونة. ولكي نحتاط لكل احتمال «فلننا» ننوي استدعاء جميع تابعينا والشعوب الخاضعة والجنود المرتزقين. وعند أول بادرة خيانة نرحف جيوشنا المظفّرة إلى ساحل «الغرب» نحو (الأناصول) و(كبادوسيا). وتستمرّ، أبعد من ذلك، في تخريب أقاليم «الرومان» حتى يأتوا «إلينا» لتجديد خضوعهم المذلّ.

ما إن انصرف الأعيان حتى أخذوا يرحون في أروقة القصر متحدّثين عن خيانة العدو الفطريّة، وعن جُبن عسكريه وزعمائه الذي يُضرب به المثل، وكذلك عن استعصاء ملك الملوك المؤكّد على الهزيمة. وحده «ماني» ظلّ مُنزويّاً ساهماً، ولم يلبث أن نسيه الجميع. وما إن خلت قاعة المجلس حتى ذهب إلى كبير الأمناء لطلب لقاء خاص مع «شاهبور». ولقد استقبله بلا إبطاء.

- كان بودّي أن أضيف كلمة، غير أن الكلام كان قد حقّق لمن له الكلمة الفصل.

أشار إليه العاهل أن يتابع.

- لقد حدّد سيّد «الإمبراطورية» أنه سيعاقب «الرومان» إذا توقّفوا فقط عن دفع الجزية. أتراني أدركت جيّداً؟.

- تعلم أن خصوم «فيليب» قد أخذوا عليه توقيع اتفاق غير لائق وبُخس .
بل ربّما كانوا قد قتلوه بسبب ذلك .

- ربّما . ولكن لو اختار «القيصر» الحديد لسبب من الأسباب الاستمرار في
الدفع فهل تُشنّ عليه الحرب على الرغم من كل شيء؟ .

- كنت واضحاً جداً بهذا الشأن . إذا احترموا كلمتهم احترمتُ كلمتي ! .

- لماذا إذن إرهاب الخزينة والتابعين والفرسان وجميع الرعايا بالمصاريف
الباهظة التي تستتبعها عمليات الحشد حتى قبل معرفة وضع «الرومان»؟ فما إن
يُجمّع الجيش وتُورّط القبائل التابعة والعساكر المرتزقة حتى يرغب الجميع في
القتال والعثور على الأسلاب، فلن يكون بالإمكان إعادتهم إلى بيوتهم خالي
الوفاض . لقد رُوي هذا في الزمن الغابر، فإنه يُدقّ النفير بسبب تهديد
بالحرب، ثم ينتهي الأمر، حتى وإن انزاح التهديد، بشنّ الحرب لأن الجيش
كان قد حُشد .

- لن تُطرح المسألة . فكل أحدٍ يعرف ما سيكون سلوك «الرومان» ثم إنني
سبق أن أعلنت قراري ولا مجال للعودة عنه بالنسبة إليّ .

- ليس السيد بحاجة إلى العودة عن أيّ شيء . لقد قال إنه سيحشد
عساكره، وفي وسعه أن يفعل، ولكنّ أحداً لا يمكن أن يُرغمه على استدعاء
جميع حكام الأقاليم وجميع القبائل وجميع التابعين في الوقت نفسه . وفي الإمكان
اتخاذ الاستعدادات على مهل . وإذا حدث أن اختار «الرومان» سبيل التحدي
أمكن أن تتسارع عملية الحشد .

- لم يكن هذا في نيتي، غير أنني أودّ كثيراً قبول حُججك واتباع نصائحك .
ولتُشأ «الساء» ألا أندم على ذلك . واعلم يا «ماني» أنه ما كان بمقدور أحد من
الحاضرين في «المجلس» أن يجعلني أبذل رأيي . وإذا أصغيتُ إليك على هذا
النحو، وإذا سلّمتُ برأيك، فلأن لك عند هذه السُلالة وفي مصيري الخاصّ
مكاناً لا تعرف به أنت نفسك .

تخاشي «شاهبور» في الأسابيع التي تلت ذكر التحضيرات العسكرية؛ ومع ذلك فقد كانوا نُدرَة أولئك الذين خنّوا في أروقة البلاط أيّ تغييرٍ في السياسة؛ وكان الناس يفسّرون سلوك ملك الملوك برغبته في الظهور مُطمئناً ومُحتقراً إزاء حرب كان يعتبرها كل شخص في (المدائن) مكسوبةً سلفاً. ولقد كان يُقال إنّ العاهل سوف يقود الجيش الكبير بنفسه يعاونه أحد ولديه. ولكن أيهما؟ البكر «بهرام» الذي جرى العفو عنه مُجدّداً، والذي كان يُحبّذه معظم الكهنة والمحاربين؟ أم «هرمز» المعروف بأنّه الأبلس والأحزم، ولكنّ مخالطته «ماني» وآراءه قد تكون رهّلتة قليلاً كما يُقال؟.

لقد نضبت المراهنات عندما وصل على غير انتظار سفير روماني حاملاً بلاغاً من الإمبراطور الجديد «دسيوس» إلى «أخيه الإلهي» «ملك الملوك»، يؤكّد له فيه أنّ المعاهدة المعقودة مع «فيليب» سوف تُحترم حتى في بنودها غير المُعلّنة؛ وعلى أيّ حال فإنّ الذهب كان في طريقه لا بالمواكبة الحجولة من القوافل البدوية، وإنما بشكل أكثر علانية، بمواكبة مَفَرّزة من الحرس الإمبراطوري!.

كان على القوم في (المدائن) أن يغتبطوا. فحتى ذلك الحين كان الولاء الذي ارتضاه «فيليب» من صنع رجلٍ بمفرده، مُغتَصَبٍ وصل بفضل نزوات الحظّ إلى قمة «الإمبراطورية»، وهو مستعدّ للتضحية بالخزينة والأقاليم لأجل الحفاظ على السلطة. وكانت (روما) بأسرها هي المعترفة في الوقت الحاضر بأوّلِيّة ملك الملوك!.

ومع ذلك فقد كان المزاج في البلاط الساساني مزاجٍ جداد. فلقد شعر الدين كانوا يتمنّون المواجهة بأنهم حُرّموا أمانيتهم، بل أخذ بعضهم يُفكّرون في نصب كمين للمؤفّد الروماني رجاءً لإحداث ما لا يمكن إصلاحه. إلا أن حزب الحرب كان يخشى، على الرغم من نفوذه، أن يجلب لنفسه صواعق «شاهبور». وقد كان هذا نهياً مقسّماً. فإذا كان العمل العسكري لا يزال يُغريه فإنه أخذ يتدبّر معنى الولاء الروماني الجديد، وقد كان هذا يُدغدغه ويؤكّد له على الأخصّ ضعف العدو المُقيم.

كانوا كثيرين أولئك الذين فسّروا، شأن «كردير»، تردّد العاهل في عقد العزم بالتأثير المتزايد لـ «ناصرى بابل اللعين». فلم يكن أحد يجهل بالفعل الخَلَوَات اليومية بين الرجلين. وكان «شاهبور»، وهو لا يستطيع نسيان كون «ماني» الوحيد الذي توقع سلوك «الرومان»، يطمئنّ لحُكمه؛ وكان يفتح له قلبه كلما اجترأ أفكار الحرب. وكان ابن (بابل) يُحسِّن إيجاد الحجج المثمرة.

.. لا ريب في أن «الرومان» فزعون لرؤية جيشك يحتاج أقاليمهم ويهدد حواضرهم. وهذا الملح الذي يسكن نفوسهم هو بالنسبة إليك مَعِينُ امتيازات كبرى. أديم هذه الحالة واحصل من عدوك على كل ما يُرغمه ضعفه على منحك إياه واتركه يؤكد عاماً بعد عام في عيون جميع الأمم سموّ قدر سُلالتك وشخصك. فلماذا يُغادر أولّ الناس الموقع الذي تكرّمت العناية بأن يكون موقعه ليخضع للمصادفات الناجمة عن عملية حربية؟.

لقد رغب العاهل كل الرغبة في أن يرضى بهذه الحجج ما استمرّ العدو في دفع الجزية. ولكنّ شيئاً في (روما) لم يكن ليتظم. فبعد ستين على موت «فيليب» قُتل خلفه بدوره. ولم يكن عدد المرشحين المتنازعين على السلطة يقلّ في الوقت الحاضر عن أربعة. وكان أحدهم يُربّل من حين إلى آخر مُوقداً إلى ملك الملوك لاستردار رعايته والتماس حُظوته. وكان ذلك يُسَلّي «شاهبور». أفيكون سيّد (روما) المطلق وحكماً فوق ذلك في المنازعات بين قَوادها؟ لم يكن «الساساني» قد حلم يوماً بامتياز يمثل هذه الغرابة.

إلا أن الذهب لم يصل في أجله في الصيف التالي. ولم يكن ذلك من جرّاء رغبة طوعية من (روما) في نقض المعاهدة المُبرّمة مع (اللدائن)؛ بيد أنّ أحداً من «القيصرة» الأربعة لم يكن قادراً على دفع مثل هذا المال. فكل واحد من المتشوّقين إلى الحكم كان بحاجة ماسة في صراعه مع منافسيه إلى الذهب الذي يملكه.

وفي البلاط الساساني عادت الحرب تحتلّ مكانها في الأمر اليومي. ونشط الكهنة والمحاربون، ولم يَسْغَ «شاهبور» إلى الوقوف في وجههم. وعندما انفرد

خلال هذا المَهرَج والمَرج مَرَّةً جديدة بـ «ماني» فإنَّ ذلك لم يكن للاستماع إليه يتحدَّث مجدداً عن حسنات الهدنة.

- لقد أصغيت إليك على الدوام أيها الطبيب البابلي حتى إني أتبع نصائحك على حساب ميولي الشخصية. والآن جاء دورك يا تحميي ورفيقي للانضمام إلى رأيي، وأريد، في هذه المعركة التي ذرت بقرنها، أن تكون إلى جانبي، بكُلِّيتك، بكُلِّ نفسك وبكُلِّ ذكائك، أنت يا مَنْ جعلتُ منه أحد أعمدة حُكمي، وأحد أعمدة السُلالة.

« لقد فُرِضتُ عليَّ هذه الحرب. وأبديتُ طويلاً الصبر والمروءة، ولم أرغب في نقض الهدنة مع أنه كان في وسعي أن أفعل، وفي حين كان الكهنة يؤكِّدون لي باسم «الأفستا» أن الأمر سوف يكون مشروعاً وجديراً بالثناء. وعليه فقد أصغيتُ إليك وعدلتُ عن حشد جيوشي لأقدم إلى «الرومان» فرصة احترام عهودهم. ولقد توقَّفوا الآن عن دفع الجزية وانتهكوا بأيديهم المعاهدة التي كانت تحميهم. وأياً تكن أسباب هذه الخيانة فإنني لا أستطيع التسامح فيها من غير أن أفقد احترام رعاياي وولاءهم. وينبغي أن يكون العقاب على قدِّ صبري وسخائي.

« وإذا تمكَّنتُ من دحر «إمبراطورية القياصرة» فسوف تكون هذه الحرب هي الأخيرة. وسيسود عصر من السلام بين البشر. وإني لأعلم أنك تمقت سفك الدم، حتى وإن كان دم أعدائي. بيد أنك لن تحون وأنت ترى نفسك إلى جانبي في هذه المعركة أياً من مبادئك؛ لأنه بفقدان بعض الحيوات سوف تُنقذ أخرى أكثر عدداً بكثير منها.

« لقد حذرتني أناس كثيرون منك يا «ماني» على مدى هذه السنين. بعض الحساد وبعض الذين تأكل الغيرة صدورهم، ولكن بعض الناس ممن أظنهم متفانين أيضاً ومخلصين. ولقد ردَّدوا على مسمعي «سوف يظلُّ هذا «البارتي» إلى جانبك ما دمت تُهادن. ولكن ما إنَّ يحلُّ وقت الفتوح حتى يتركك. فكيف تستطيع أن تُعدَّ بين ذوي مودتك شخصاً يغتبط لما تبدي من تردُّ وإرجاء

ويحزن غداً لا انتصاراتك؟» هل قالوا الحق؟ أجهل ذلك. ومع ذلك فإني أرجو مساندتك أنت بالذات، ومعك أريد أن أقود هذه الغزاة.

لم يكن «شاهبور» قد خاطبه قط بمثل هذه النبرة؛ لا خاطبه هو ولا أي شخص غيره. ولا سبق قط أن انتظر بهذا القدر من الصبر رد فعل واحد من مخاطبيه. ولقد طمأنته عبارات «ماني» الأولى.

- صحيح أنني أمقت سفك الدماء، بيد أنني لا أمقت الفتح. بل أنا على العكس أحلم بالفتح؛ وإذا كان سيد «الإمبراطورية» يطمح اليوم إلى اجتياح بلاد «آرام» أو «كبادوسيا» أو «إسبريا» فلن طموحي أنا، «ماني»، أن أغزو (روما)، لا أقل من (روما)، (روما) بـ «إمبراطوريتها» بأكملها، ولن أكتفي بأي إقليم مهما كان اتساعه وازدهاره. أريد غزو (روما) وأعلم أنها ناضجة للغزو. وإن لي الآن في هذه المدينة لعشرات التلاميذ الذين يوافوني في رسائلهم بكل ما يفعل فيها ويقال. إن (روما) لفي عطش إلى دين جديد. لقد طالما اقتنعت بأن «إمبراطوريتها» لا تتبدل، وأن شريعته خالدة، وأن «الأرض» و«البحر» ملك لها إلى الأبد وأن «السماء» سوف تحميها لا محالة. واليوم تشك (روما) في نفسها، في ملوكها الزائلين، في «إمبراطوريتها» المحاصرة على جميع الجبهات، في آلهتها الذين يُنسَوْنَ أن يحموها؛ إنها تشك في وفرة غناها وهي تتأمل في أحيائها التي تمتلئ بالمعوزين. إن (روما) تنتظر من نواحي «المشرق» غازياً كما تنتظر امرأة ناضجة العشيق، ولن يُستولى عليها بالسيف، بل بالكلمة الخلاب، أجل إن كلمات الحب هي التي ستجعلها تفتح ذراعيها.

«أنا مستعدٌ للذهاب إلى (روما). وكما استطعتُ فيما مضى أن أجمع في (دب) عبدة «بوذا» وعبدة «أهورا - مزدا» فإني سأجمع فيها أتباع «الناصري» على قدم المساواة مع أتباع «ميترا»، من غير أن أضطهد مع ذلك الفلاسفة ولا أن أنكر «جوبيتر». ولسوف أبشر فيها بدين لجميع البشر، دين يكون مركزه (المدائن) التي سأكون رسولها المتواضع ويكون ملك الملوك حاميتها. ترى ألن تكون هذه

غزوة كبرى جديرة بـ «دارا» وبـ «الإسكندر»، بل أكبر وأنبل، وأدوم على الأخص، من غزوات الماضي؟.

سُقط في يد «شاهبور». غير أنه لم يُرد أن يتوقف عند مواقف سوء التفاهم. وفضل أن يدين «ماني» من فمه.

- تتحدث عن الفتح وأحدثت عن الفتح، ومن الطبيعي ألا نستخدم الأسلحة نفسها، بيد أننا نملك المطامح نفسها. وفي مقدورنا معاً أن نبني في هذا العالم ما لم يستطع إنسان بناءه من قبل. لقد وُجد ملوك فاتحون همهم سؤق مجموع المخلوقات إلى مصير أفضل، غير أنه لم يكن إلى جانبهم من «رسول»؛ ووجد أنبياء قديسون ويُلقاه، خليقون بأن يصفوا للناس مستقبلاً واعداً، بيد أنه لم يكن إلى جانبهم عاهل قدير تُحرّكه المطامح نفسها. وللمرة الأولى تُصادف رسالة سهاوية حُكماً عظيماً.

« إن عالماً جديداً سوف يتشكّل تحت أبصارنا. ومعاً، ملك الملوك و«رسول النور»، سوف نذهب إلى (أرمينيا) و(بلاد آرام) و(مصر) و(إفريقيا) و(كبادوسيا) و(مقدونيا)، وسوف أقيم في (روما) عينا حكم السلالة العادلة، وتعلن أنت الدين العالمي الذي يشمل جميع المعتقدات. شاطرني إذن حلمي كما أصبو إلى مشاركتك حلمك، ولسوف أجمع الكون بقوّتي كما تناغمه أنت بكلمتك.

« إن الكهنة يتهاككون على بابي، وهم يريدون أن تكون هذه الحرب، هذه الغزوة غزوتهم. إنهم يرغبون في أن يُبطلوا في كل بلد مجتاه المعتقدات التي لا تروقهم ويفرضوا على الجميع ديانة «الآرين». وفي مكان آخر يتأهب شيعة الآلهة الأنانيين للانقضاض على العالم ليقيموا في كل مكان حكم التعصب. أنا وأنت، وأنت وأنا وحدنا، نستطيع بعد الحؤول دون ذلك.

« تعال، تقدّم إلى جانبي على رأس الجيوش، ولن يكون عليك سوى كلمة واحدة تقولها وأترك الكهنة الملاحين في بيوت نارهم وأسميك لأتباعي وفرساني

وجميع رعاياي وأعلنهم أن هذه الغزاة ستتم باسمك، باسم الدين الجديد الذي أنت «رسوله».

غدا العاهل الآن مُتَحَمَّساً، بل شبه ضارع. وشلت الدهشة والتأثر «ماني». ولم تخرج من فمه آية كلمة. وبعد أن صمت «شاهبور» بضع دقائق تابع بنبرة الجلالة المُستعادة.

- أعلم أنك لا تُقرّر شيئاً ما لم تستشر هذا الصوت السماوي الذي يُناجيك. هيّا اذهب واعتزل وتأمل وتحذث إلى ملاكك. ثم عُدّ حاملاً إليّ الجواب.

* * *

هكذا ذهب «ماني» يطوف وحده في حدائق القصر. وقد أصبح الحرس يعرفون الآن ظَلَعَه ومعطفه الأزرق وعصاه، فكانوا يَدَعُونَهُ يَجُولُ حسب مراسيم الزيارات المعتادة. والحق أنه كانت له هنا عادات ودروب مروّضة، وكان يغشى بعض الأشجار وغديراً كان يأتي بصورة خاصة للجلوس عند حافته طاوياً إحدى ساقيه تحته وماداً الأخرى بالطريقة التي كان يترجّع بها صبيّاً على ضفّة ترعة «دجلة»، بل واجداً في عرين أقوى ملك في الدنيا ذلك الخليط من السلام والاضطراب الذي كان يُتيح له أن يغرق في التأمل.

لكي يُتاح لصوته الداخلي أن يُسمع.

«هناك لحظات يا «ماني» يكتشف فيها الإنسان سيفاً في يده. ويخجل من استعماله، مع أنه هنا، بارد قاطع وإعد. والدرب مرسوم. لقد وَجَدَ «رُسُلُ» قبلك أنفُسَهُمْ في حالات مماثلة. وانبغى على كل واحد أن يختار لنفسه، بمفرده. وها أنت ذا بمفردك. أكثر من أيّ وقت مضى. بمفردك ضد رأي «شاهبور» وأفراد حاشيته. بمفردك في مواجهة حساب «العناية الإلهية». وعليك بلا أيّ فانوس سوى قطعة «النور» التي في داخلك أن تُتميّز وأن تختار.

- يكفي أن أقول «نعم» ليفتح لي سيف ملك الملوك دروب الكون الفسيح. «لسوف يُسجّ باسمك الناس إذن عصراً بعد عصر، وترفع صلوات إلى

«ماني»، ويُضْحَى على اسمه، ويُحْكَم باسمه ويُقْتَل بلا ندم بذكر اسمه».

- ما زال في وسعي أن أرفض... .

«ترفض، تجعل لحكم القابل للشيء وسذاجاتك تعترض سبل الحرب، تعترض، تُعايِد، تتعلق بكل ميزة من سلام أو مهادنة. ويُعلن اسمك ويُحَى وتنشؤه رسالتك».

- طويلاً؟

«ربما حتى انطفاء نيران الكون. ولن تدخل (روما). ويكون عليك أن تفر من (المدائن). ماذا تختار؟»

لقد أعطى «ماني» جوابه وهو واقف ينظر إلى «السياء» مواجهة بشكل مستقيم.

- لن تسفك أقبالي الدم. ولن تُبارك يدي أي سيف. ولا حتى سكاكين المضحّين. ولا حتى فأس حطّاب.

القسم الرابع

طرد الحكيم

تأملوني، أشبعوا أنفسكم
من صورتي،
لأنكم لن تروني أبداً بهذه الهيئة.
«ماني»

انطلق ملك الملوك إلى الحملة من غير «ماني». بصحبة أربعين ألف نبال، و«الخالدين» من حرسه الذي ضمّ عشرة آلاف طاقية حاكم إقليم حمراء بلون الدم، والخيالة الأشراف المدرّعين أجساداً ومطايا بصفائح من الحديد المصبوب، ومعهم كذلك مشاة فلاحي السُخرة المَوجِلون الحفاة الفارغو الأيدي بلا تروس سوى جلود ماعز مشدودة على قَصَبَتَيْنِ متصالبتين، وجيش الشعوب المقهورة المرقّش الثياب من «جيلين» و«كادوسيين» و«فرتين» و«ذيلم» و«هون» و«البان» بالْقِيْلَة وسَيَّاسِها ومعهم الطبول والنافخون في النفير وخملة الأعلام، تحرك «شاهبور» تحمله ستون كتفاً على عرشه المُسْتَخْدَم في ساحة الوعى، جازاً خلفه نساءه وموسيقيّيه وأطبّاءه وطبّاخيه وندمانه وعِرافيه وكتّابه ومتملّقيه وذوي نُصْحِه . ولكنّ مِنْ غير «ماني» .

سلك المركب في البداية طريق الشمال نحو (أرمينيا) . ولم يكن الأمر بعدُ، بكل ما في الكلمة من معنى، أمر حرب خارجية، إذ كان «قيصر روما» قد تنازل عن ذلك البلد لِـ «الفرس»، وأذعن للأمر النبلاء المحليّون . وقد ظَلَّت (أرمينيا) على أيّ حال مملكة، تابعة ولكن مُتَمَيِّزة، وحليفة وحسبُ بانتظار تراخي رِبْقَة «الساسانيين» يوماً .

وتروي ملاحم «الأرمن» القديمة في أية ظروف استُدرج ملكهم الأجل «خسرو» في السنة التاسعة والأربعين من حكمه خارج قصره في (خَلْخَل) بحجّة الصيد بالكلاب وعلى ظهور الخيل وطعن غدرأ بيد عميلين لحساب (المدائن)، وأية تمزّقات استتبع ذلك، وكيف أن «شاهبور»، وكانت جيوشه قد أصبحت بشكل غير مُتَوَقَّع على الحدود، رأى نفسه مضطراً إلى اجتياح المنطقة لوضع حدّ للفوضى التي لا تُطاق؛ وكيف أصبحت الأسرة الحاكمة صفر اليدين وألحق إقطاعها على عجل بالأملّك الساسانية؛ وكيف دخل كذلك البلاد كهنة «أثروپاتين» مزوّدين ببيوت نار مقدّسة متجوّلة منصوبة على عربات للصلاة خلف الحياّلة وجالوا على الولايات الأرمنية واحدة واحدة واستماتوا في إخماد المعتقدات المحليّة وإهانة الأرباب المنشقّين. وكيف اختارت أعرق أسر البلاد عند ذلك المنفى منتقلة بادئ الأمر إلى (ميليتين)، ثم إلى (البحر الأسود) (روما) نفسها، ساعية إلى إثارة قادة الجيوش والشيوخ بحكاية ما قاسته من آلام. واستمع إليهم، وتعطف معهم، واستنكر ما حدث، وقطعت الوعود. يد أن أحداً لم يحرك رُحماً واحداً.

وكان ذلك بالضبط هو الذي أراد «شاهبور» أن يستوثق منه قبل جرّ رجاله عبر جبال (أمانوس) ومنايع «الفرات» إلى «كبادوس» و(سيليسيا) و(سوريا) الرومانية. واستولى بسهولة من «الرومان» على سبع وثلاثين مدينة بخراجاتها، ومن بينها (بنتة) و(برباليسوس) و(هيرا پوليس) و(الإسكندرونة)؛ كما استولى على (حمّة) و(خلسيس) و(جرمانيقيا)؛ وعلى الأخصّ (أنطاكية)، أكثرها ازدحاماً وازدهاراً، وقد نهبت على نطاق واسع، وخربت بساتينها وخُطفت صباياها ونُقل جرقيوها بالآلاف إلى (المدائن) فأعطوا إحدى ضواحيها.

وظهر أحد القناصل الرومان، ولم يكن قد أتيح له الوقت للإبحار إلى (مصر)، والقيود في رجليه، في موكب النصر الذي جعله ملك الملوك يسير في شوارع العاصمة الرئيسيّة المبلّطة. وتقاطرت الوفود من جميع أقطار «الإمبراطورية» الساسانية محمّلة بالهدايا للتهاف للمنتصر.

لم يكن «ماني» حاضراً الاحتفال. فطوال أعوام الحرب هذه كان يسير على دروبه الخاصة بصحبة جيوشه هو يدفعه طموح إلى فتح من نوع آخر. ولسوف يفترض المؤرخون فيما بعد أنه اهتم في ذلك الوقت بأن يبني حَجَراً إلى حَجَر «كنيسة». وكانت هذه الكلمة تضايقه. فقد كان يفضل أن يقول «أُملي»، «ذَوِي». وبحنانٍ «قافلتى»، أو يقول «أبناء» «النور» وكان الأمر بالنسبة إلى من يراقبونه من الخارج أمر «كنيسة» حقاً، برُعاة «مختارين» وقطيع مُريد؛ بيد أن السلطان فيها كان يخص فقط مَنْ يعيشون عيش المسؤولين، وكذلك من تغلق أيديهم وفكرهم آيات الجمال. وإنها لتراتبية الحرمان والإلهام بعيداً عن كل استحقاق آخر، تلکم هي «الكنيسة» التي أبدعتها قريحة «ماني»، وعلى هذا النحو كان ينبغي أن تدوم.

كان «أمل» ابن (بابل) يُزهر آنذاك على امتداد الطرقات، واتضح أن عقيدته غازیة بلا نار ولا حديد ولا عقاب. وعندما كان الأسرى من (نوريك) أو (موريتانيا) أو (بلاد الغال) يساقون إلى الأرض الساسانية كان تلامذة «الرسول» يأتون للقائهم وتحديثهم عن غثائ الانتصارات الحربية، ومنح كل منهم نصيبه من التعزية والتشجيع في بلبله الناس إزاء الربوبيات والألسن. واعتنق كثير من الحرفيين والنساء، وكثير من جند الفيالق المهزومة، الدين السُمح.

كثيرون من رعايا «شاهبور» أيضاً كانوا يتألمون من الحرب، وقد فقدوا قريباً أو نغص عيشهم انقطاع طرق القوافل إلى أجل غير مسمى. وكان لكلام «ماني» رجّع في نفوسهم هم أيضاً. وإنها لسنوات عجيبة كان فيها ملك الملوك مقاتلاً على الدوام في حين كان تحميّه يمدح السلام في أقاليم «الإمبراطورية» ولا يبشر بأقل من «احتقار السيوف والأذرع التي تشهرها».

إنه لحديث يبعث على التمرد ولا تحتمله أذان الفرسان والكهنة. ولكن ما العمل؟ «إن لكل مَلِك مجنونه»، هذا ما كان يتهكّم به «كردير» في خفاء معابد ناره، «وكلما عظم المَلِك اتسع مدى الجنون»- لأن «شاهبور» كان يرفض الاقتصاد من «ماني» على تهوُّره ما لم يكن الداعي إلى ذلك مأخذاً عاماً. وإذا

جسر أحد على ملامسة هذا الموضوع في حضرته أظهر الامتعاض جهاراً وبدا فجأة متوعداً؛ وعندها يسكت رجل البلاط الجريء ويتهالك في جنى «بادهامه» المرتعش.

وإذ كان الأمر كذلك فلإن ابن (بابل) لم يعد له بطبيعة الحال في أعوام الحرب هذه مكانه في البلاط. وكان العاهل قد قرّر ذلك واستنكف عن استشارته، من غير أن يرفع عنه مع ذلك حمايته. إخلاصاً للعهد المقطوع؟ لم يكن ذلك هو السبب الأوحّد. فمئذ أن اندفع العاهل في حملاته أخذ يرى نفسه محاطاً بالكهنة المشجعين على خوض الحرب، وكانوا يشغلون حوله كامل الحيز الصالح للتنفس، وكانوا قد احتلّوا مجلسه الخاص وديوان بلاطه وبيته العسكري حيث كانت آراء «كردير»، وقد أصبح «موبدان الموابذة» - أي رئيس الكهنة الأعلى - هي السائدة مذكاً بلا مُنازع، إذ نادراً ما كان الفرسان والكتّبة يغامرون بمعارضتها. وإذا كان «ماني» حينذاك مذبذباً في عين «شاهبور» فلاّنه قد تركه وحيداً مع أشخاص كان يمتقّتهم أشد المقت، ولأنه لم يعد إلى جانبه ليعدّل كفتي الميزان، وليتيح له الإصغاء أحياناً إلى صوت مختلف.

وكان يحدث للعاهل، عندما كان يخصّ نفسه ببضعة أسابيع من الراحة بين حملتين، أن يسأل أحد أخصائيه، ابنه «هرمز» أو أخاه «فروز» أو حتى «زراف» عازف عوده المفضل، وهم ثلاثة مُعجّبين مخلصين بـ «ماني»، عمّا إذا كان أحدهم قد تلقّى حديثاً أخباراً عنه؛ وكانوا في العادة يجيبون بأنه في جولة مع مريديه في (شراسين) أو (پرسيديا) أو صوب (أبرشهر). أفكان ينبغي استدعاؤه؟ كان العاهل يُزيح السؤال بفرقة سهلة بالأصابع ولا يلبث أن يُشيع عن مخاطبه متحدثاً عن شيء آخر وكأنّ تنقلات ابن (بابل) لم تكن تهمّه على الإطلاق، أو كأنّه لم يكن قد سأل قطّ أدنى سؤال عن هذا الشخص.

في حواليّ العام الرابع من الحرب تلقّى ملك الملوك من أحد عيونه، وكان قد جال في بعض الأقاليم الرومانية متتكرراً في زيّ تاجر، تقريراً مُقنّطاً.

فالفيالق التي كانت تتناحر حتى ذلك اليوم ليفرض كلٌ منها إمبراطوراً من اختياره أصبحت وقد حلت فجأة، على ما يبدو، منافساتها القتالية؛ ولقد دُبِح ثلاثة متطلّعين إلى العرش من أربعة بيد فيالقهم بالذات. وإذا كانت الإهانات النازلة في «الشرق» بـ «الإمبراطورية» الرومانية قد ألهبت ظهرها فقد رأت نفسها ملتحمة بين ليلة وضحاها حول «قيصر» واحد هو نبيل اسمه «فاليريان» في السبعين من العمر، رئيس سابق لمجلس الشيوخ، وسياسي محنك، ولكنّه أيضاً جندي ذو فضائل مشهودة، جعل نصب عينيه، ما إن وصل إلى مقام الإمبراطور، أن يضع حداً للزحف الساساني.

وإذا رجا «شاهبور» على هذا أن يثبّط لدى أعدائه كلّ رغبة في الانتقام فقد وجّه جيوشه مرّة ثانية إلى (سوريا) الرومانية واحتلّ مدناً أخرى وخرب بعض النواحي التي لم تكن قد مُسّت حتى الآن، وقوّى حامية (أنطاكية). وإذا عاد بعد ذلك إلى (المدائن) فقد تبختر في موكب جديد من مواكب النصر. ومعه في هذه المرّة، بشكل بارز وأمارة على الانتصار، ستمئة من جنود الفيالق مقيّدين ثناءً ثناء خلف عربة المنتصر.

لما كان ملك الملوك واثقاً من نفسه كما لم يسبق له أن وثق فقد قرّر الانطلاق بلا ريث لمحصرة (اليونان)، أو ربّما (مصر)، ولكنه أصيب بنوبة من الحمى المراجعة أرغمته على تأجيل مشاريعه إلى العام التالي. وقرّر في أثناء هذه المهلة أن يدع رجاله يعودون إلى ثكناتهم.

وكان قد أعاد الجيوش المساعدة إلى مواطنها حافلة ومكتظة بالغنائم، وأوفد كذلك بعض الفصائل النخبوية إلى (دّرانجيان) لإخضاع بعض الزعامات المثيرة للاضطراب، عندما وصلته رسائل جديدة من عيونه: كان «فاليريان» يقترب على رأس جيش روماني لم يسبق أن حُشد أقوى منه! وكان قد اجتاز (قرن) الذهب وأخذ يزحف عبر (آسيا الصغرى). ولقد شوهد ظهور طليعته في (كوماجين). وكانت فيالقه تسعى إلى التجمّع عند أسوار (سومازات) فيكون بوسعها أن تنزل منها في عشرة أيام إلى السهول الساحلية، أو حتى أن تصعد نحو أودية (القوقاز).

كان «شاهبور» لا يزال يتساءل عن التقدير الذي يجب إتياله لهذه التقارير الحافلة بالويل والثبور حين بلغه سقوط (أنطاكية) فجأة وذبح حاميتها النسانية. واستدعى على عجل مجلس كبراء المملكة مشدداً هذه المرة على أن يُعثر على ابن (بابل).

علم النبيل الشاب الذي قصد، في تحمّل رسمي، منزل «مالكوس» من الجيران أن «ماني» كان قد ذهب في هذا الصباح إلى القرية التي وُلد فيها. وكان أبو «باتيغ» قد توفّي أثناء الليل بعد أن أوصى بدفنه في (ماردين) في حديقة منزله المهجور إلى جانب من كانت لوقت قصير جداً زوجته المدللة، ثم ضحية لنزواته التّفوية. وعليه فقد ذهب «ماني» لرؤية قرية طفولته الأولى في حجّ حميم رغب عدد كبير من المؤمنين في الانضمام إليه.

إنها لمصادفة عجيبة حقاً بالنسبة إلى رسول، إلى نبيّ، إلى مؤسس عقيدة، أن يحتفظ بأبيه هذه المدة الطويلة. فالوالد في حياة «موسى» أو «بوذا» أو «يسوع» أو «زرادشت» إمّا غائب وإمّا طيف وإمّا أنه لم يلبث أن توارى، وكأنما كانت أصداغ اليتامى أجدر بتلقي مسحة المباركة من «السماء». ولكن لم تكن حال «ماني» كذلك. فقد كان أبوه قريباً على الدوام. مُتّبِعاً خطاه حتى في سنّ الرشد؛ وإذ كان مغامراً في سبيل الإيمان المتصلّب، ثم تلميذاً وحوارياً، فإن رحلته تُوطّد وتشرح وتؤكد رحلة ابنه ومعلمه.

لما كان «ماني» واقفاً بالقرب من قبر «مريم» و«باتيغ»، غير ناسٍ أن يُلقي نظرة أحياناً على بُعد بضعة أخاديد من هنا باتجاه قبر المخلصة «أوتاكيم»، فقد بدا مسلوباً رصانته الطبيعية، ولم يكن يملك شيئاً من صفات القائد أو المُرشّد. وكان فكره الشبيه بقارب دقيق غارقاً في المدّ المتلاطم للمشاعر والذكريات، وقد جمع بمشقة بضع كلمات ليطلب فيها إلى أقرب «مختار» منه، وهو تلميذ من (الرّها) اسمه «سيسيئوس»، أن يؤمّ الصلاة بدلاً منه ويُلقي العظة. وكان تابئناً قصيراً ومعتدلاً، بيد أن ابن (بابل) لم يستطع متابعته حتى النهاية، وأحسّ

بأنه يتداعى. وهرعت «ديناغ»، وكذلك «مالكوس» و«كلويد»، ثم «ميسينيوس» وآخرون فأسندوه وجروه بحذر إلى البيت حتى وصلوا إلى السرير الذي كان سرير أبويه فتمدد عليه وهو لا يزال مبهوراً ووجدانه في شل ثقل ضباب الفجر فوق مستنقعات (ميزينيا).

وأصر «ماني» على العودة في صباح اليوم التالي بالرغم من قضائه ليلة مضطربة. وحرص على أن يعادر بأسرع ما يمكن هذا المكان الذي شعر فيه بأنه هش للغاية ولا يملك كثيراً السيطرة على نفسه، مُطمئناً أصدقائه أنه سوف يتحمل بلا ضرر مسيرة اليومين اللذين يفصلانهم عن (المداثن). غير أنه تداعى من جديد بعد مسيرة ثلاث ساعات فوق طريق مُخَصَّب، وكان عليه متابعة الرحلة فوق عربة تحت هودج بمنجاة من الشمس وأنظار ذويه. «ديناغ» وحدها بقيت عند رأسه مرتبطة بلا انقطاع جبينه ونَحْرَه وشفثيه بماء بارد ومُعَطَّر.

وقبل أن يشرفوا على العاصمة بكثير جاء مُوقَد القصر للقائهم وإبلاغ «ماني» بالاستدعاء الإمبراطوري. ورجاه ابن (بابل) بصوت واهن أن ينقل إلى العاهل اعتذاره ووَعْدَه بالطاعة ما إن يتأثل قليلاً ويكون في حال تسمح له بالثول أمام ملك الملوك. وتبهاً الفقى النبيل للإلحاح، بيد أنه إذ لاحظ بنفسه حالة الإنهاك الذي فيه «ماني» فقد استدار وابتعد، حتى إنه غفل عن الاستشذان بالانصراف بشكل مهذب.

عندما وصلت القافلة بعد بضع ساعات إلى منزل «مالكوس» كان مُوقَد القصر ينتظر من جديد. غير أنه لم يكن وحده. فقد أرسل «شاهبور» معه (الدروسباذ)، رئيس أطباء «الإمبراطورية»، وهو وجه مُعتَبَر رافل في زيته التي لا يتخلل عنها، يصحبه جيش من الحُجَّامين والصيدلة والميخُرين وواضعي العَلَق، وكل منهم يحمل بالطبع آلات علاجه أو تعذيبه. وإذ بلغ إلحاح العاهل حدَّ الهزل فقد ضمَّ كذلك إلى هذا الطاقم ثلاثة عَرافين مُضْحِين وجوقة المبتهلات الشافيات المرموقة.

كان على «ماني» أن يرتاب في الأمر، فعندما يُستدعى أحدٌ من قِبل «شاهبور» الخالد، ملك الملوك، الإله بين البشر والإنسان بين الآلهة، أخي «الشمس» و«القمر»، فليس الحداد ولا العجز بالعُذرتين المقبولين... وعليه فقد رَحِبَ بكل هؤلاء الناس بابتسامة شاحبة ولكنها مُجاملة.

- اذهبوا فقولوا لسيّد «الإمبراطورية» إن احتفائه قد شفاني من غير ما حاجة إلى طبّكم. ولسوف أذهب هذا المساء بالذات للسجود أمام العرش. ولكن قد أكون بحاجة إلى حارسين شديدين لإنهاضي.

- ٢ -

أمر «شاهبور» قبل كل شيء أن يُترك وحده مع «ماني»، «ماني» الذي كان يتفرّس فيه مليّاً من فوق مقعده الباذخ بصمت متبادل. ثم قال ملك الملوك مُشبحاً بنظره عن وجه زائر المسائي الشاحب:

- كان لي قديماً صديق. وقد شملته بالحنان وعاملته بتقدير على الرغم من عمره الذي يجعله يكون ولدي. بيد أنه حين جِذْتُ يوماً عن أتباع نصائحه نُخِلَ عني وهرب ولم يحفل بمصيري وكأني لم أحبه قطّ، وكأن هذا القصر يشغله مغتصب فظّ لملكة بلا قانون.

وصمت. وران الصمت على المكان. ثم سُمع جواب «ماني». بمشقة.

- لقد ابتهلتُ على الدوام خلال هذه السنوات أن تمنح «السياء» سيد «الإمبراطورية» العمر الطويل.

ودفع «شاهبور» إل أعماق حنجرتِه بنوع من الضحك الساخر الأَجَشّ.

- واخجلتاهُ لك يا من يدّعي أنه رسول سلام! تصلّي لكي يجيأ من يحكم جميع سيوف «الإمبراطورية»، تصلّي لكي يمتدّ بي العمر وأنت تعلمُ أنّي سوف أواصل الحرب، وأنه سوف يموت آلاف الناس بسببي؟ أليس مخالفاً لدينك أن تُسهم على هذا النحو بصلواتك في مواصلة المذبحة؟.

خرجت نبرة «ماني» حيادية ومُرشدة وكأنه يجهد في الإجابة عن اهتمامات صادقة يُبديها تلميذ حريص.

- ليس على الطبيب الذي يداوي مريضاً، ملكاً كان أو جَمالاً، أن يهتم بما سيفعله ذلك الرجل عندما يستوي على قدميه. والأمر نفسه ينطبق على ابتهالاتي.

- أنت تصليّ إذن من أجل صحّتي، غير أنك لا تذهب إلى حدّ الصلاة من أجل أن أقوى على صدّ العدو الذي يهدّد اليوم «الإمبراطورية»!

- أمنيّ هي أن يُصدّ جميع المجتاحين، وأن تُجنّب، في كل مكان من هذا الكون، المنازل والمعابد والناس والأشجار، وجميع الأجرام السماوية أيضاً، كلّ قسوة وكل إسفاف، وأن يستعيد الملوك دروب الدّعة لأنفسهم كما لجميع من يخضع مصيرهم للأعمال الصادرة عنهم.

- ماذا تُجدي أمنيّاتك حين يكون العدو على الأبواب؟.

- ماذا أُجذّب الأعمال الحربية إذا كان العدو الآن على أبوابنا؟.

ارتسمت على وجه «شاهبور» تكشيرة ألم، وسرت رعشة في قسائته التي انحلها ما قاساه من نوبات الحمّى. ومع ذلك فقد لطفت عبارته.

- الحقّ أنك كنت تَمُن استشرتهم الوحيد الذي تنبأ بأن «الرومان» لن يلبشوا أن يشوبوا إلى أنفسهم وعندها سوف يستमितون في الانتقام لما أصابهم من إذلال. إن في وسعك التباهي الآن بأنك كنت على حقّ!.

كست ملامح الحنية والاشمئزاز وجه «ماني».

- لئن كنت على حقّ أو على خطأ فما أهميّة ذلك؟ أكاد أذكر النصائح التي أمكنني التلّفظ بها. إنه ليس على الناصحين إلّا أن يثرثروا، والسيد وحده هو الذي يقرّر ويأمر.

- تذكرُ أيها الطبيب البابلي أني تردّدت طويلاً وتدبّرت وترثّيت. وقد جعلني

الحاحك أعود عن قرارات كنت قد أعلنتها. بل لقد أحجمت حتى كادت سلطتي تنقلص، وكان البلاط يصحو وينام على صوت الاستياء. وانبغى حسم الأمر، وكان ذلك واجبي الرئيسي والامتياز الذي أتمتع به. وكان الواجب عليك أن تظل بقربي.

وكان صوته قد ارتفع أثناء هذه الكلمات الأخيرة قبل أن يعود إلى الانخفاض وكأنما بسبب الإعياء.

- أجل يا «ماني»، إنني لم أضغ بما فيه الكفاية إليك قبل أن أنخرط في مواسم الحرب تلك، ولكن كان عليك مع هذا أن ترافقني في كل مرحلة من مراحل دربي، لأنني ربما كنت أصغيت إليك بشكل أفضل، في (أرمينيا) وأمام (أنطاكية)، وبفضلك كنت كبحْتُ ولا شك حماسة «كردير» المدمرة ومنعتُ الكهنة من اضطهاد سكان البلاد وإثارتهم علينا. وفي غيابك كان ولدي «هرمز» وجميع من اعتادوا الاستماع إليك من رجال الحاشية بُكياً وكأنهم افتقدوا فيك أباً. وأنا كذلك أسفت على صوتك العادل المستقيم. اللعنة عليك يا «ماني»، أهلكا بُدي عرفانك للذي طالما حماك ولا يزال يحميك بالرغم من خيانتك؟ لو كان غيرك من رعاياي قد تصرف على هذا النحو، ولو كان شخص غيرك قد تلفظ بعبارات التمرد التي تنشرها في طول «الإمبراطورية» وعرضها لحُوِّزَتْه! لماذا ينبغي أن أضعف على هذا النحو حين يتعلّق الأمر بك أيها الطبيب البابلي؟.

صمت وكأنه فوجئ بما صدر عنه من سؤال، أو كأن غريباً هو الذي قد طرح عليه سؤالاً لم يكن قط قد فكّر فيه. وكان قد هرّ أعطافه. وكان قد تحدّاه. وابتدأ «ربما...». وتوقّف مرّة أخرى. قبل أن يستأنف بنبرة تعتمد تقطيع الكلام.

- عندما يجلس المرء على هذا العرش فهناك دائماً بين آلاف الأنظار التي يلتقيها أو تتحاشاه نظرةٌ يكتشف فيها بأنه ليس مُخلّداً. وهذه النظرة هي عندي نظرتك.

أخذ كل من الرجلين يتأمل الآخر، وبدوا وقد شاخا وشجبا. وكانا جذاً متقاربين. وأشار «شاهبور» إلى صديقه أن يرقى درجات العرش الباذخ الأولى ويجلس على الطنفسة المنجدة التي يشغلها عادة القيّم على أمر الستار حين يرغب العاهل في أن يهمس طويلاً في أذنه. وبحركة لم يسبق أن قام بها ملك الملوك من قبل، وضع يده على كتف «الرسول». ليعهد إليه بالقول:

- كثير من الناس يَسْعَوْنَ إلى دغدغة أحقر ميولي، والأصوات الصديقة تمحمد.

ظلت هذه الكلمات معلقة. وكان جذعه عنيفاً ومتهالكاً بعض الشيء على قاعدته.

- لقد خسرت (أنطاكية)، وكنت قد تركت فيها حاميتي الوحيدة المهمة، وسوف يستعيد «الرومان» واحدةً واحدةً ما فتحت من مدن؛ وهذا المساء بالذات جاء من يخبرني بأن طليعة الجيش الروماني قد اجتازت «الفرات» وأنها موجودة الآن شمال (ما بين النهرين)؛ وسوف يكون في وسع «قاليريان» أن يظهر هنا بالذات، تحت أسوار (المدائن)!

لم يكن ابن (بابل) يظن أن الحال قد تدهورت إلى هذا الحد. وأشاح بنظره خوفاً من أن يخمن «شاهبور» عنده بعضاً من عاطف غير لائق. وتابع العاهل مبهور الأنفاس.

- ينبغي أن أقود الجيش بأسرع ما يمكن إلى (الرّها). ينبغي الحفاظ على (ما بين النهرين)، والاحتفاظ بـ (أرمينيا) إذا أمكن. ولا يزال هناك حتى الآن احتمال بأن تساعدني، إذا رافقتني، في اتّخاذ القرارات الصحيحة.

صدرت عن «ماني» حركة خفية وكأنه يريد أن يتملّص، بيد أن جسده «شاهبور» كان يزداد وطأة فوق كتفه. وقال ملك الملوك:

- لقد وقّعت هذا الصباح قراراً أعهد فيه إلى ولدي «هرمز» بحكم (أرمينيا) ومعه لقب الملك الكبير. وسوف يأمر الكهنة بمغادرة المملكة. وستُحترَم من

جديد جميع المعتقدات قديمة كانت أو حديثة . أليس هذا ما كنت تتمناه؟ .

بدت نبرة «ماني» شبه متسائلة : .

- هل سيعاد بناء جميع أمكنة العبادة؟ وهل ستُعاد إقامة تماثيل الأرباب فوق قواعدها؟ .

- سيكون الأمر كذلك .

بدرت عن ملك الملوك تكشيرة ألم جديدة، وبدأ وكأنه يترنح ولا يقبض في مكانه إلا بالالتكاء على زائره . وأخذ صوته يزداد إعياء مع كل كلمة .

- إني أبجلُ صباحَ مساء بوصفي كائناً لاهياً، فقل لي يا «ماني»، أياكون مطابقاً لقرارات «السماء» أن تقاسي الكائنات الإلهية آلام الحمى المعادة؟ .

نذت عن «ماني» زفرة تنم عن العجز . وتابع «شاهبور» قائلاً : .

- إن هؤلاء الأطباء الذين يعتنون بي يتجمعون سبعة أو ثمانية حول سريري وينشرون دخنة كافور ويخورون ويغمغمون ببعض العبارات المقدسة ثم يفصدوني ويفصدوني حتى يمتنع لوني وأرتعش . ترى أهكذا تُعالج الحمى المعادة؟ .

استنكر «ماني» : .

- أي طب هو هذا! وفي أي كتب السحر تعلم مثل هذه الممارسات!

- كيف لي أن أعرف؟ إن «كرديسر» يردّد على مسامعي أن هذا الطب هو الوحيد المطابق لـ «الشرعية»، وأنه الوحيد القادر على شفائي . غير أنني أشعر كل يوم بأنني أضعف مما كنت أمس . آه يا «ماني»، أيها الطبيب البابلي، أنت يا من يمتلك أسرار النباتات، حبذا لو رغبت في البقاء بجاني، حبذا لو أغدقت عليّ من طبك وعنايتك، إذن لتخلصت من جميع أولئك المسممين .

- هل في وسع السيد أن يشك لحظة في جوابي؟ .

ما كاد «ماني» يتلفظ بهذه الكلمات حتى انتصب «شاهبور» مستعيداً فجأة

قوامه الإمبراطوري . والنبرة «الإمبراطورية» .

- كنت أعلم أن بإمكانك الاعتماد على تفانيك . غداً عند الفجر أذهب إلى الشمال للقاء «الرومان» ، وستكون الطبيب الوحيد في حاشيتي .

في هذه اللحظة فقط أدرك «ماني» إلى أين أراد الملك أن يجره . بيد أن الألوان كان قد فات للتراجع عما قال . وكان عليه أن يظهر بمظهر حسن .

- ألم يكن طبي المتواضع في خدمة الأسرة الحاكمة على الدوام؟ .

كان «شاهبور» قد قام وتوجه إلى الباب المُقضي إلى أجنحة نسائه .

- ما أشدَّ امتثال كلماتك يا «ماني» ، وما أعظم غمرد أفكارك!

* * *

إذا كان «ماني» قد جهد على مدى مجلس إمبراطوري في أن ينسى مرضه لكي يبدو مشغولاً فقط بمرض «شاهبور» ، فقد شعر عند خروجه بهو من مُضاعَف حتى لقد وجب أن يُسأند ويَحْمَل تقريباً إلى الحَمَّالة ، هو الذي كان يُسأند الملك قبل بضع دقائق . وعندما وصل إلى منزل «مالكوس» كان عليهم حمله أيضاً إلى غرفته حيث نام نوماً محموراً ومضطرباً من غير أن يكون قد قال أدنى كلمة عن مقابلته .

عندما حضر «مالكوس» في صباح اليوم التالي لاستطلاع الأخبار كان باب الغرفة موارباً . ودفعه على مهل بإحدى يديه وهو يدقُّ بالأخرى على حياء وقد تبدى له مشهد لن يُمحي أبداً من ذاكرته .

كانت «ديناغ» جاثية على ركبتيها وجالسة على عقيبتها وظهرها إلى «ماني» الذي كان يُعيد بيدٍ معتادة عَقْدَ ضفيريها المحلولة . وظلَّ «مالكوس» من جرَّاء ذلك بلا صوت . وقال في نفسه إنَّ الفتيات هنَّ اللاتي يَضْفِرْنَ في العادة ضفائر المحاريب؛ فما هو إذن سليل المحارب «البارتي» هذا المتصَرِّف على ذلك النحو إلى عَقْدِ ضفيرة امرأة! لقد مرَّ على تعارفهما ثلاثون عاماً ولا يزال «ماني» قادراً على إذهاله! وعندما لاحظت «ديناغ» وجوده احمرَّ وجهها، وتراجع هو نفسه

خطوة إلى الوراء، إلا أن «ماني» ناداه مُرَغِباً إِيَّاه تَقْرِيباً على الجلوس وطرح أسئلته التي أجاب عنها مُتَابِعاً شغله العجيب وكأَنه في وضع مُحدَّد.

- لقد انتهى الأمر بـ «شاهبور» إلى أن يحصل مَني بالحيلة على ما كنت قد أبيتُه عليه دائماً: اللحاق بجيشه في أثناء القتال. واعلَمَ أنني خَجَلُ لهذا أشدَّ من خجلي وأنا أعقد هذه الضفيرة.

لم يستطع «مالكوس» الامتناع عن حكاية هذا المشهد للمؤمنين الذين حملوا بعد ذلك لـ «ديناغ» وشعرها احتراماً قارب عند بعضهم حدَّ الإجلال. ولكثرة ما تأملوا الضفيرة يوماً فيوماً فقد اكتشفوا أن لها لغة: كانت رقيقة «ماني» تُرَدُّ ضفيرتها غريزياً إلى الأمام من الجهة اليمنى عتماً تكون وادعة مطمئنة؛ وحين تكون فرحة، ولكن فرحاً ممزوجاً بالتوقع والانتظار وتغاد الصبر، فإنها تُلقِيها على كتفها اليسرى؛ وبعد فإنها إذا كانت قلقة مكروية حزينة ظَلَّتْ ضفيرتها إلى الخلف.

إن ضفيرة «ديناغ» لن تظل طويلاً في المكان نفسه طَوال الحِقْبَةِ التي ستلي.

كانت الإمبراطوريتان الكبيرتان وجهاً لوجه في بلاد (الرُّها) تتربّص إحداهما بالأخرى، وكانت المدينة المحصّنة في يد «الرومان»، وكان «الساسانيون» يحاصرونها عن بُعد من غير أن يُقرّروا مهاجمتها إذ كان خلفهم هم بالذات في الشمال والجنوب والغرب جنود فياللق «فاليريان». جنود كانوا يتنقلون على الدوام حاجيين بذلك مقاصدهم وعددهم.

وكان الوقت نهاية الخريف والناس يتجمّدون ليلاً وهم بعيدون كل البعد عن أيّ بحر وقرييون جدّاً من الجبال. وأخذت الأقوات تشحّ، وكانت الأراضي حولهم جديباء أو محروقة أو سبق حصدها. وأحسّ «شاهبور» بنفاد صبر الفرسان فكان يثير من حين إلى حين مناوشة مُقتَضِبة بمهارة. وكان يُرْجِع إلى المعسكر بجثة بطولية لم يبلغ صاحبها الحلم فُيُجْتَمَع حولها في احتفال جنائزي. وهكذا كان يُقدّم المعلوم اليومي الحربيّ وَيُغْذَى الوحش. وإذا اقتضى الأمر فسوف يُغْذَى من جديد في اليوم التالي وفي كل مرّة يكون فيها دم المحاربين جاهزاً لأن يفيض. غير أنه لم يكن في مقدور أحد أن يُرْغِم ملك الملوك على خوض المعركة قبل الدقيقة المختارة بشكل ناضج. وكان يحتجز عساكره في الوقت الحاضر في وضع دفاعيّ فوق التلال. وأخذ يُضَيِّق الخناق على (الرُّها). ويتنظر.

ما الذي كان يتظره بالضبط؟ لم يكن أحد ليعلم ذلك علم اليقين، حتى في صفوف المقرئين منه. والصحيح أنه كان قد صعد باتجاه الشمال مُصْطَحِباً فقط العساكر الجاهزين الذين كان «هرمز» قد انضم إليهم على رأس فرقة فرسانه الأرمنية. ولم يكن من ريب في أن الملك كان يأمل في مَدَد. بيد أن شيئاً لم يكن لُنْبِيء بأن «فاليريان» لن يتلقى مَدَداً هو الآخر من (أميزيا) أو (غزة) أو (تدمر) أو (البحر الأسود). وكان «شاهبور» يعرف ذلك كله. وكان يسعى إلى أن يستخلص منه خُطّة وازناً وراثراً مختلف الخيارات المتاحة له. وكانت اللحظات النادرة التي كانت فيها ومضة إثارة تبعث الحياة في عينيه هي التي كان حاجبه يُدْخِل فيها خيمته ضابطاً من الكشافة أو جاسوساً متتكبراً في زِيٍّ مَعَّازٍ من (أسروين). وكان في وسع الملك أن يقضي مع مثل هذين ساعات طويلة على انفراد، ونادراً ما كان يتدخل للحدّ من ثروتهما مسائلاً إِيَّاهما بحماسة عارمة، بل مُشْرِفاً إِيَّاهما أحياناً بوجبة على مائدته.

لم يكن «ماني» قد راقب قط «شاهبور» في غمار الحرب. وكان، هو الذي تبعه في الأساس للسهر على صحته، يجده فجأة وقد تجددت قواه وشبابه وتبَخَّرَت نوبات الحمى منه. وكان ملك الملوك يُشعر جميع مَنْ حوله بأنّه مسيطر على أدقّ عناصر الموقف وعارف كلّ يوم عن يقين بما سيحدث في الغداة. وإنه لانطباع مغالى فيه ولا ريب، ولكنّ هكذا كان ينظر إليه جميع المقاتلين في تلك اللحظة، وهكذا كانوا يعترفون به قائداً وزعيماً ويعهدون بأنفسهم إليه من أجل الحياة ومن أجل الموت. وعلى هذا كان «ماني» يراقبه بشيء من الإعجاب. وعلى الرغم من التقائه العاهل في مناسبات شتى، ولا سيما في احتفال الاستيقاظ، فنادرأ ما كان يُستشار.

ومع ذلك فقد حدث يوماً أن جاء أحد الحُرَّاس في ساعة القيلولة يستدعيه على عجل إلى الخيمة الإمبراطورية. وكان قد اجتمع فيها حول «شاهبور» وولديه «بهرام» و«هرمز» قائد فرقة الخيالة المدرّعة، والقيّم على دار الصناعة، وأعيان «الديوان» الرئيسيون، و«كردير» رئيس الكهنة، وفي وسط هذا المجلس

«روماني»، وهو ضابط رفيع الرتبة، قائد مئة، بل ربما قائد جيش، وكان رافلاً في بَزَتِه العسكرية.

كانت جميع الأنظار موجَّهة إلى هذا الأخير، وظلَّت الألسنة مربوطة بانتظار الإبانة عن هويته وسبب وجوده. وأوَّل ما خطر في البال هو أن «فاليريان» كان قد أرسل مُوفِداً في مهمَّة أو لاقتراح هدنةٍ ما. إلا أن الرجل لم يكن قد اتَّخذ سَمَتَ السفراء المتكلِّف، بل كان يجلس إلى جانب الأعيان الساسانيين وكأنَّه واحد منهم.

ومن جهة ثانية فإنَّ ملك الملوك بدأ بالكلام من غير أن يكلف نفسه تقديم الدخيل. ونظراً إلى الأسئلة التي كان يوجَّهها فإنَّ الحضور كانوا وكأنَّهم قدَّوا من الحجر. لأن «شاهبور» كان يُعلن أنَّه سوف يهاجم «الرومان» على حين غِرة عند انبلاج الفجر، وأنَّه قد استدعى أرفع الرجال مقاماً وأفضلهم مشورة للاستماع إلى آرائهم. وكان يتكلَّم بقدر من الهدوء بحيث لم يجرؤ أحد على سؤاله، حتى بالإيماء، عمَّن تُرى يكون هذا الضابط الروماني الذي أدخله الملك على هذا النحويين أخصَّائه وكبراء «إمبراطوريته»، والذي كان يشاطره سرّاً بمثل هذه الخطوة.

وإذ كشف العاهل عن عزمه فقد حدَّد مكان الهجوم، وهو أرض مرتفعة على طريق (حرَّان) ومكان كان العسكريون يدعونه «هضبة برج التريص» لأن «الرومان» كانوا قد رفعوا عليه سقالة كانوا يراقبون من فوقها حركات الجيوش الساسانية. وأكَّد «شاهبور» كذلك أن فرقة الخيالة المدرَّعة هي وحدها التي ستُهاجم، ولن يكن من دور للتائبين غير قطع الطريق على كل مدد للعدو.

وإذ قدَّم الملك هذه المعلومات فقد التفت إلى «كردير»:

- ماذا تقول النجوم؟

وكان الجواب على الفور: .

- هذه الليلة ونهار غدٍ وجميع أيام الأسبوع القادم ميمونة للقيام بالأمر.

- والطوالع ؟.

- إني أضحتي كل صباح ، وفي حال طُرِحَ السيد هذا السؤال المرجو من زمن طويل ، واليوم ، فإن الطوالع لم تكن يوماً بمثل هذا الوضوح ، ويبدو أن جميع السبل ستمهّد أمام جيوش «أهورا - مازدا» والسُلالة الإلهية .

- وأنت يا «ماني» ماذا قالت الأصوات السماوية التي تكلمك ؟.

- لم أسألها .

تجلّت فرحة صيبانية على وجه «كردير» وهو يرى خصمه مأخوذاً على هذا النحو بالجُرم المشهود من اللامبالاة بشؤون «الإمبراطورية» . غير أن «شاهبور» هبّ لنجدة تحميّه .

- إذا كان الطبيب البابلي بحاجة إلى الانسحاب بضع لحظات لالتماس جواب فسوف ننتظره .

لم يكن ذلك اقتراحاً ، واضطر «ماني» إلى الاستئذان على الفور .

وإذ أصبح خارجاً فقد لاح له درب مؤدّ إلى شجرة منفردة فذهب للجلوس تحتها . ففي مثل هذه المناخات كان يتمكّن في العادة من الانسلاخ عن الأصوات القريبة كما عن الضجيج البعيد لاستحضار من كان يسمّيه «توأمة» .

إلا أنه لم يظهر أيّ وجه في ذلك اليوم . ولا أيّ صوت مألوف .

فمنذ لقائهما الأولي وجهاً لوجه في مياه التّرعَة آيَّام بستان النخيل قبل ثلاثين عاماً كان رفيقه السماوي يحبّيه على الدوام . وكان من الممكن أن يحدث بين «ماني» وشخصه الآخر ذاك أزمت ومهاترات ، وكان في وسع الآخر أن يُخفي عنه بعض الحقائق إلى حدّ الحِداَع والتلبّيس . غير أنه كان يظهر دائماً بلا توانٍ في اللحظة التي يناديه فيها «ماني» .

حتى كان ذلك اليوم في (الرّها) .

وإذ حرم «الرسول» من انعكاسه السماوي فقد شعر بأنه لم يَعْذْ هو نفسه

موجوداً. وبدأ له كل شيء فجأة تافهاً لا لزوم له، بل إنه لم يتذكر حتى السؤال الذي جاء يطرحه. وظلَّ على الصخرة جامداً ساجداً متلاشياً. إلى أن أقبل حارس يهزه ويحجّه من ذراعه. فلقد نفذ صبر العاهل.

- إيه أيها الطبيب البابلي، هل حصلت على جواب؟

- لا.

وانتظر «شاهبور» التتمة. ولم يكن هناك من تتمة.

- بَمَ أجاب الصوت السماوي؟

- بلا شيء. لقد رفض حتى الاستماع إلى سؤالي.

- لقد انتظرنا طويلاً جداً من أجل قليل جداً من الأمل

وعلى الرغم من أهمية الأشخاص الذين حوله فقد كان «ماني» يتحدث إلى نفسه قبل أيّ كان.

- هذا السكون! ما من شيء يقلقني مثل هذا السكون. إنه سكون ظلام وغضب لا حدَّ له.

لم يكن يملك عاداته المألوفة، وقد بدا خائفاً، ولا بدَّ أنه أشعر من كانوا يراقبونه بأنه لاحت له رؤية مصيبة ما كان ليجرؤ على وصفها. وقد هزَّ ارتباك «ماني» كيان «شاهبور» الذي كان حتى ذلك الحين واثقاً مطمئناً.

وحاول «بهرام» ممثلاً لدعوة خفية من «كردير» أن يُعيد أباه إلى مواقعه السابقة.

- لقد نال العرافون والمنجمون جميعاً بركة «أهورا - مازدا» للقيام بهذا العمل، فهل يكون للطبيب البابلي «سياء» مختلفة عن سائنا؟

ما كان «شاهبور» ليسمعه. فلقد كان يحجج «ماني» قلقاً مضطرباً ويُععن في تأمله فيزداد اضطراباً على اضطراب.

- أعتقد أن جيوشنا ستقع في فخٍ ما؟.

بادر «ماني» إلى الردّ من غير أن يكون بلبّالهُ قد تناقص قطّ:

- لا أعرف شيئاً، ليس عندي أيّ جواب، لقد أبت «السماء» أن تُصغي إليّ، ولست أملك أيّ يقين، ولا آية حُجّة، ولا أيّ رأي، لست أملك سوى تحرّصات.

رأى «الروماني»، وكان قد ظلّ صامتاً حتى الآن، أنّ من الضروري أن يتدخّل. بيونانية منمّقة.

- إذا كان السيّد الإلهي يخشى فحاً فأنا أضمن الأمر لقاء حياتي. سوف أبقى هنا أثناء نشوب المعركة وسيكون رأسي ثمناً لأدنى تهمة بالخيانة.

وأرفق كلامه بالإشارة فأمسك برأسه المَحْوْذ بين يديه ومدّه إلى الملك وكأنّه جرة. وكانت الحركة تهريجية ومثيرة للضحك، ولكن منّذا الذي كان في مزاج يسمح له بأن يضحك. وكان «شاهبور» قد وضع يديه على كتفيه متصالب المرفقين، وفيما كان يُسائل نفسه على هذا النحو ويُقدّر ويتردّد، ظلّ الجميع حوالته ساكنين مكتومي الأنفاس. وهبط القرار في النهاية.

- لن يؤجّل هجومنا. فلتُشر راياتنا التي بلون النار، ولكن على أوتاد مغروزة على مستوى الأرض. ولا ينبغي أن يتمكّن العدو من رؤيتها من بعيد.

عاد الضابط من جديد غَرَضاً لبعض الأنظار القليلة. غير أن «شاهبور» تجاهلها. وإذ توجّه إلى «هرمز» فقد قال:

- أنت يا مَنْ يَكُنّ كثيراً من الصداقة للطبيب البابلي، أنت يا مَنْ يشاطره^٢ اه في معظم الأحيان، ألسنت منزعجاً من مشاعره بالقلق؟

سوف تجعلني تلك المشاعر أكثر حَذْراً، ولكنها لن تقلّل من إقدامي. قاتل كما قاتلتُ على الدوام، وكما علّمني أبي الإلهي أن أفعل.

«شاهبور» علّة هزّات من الرأس بطيئة جداً وكأنّه لا يزال يفكّر

في الوقت الذي يتقبل فيه حُجج ابنه الأصغر.

- سينفعلك إقدامك غداً أكثر من حَذرك لأنك أنت الذي سيقود الحملة الأولى. وسترجع ظافراً أو شهيداً. مُرْ بآن يُورُوع على جميع جنودك حصّة مزدوجة من الخبز واللبن واللحم، ثم اجمع الفرسان ذوي الرُتب الرفيعة فإن لديّ ما أقوله لهم. وأما أنت يا ولدي البكر «بهرام» فسوف تحتلّ مقعدي على المنصّة الإمبراطورية للإشراف على تقسيم الرجال.

وكما تقضي تقاليد القتال فقد تقاطر المحاربون الساسانيون وهم يرمون أمام مُمثل الملك، واحداً إثر واحد، سهماً في سلال عريضة من الخيزران كانت لا تلبث أن تُغلق وتُختَم. ولسوف تُفتح بعد المعركة ويأتي كل جندي لالتقاط سهم، وهكذا يُتاح للعاهل أن يعرف بدقة عدد الرجال الذين قُتلوا أو أُسروا.

لم تكن الخسائر فادحة في معركة (الرّها). فقد كان المتوقّع مواجهة عملاقية بين إمبراطوريتي العصر الكبيرتين، بين أكبر جيشين مرهوبي الجانب، بين رجلين استثنائيين. أفلم يكن «شاهبور» الباقي الحقيقي «لإمبراطورية» الساسانية وسيّد كل الأراضي الممتدة من صحراء «العرب» إلى (الهند)؟ أفلم يكن «فاليريان» موحد «الرومان» الذي بعث به العناية الإلهية، والمخلص الذي عليه إبعاد شبح الانحطاط وإعادة الارتباط بالعهد المجيد، عهد الفتوح والازدهار؟ ولقد انحلّ كل شيء بضربة يد جريئة وحسنة التدبير ومخطوطة: فعندما انقضّت فرقة الخيالة المدرّعة التي يقودها «هرمز» على المعسكر الروماني القائم على طريق (حرّان) كان «فاليريان» بشخصه من فرائسها الأولى، «فاليريان» القابع في خيمته مع رئيس حرسه وأمواله المحمولة إلى المعركة وصفوة قادته وعدد من الشيوخ الذين كانوا قد انضمّوا إلى حاشيته. وإذا حُرم الجيش الروماني زعماءه فقد هُزم حتى قبل أن يقاتل، وعندما هرعّت بعض الجحافل وكتائب المئة أبيت واحدة بعد الأخرى ما إن كانت تُطلّ برأسها؛ وأثر الباقون أن يقطعوا «الفرات» بأسرع ما يمكن للإفلات من الكارثة:

أمر «شاهبور» بأن تُنقش في الصخر بالكلمات والصُّور ذكرى انتصاره .
ويفخر النصّ بأن يحدّد أن جيوش «القيصر فاليريان» قد جاءت «من (جرمانيا)
(وريسيا) و(نوريكيا) و(إيستريا) . . .» وكذلك «من (فريجيا) و(فينيقيا)
(واليهودية) و(الجزيرة العربية)، قوّة من سبعين ألف رجل» مزّقههم ملك الملوك
إربأ إربأ. وتمثّل منحوتة «شاهبور» على صهوة حصانه ويده اليسرى على مقبض
سيف لا يزال مُغمّداً، وذراعه اليمنى ممدودة بأمانة رحمة نحو «فاليريان» الذي
مثّل جاثياً على ركبتيه ومتوسّلاً وعليه الطيلسان الروماني ورأسه لا يزال مطوّقاً
بإكليل من الغار.

وإلى جانب «القيصر» المغلوب وقف «روماني» آخر فخور الهيئة على الرغم
من خضوعه لملك الملوك. وكان ذلك هو الضابط الخائن، ويدعى
«سيرياديس». وقد استحقّ جيداً أن يُصوّر على اللوحة التذكارية للانتصار لما له
من فضل في تطويق «فاليريان» والفوز بمثل هذا النصر السهل.

ولقد طلب في مقابل خيانتة النفيسة أن يعترف به «شاهبور» إمبراطوراً
جديداً على (روما). وقد وُفي بالوعد، فما إن استسلمت (الرّها) حتى رُفع فيها
إلى العرش باحتفال عظيم. واجتاح «شاهبور» للمرة الثالثة الأقاليم الرومانية
ساعياً إلى كسب ولاء السلطات المحليّة. ولكنّ سُدى لأن «سيرياديس» لم
يتمكّن قطّ من جعلها تقبل به. وما إن انسحبت الجيوش الساسانية بعد بضعة
أشهر حتى انسحب معها بخذر.

وكان عليه متابعة مهامّ حرفته في دارة بـ (المدائن) تحيط به حاشية رخيصة.
قبل أن يسقط في منسيّات «التاريخ».

ولسوف يُنهي «فاليريان» هو الآخر أيامه على الأرض الساسانية. وكان في ودّه
«شاهبور» أن يقبض غالياً ثمن فكّه من الأسر إذ كانت مقاليد الحكم في (روما)
قد أصبحت في يد ابن الأسير «غاليان». بيد أن هذا رفض أية مفاوضة مؤكّداً
أنّه لن يُسلم نفسه لأية مساومة، وأنه لن يوافق أبداً على التنازل عن إقليم
واحد أو على إفراغ خزائن «الإمبراطورية» لدفع فدية رجل حتى وإن كان والده

بالذات. ومع ذلك فقد فسر معظم «الرومان» ما تقدّم به من الشيوخ على أنه منتهى نُكران الذات، فسّروه بأنّه تحلُّ بشع، ويكاد يُشبه قتل ولدٍ والده.

وعندما قُط «شاهبور» من استغلال أُسر «فاليريان» أمر بنقله إلى (پرسیدیا) مع سائر الأسرى بلا رعاية خاصة ولكن من غير قسوة مُفرطة. ولسوف يقضي الإمبراطور المخلوع هناك آخر فصول حياته متوجّهاً إلى قاهره خيراً، على ما يبدو، ممّا إلى ولده العالق.

وقد عهد إليه ملك الملوك ببناء سدّ على نهر «قارون»، غير بعيد من (بيت - لاپات)، على أن يتخذ اليد العاملة من الجُنْد المحتجّزين معه. وانصرف إلى ذلك بدقّة وإخلاص. ولا يزال هذا العمل قائماً بعد سبعة عشر قرناً من الزمن. ويحمل اسم «بنّيه قيصر»، أيّ «سدّ القيصر».

* * *

كان خاسر معركة (الرّها) الآخر هو «ماني».

وكان «شاهبور» قد أتاح له فرصته الأخيرة فما اغتنمها. فعندما كان ينبغي أن يقول للعاهل إنّ الحظّ كان إلى جانبه، وأنّه كان موعوداً بالنصر وفي وسعه أن يُصدر الأمر بالهجوم بلا وُجَل، اختار الصوت المتنبّئ في ذاته أن يصمت. وكانت هناك مواقف تعاطفٍ لم يكن لينسبها إلى نفسه. حتى ولا بوساطة النجوم والسطوالع الهيّنة. أفلم يكن هو الذي يُعلّم تلاميذه: «كن خائناً لـ «الإمبراطورية» إذا اقتضى الأمر، و متمرداً على قرارات «السياء»، ولكن كن أميناً لذاتك، ولـ «النور» الذي فيك نصيباً ضئيلاً من الحكمة والألوهة».

إن المثل العليا تموت مع ذلك لأنّها لم يُسخر منها، فبمكائد السادة الخجولة، وبخيانة التلاميذ، يطول بقاء المعتقدات وتزدهر وسط العالم وأمراته.

لقد جرى العُرف بأن يكون لكل ديانة أفواجها. وأمّا ديانة «ماني» فلا. أفيمكن قد أخطأ في انتقاء الحقيّة؟ أيكون قد أخطأ في اختيار الكوكب؟.

كان كبار الملوك الساسانيين يطمعون أكثر من طمعهم في لقب فاتح بلقب بان، حريصين على محاكاة قُدوة «الإسكندر» الخالدة في هذا كما في غيره من الأعمال. أفلم يزرع في أرض القدماء عدداً لا يُحصى من مدن (الإسكندرية)؟ ولقد ودَّ «شاهبور» تخليد مجده بالطريقة نفسها مالئاً المناطق المُخضعة بالمدن المتشابهة الأسماء المُهداة جميعاً إليه. فما إن يفوزُ بنصرٍ ما حتى يُصرَّ على تخليد ذكره على الفور بأن يضع في العشب المدمر حديثاً الحجر الأول لمدينة يُطلق عليها اسم «نصر شاهبور» أو «المجد لشاهبور» أو كذلك «شاهبور المُقدام». وكان يُغدق على من يرغب في الاستقرار فيها الألقاب والامتيازات والإعفاءات، وإذا حدث أن مرَّ ثانية بالموضع بعد عام أو عامين فلمنه كان يستشيط غضباً لرؤية مدينة «ه» بطيئة جداً في أن تكبر وكان الاسم الجليل الذي وهبها إياه كان ضمناً لازدهار فوريّ.

ومع ذلك فقد كانت تتلو كلُّ حملة حملة أخرى. والانتصارات تتلاحق. وكان كل انتصار يستمدّ ظلالاً من روائع الذي سبقه، كما يحدث حين يكون هناك عدد كبير من العشيقات. وإذا كانت كثير من المدن المنذورة للخلود تُبنى سريعاً وتُهمل سريعاً فإنها لا تلبث أن تغدو بساتين أو مراعي. ولما كان يُحْدَد وجودها مجرد نُصبٍ تذكاري فإنها سوف تنتظر عبر الزمن الجاسم الرَفْش الماهر في يد أحد علماء الآثار.

ذاك كان مآل الحاضرة الجديدة المقررة بجوار (الرُها) في المكان الذي قُبِض فيه على «فاليريان».

لقد أقيم احتفال غداة يوم المعركة لتخليد المشهد. وكان الضيف الصوري فيه هو «القيصر» الأسير شخصياً مربوطاً إلى عمود ومذهولاً ومُرتعداً وجاهلاً بعدُ ختام مصيره، وربما خائفاً من افتتاح الحفل بالتضحية به. وكانت سلسلة مفضضة تلتف حول رقبته قبل أن تُمنع في الاختفاء تحت المنصة التي كان يتربّع فوقها «شاهبور».

وإذ تقاطر الكهنة في موكب فقد أخذوا يقيمون قداساً. أدخنة ورقصات وابتهالات أفسستية للأذان التي سبق تدريبها وهمسات إنشادية لترويض من لا يعرفون أسرار الدين، وكل نفحة كانت مكتوبة في ألواح الأسلاف. واستسلم الحاضرون للسحر.

وكان على «كردير»، رئيس الكهنة، أن يُلقي العظة. وقد توجّه بالشكر إلى «أهورا - مازدا» على ما أنعم به من نصر على عباده، وعلى أولهم وأنبلهم وأتقاهم وأسدهم رأياً.

- المجد للكائن الإلهي الذي قاد عِرْقنا إلى هذا النصر وحَقَّر الكُفْرَةَ!

وزمجرت جميع الصدور:

- المجد!

- ليخلد من ارتفع بهذا النصر إلى مصافّ أجلّ الملوك في الماضي!

- ليخلد!

كان العاهل مستبشراً متعالياً واثقاً من استحقاقه ذلك النصر وهذه التهليلات.

ومع ذلك فقد انقلبت العظة إلى خطاب مُضَجِّر.

- بأيّ نصر كنّا سنفوز لو أنّ سيّد «الإمبراطورية» الإلهي استمع، لا قدر الله، إلى ثروة المراهقة والسفلة والخونة بدلاً من الإصغاء إلى أصوات حكماء «الدين الصحيح»؟ فلتبارك الأذن التي تعرف تمييز الحقّ من الباطل في كل شيء!

- لتبارك!

بحث عينا «ماني» عن عينيّ حاميه، فهو وحده كان قادراً، بحركة واحدة، أو بمجرد برطمة تتم عن الضيق، على فرض السكوت على «كردير». ولكنّ عينيّ «شاهبور» كانتا مسدّتين إلى الكاهن، وقد بدا أنه يُصغي إليه لمرة من غير اشمئزاز.

وإذ أحسّ الواقع بالتشجيع فقد زاد استبسلاً:

- لِيُلْعَنِ القُمْ السَّامُ الذي حاول زرع الكَدْر في الأذهان النبيلة ساعة القرار
الأسمى.

- لِيُلْعَنُ!.

لم يكن هناك بعدُ آية أمارّة من أمارات الهياج على ملامح العاهل. وكان ابن (بابل) ينظر إليه الآن مواجهة وبشكل مباشر وبقية باقية من الضراعة وبداية من الثورة. وكما تكرر الذكريات في ساعة الموت فقد كرّرت كثير من صور صداقتها في ذهنه، اعترافات ووعود وبُوح بأسرار وعالم برسم أن ينياء معاً، معاً في وجه الكهنة. وما هو ذا الآن هذا الصُمت. وهاتان العينان اللتان تمعنان في الفرار.

- اللعنة على الخائن المرطيق، عدو السُلالة والدين الصحيح!

- اللعنة!

- لتندم البهائم الضاربة التي تزحف تحت أقدام الكائنات الإلهية!

وفجأة دوى صوت، زعيق زَجَر:

- يا «كاهن ميديا»، هل ينبغي أن أجعلك تبتلع «بادهامك» لكيلا أسمع لعناتك؟.

لم يكن «شاهبور» هو الذي تكلم. ولا حتى «ماني»، فلم تكن هذه الطريقة

في الكلام طريقته. وتوقف «كردير» بغتة عن العجيج. وشرد بصره. وقال الصّوت:

- لا تبحث يميناً ولا يسرة، هذا أنا «هرمز» مَنْ أَشْكَنَكَ! وأمسِ عند الفجر كنت أنا، «هرمز» بن «شاهبور» الإلهي، الذي حارب. وهذا النصر الذي تتغرغر به أنا من انتزعه، بل هم فرساني ورفاق سلاحي الذين استشهدوا. وها أنت ذا تستخدم دمهم لتروي شهواتك الدنيئة للانتقام. هكذا أنتم يا كهنة (ميديا) مثل طيور الجيَف تتظرون أن يُعرَضَ المحاربون فوق الأبراج الجنائزية لتقتاتوا بجثثهم. كيف تجسر على إهانة مسامح سيّدنا بهذه الكلمات الخسيسة توجّهها إلى الرجل الذي شمله بحياته الإلهية؟.

كان الدور الآن دور «كردير» في أن يلتبس بنظره رداً من «شاهبور». وقد قرّر هذا في نهاية الأمر أن يتدخل. وبإشارة منه انحنى القيم على أمر الستار وأصغى. ثم انتصب لنقل عبارات العاهل.

- ليس الوقت وقت مشاجرات بل وقت احتفالات. لقد فزنا بنصر سوف يذكره أبناؤنا حتى الجيل الثالث والثلاثين. إن السيد يأمر بإقامة الأعياد عشرة أيام في الجيش والإمبراطورية بأسرها. وليس كل واحد الخصومات التي لا طائل تحتها، وكل كلمة جارحة أمكن أن تُقْلَ في لحظة نخل. لقد أظهر سيّدنا الرأفة لكلّ منكم في هذا اليوم السعيد، ولكن لا تحاول ألستكم إهانة مسامحه.

التصقت وجوه جميع رجال البلاط بالأرض. وظلّ «فاليريان» وحده واقفاً، واقفاً في قيوده.

لن يغفر «شاهبور» لـ «ماني» أنه كاد يحرمه من أجل انتصار له في أثناء حكمه. كما أن «ماني» لن يغفر لـ «شاهبور» سكوته حيال تهجمات «كردير». ولقد أصيبت صداقتهما بالقطيعة. ولا ريب في أنها كانت منافية لطبيعة الأمور، ولا ريب في أنها لم تكن قط لتخلو من الحسابات. ومع ذلك فإنه سيكون من

الغلو الظن بأن ملك الملوك قد ظل على الدوام غير متأثر بمثل ابن (بابل) العليا. أفيكون الأمر أمر توافق مصالح؟ غير أنه كذلك تلاقي أمان. وتعلق حقيقي.

كان ينبغي أن يبقى منه بعض الآثار على أي حال. فعلى الرغم من القطيعة فإن العاهل لم يسحب حمايته من «ماني» ولا من صحبه. وعندما كان يُحكم على أحد «المختارين» بعد دعوى تختصرة بالهرطقة أو المروق، أو عندما يُطرد بعض الأتباع من مدينة أو تُحرق منازلهم، وهو أمر أخذ يتزايد، فقد كان ابن (بابل) يكلف أحد مقرّبيه بالقيام بمسعى عاجل في الديوان أو عند «الدراياذ» الذي كان يدير شؤون البيت الإمبراطوري. وما إن يبلغ النبأ ملك الملوك حتى كان يُذكر على الملأ بقراره بالحماية. وعندما يبدأ القمع. قبل أن يستعيد مجراه بأشكال أخرى في مناطق أخرى من «الإمبراطورية». وليس من ريب في أنه كان بإمكان العاهل أن يزيد ن ضغطه ببعض القصاص الأمثل كالذي نزل قديماً بابته «هرا»، وأن يضع بذلك حدّاً للاضطهادات بدلاً من الاكتفاء بتلطيفها. غير أن حماسه للحماية كانت قد فترت، وكان يجب عزو ذلك إلى الشيخوخة والغفل على السواء.

ولم يعد «ماني» نفسه يزور البلاط. وقليل ما كان يُقيم من ناحية ثانية في (المدائن). وكان قد استأنف أسفاره الرسولية في أرجاء «الإمبراطورية». وكثيراً ما كان يقيم في «أرمينيا» حيث يحتفظ له «هرمز» بالرعاية البنوية نفسها. ولم يطلب إلى ملك الملوك قط أن يأذن بمقابلته. ولا حدث أن استدعاه «شاهبور».

باستثناء مرة واحدة مع ذلك. وكان قد انقضى أحد عشر عاماً. وكان «ماني» في (سوزا) عندما حضر مؤقّد استدعيه للمثول بين يدي العاهل الذي كان قد استقرّ للشقاء في مقرّه في (بيت - لا بات).

لم يكن ليخلو من حنين وجود «ماني» في المدينة التي بدأ فيها قديماً رحلته الطويلة داخل «الإمبراطورية» السامانية. فقد كانت الضيعة تحمل يومها اسمها

التوراتي القديم وسورها اللبني الوضع الذي كان ينبغي تدعيمه بعد كل مطرة. وكانت تمتد خارج الأسوار حقول الفستق التي تمثل ثروتها المتواضعة. ولم تكن مشاريع سيد «الإمبراطورية» في ذلك الحين سوى شائعات، وكان السكان يتناقلونها بجدل واعتزاز من غير أن يحسروا كثيراً على تصديق مثل هذه البركة.

وعندما زارها ابن (بابل) من جديد كان المشهد غير المشهد. فما الذي بقي من الضيعة القديمة؟ كومة من الأجر المتآكل المسمر متجمعة على نفسها ومنخورة أطرافها ومبقورة. وحواليها كانت ورشة بلا حدود، وقصور، وحظائر، وبيوت نار مقدسة، وجادات مبلطة تحف بها شجيرات هزيلة، ومنازل للجند، وسور حماية كامل بأبراج رماية، جديد، ومبيض وكأنه أعيد لعرض عسكري.

كانت المدينة تُدعى مذاك (غونديشاهبور). وكانت تلك هي على كل حال التسمية الرسمية. إذ ظلّ السكان الأصليون يكرهون تسميتها على هذا النحو. وستبقى مدينتهم بالنسبة إليهم على الدوام (بيت - لابات). وأما المدينة الجديدة التي كانوا لا يغامرون بالذهاب إليها إلا للضرورة فكانوا يدعونها (بيل) باسم المعماري الذي صمّمها. وهي تسمية ساخرة ووقحة ما كان أحد ليجرؤ على ترديدها على مسامع ملك الملوك.

وإذا كان اعتزاز أهل (بيت - لابات) المضيف قد تحوّل إلى عداء فلأنّ صنفين حقيرين من النّهابين باتوا يدوسون أرضها بكثرة. الجنود أولاً - إذ كيف بالإمكان تربية أسرة، أو كيف بالإمكان تعاظمي تجارة شريفة بجوار أكواخ تلفظ في شوارعهم كل مساء جحافلها من السّكّرين؟ ثم كبراء المملكة - فما إن كشف العاهل عن نيّاته تجاه المدينة حتى أخذ الأمراء والوزراء والأمناء وكبار الطواشين وعمداء الطبقات يتقاطرون لامتلاك أحسن الأراضي بأبخس الأثمان. وكانت العاصمة حيث هو العاهل، وكان رجال الحاشية يتبعون بطينهم ودسائسهم وتشريفاتهم.

وأنجز القصر الذي أمر به «شاهبور» في عشرين شهراً. والحق أن آلاف

الأسرى كانوا قد ألحقوا بالورشة، وعدداً من العمّال، ولكن ضُمت إليها كذلك جرفيّون مَهْرَة وبنّاؤون وبلّاطون بارعون وصنّاع رياض ونقاشون ومنجّدون أُسِرَ معظمهم في (نصبيين) و(هترا) و(سنجار) وفي مدن تجارية أخرى خلال المعارك المختلفة التي خاضتها الجيوش الساسانية عند أطراف «الإمبراطورية» الرومانية. وبفضل هؤلاء البنّائين المجلوين بالقوة ويتمتعون مع ذلك بضئائر حيّة، فقد كان بالإمكان مقارنة القصر بلا خجل بقصر (المدائن). وربما كانت قاعة العرش أوطأ قبة. بيد أنها آتت زخرفة، والشقوق التي يمرّ منها النور معجزة في الرهافة والمهارة، مُرْشحة في كل ساعة من ساعات النهار أسطع الأشعة، مُقوّة جميع الألوان من غير أن تبهر مع ذلك، مُنوّرة من غير أن تُدْفئ، تاركة لنسمة أن تهوّم باستمرار صاخبةً وعليلةً.

قبل أن يذهب «ماني» إلى القصر بدأ بزيارة المعبد الذي كان يجتمع فيه اتباعه الآن في المدينة القديمة. وكانت جدرانه مطليّة بيد فنّانين محلّيين على طريقة «الرسول» الذي كان فنّه قد شاع وأصبح مذهباً. وفي صدر المعبد كانت ثلاثة كتب، بمثابة مذابيح، مفتوحة فوق ثلاثة قِمَطرات وكأنّها راحات مفتوحة نحو السماء. وما إن انتهى الناس من صلواتهم ودعائهم حتى بادروا إلى تقديم سُبحة شكواهم لرفعها إلى العاهل. وتعاطف معهم «ماني» بزفرة تنم عن فقدان الحَوْل والقوّة. وغمغم: «إن حبّ الملوك ليس قطّ أقلّ تخريباً من كُرههم. وسعيدٌ هو الماء الذي لا يشرب منه أحداً وسعيدةٌ هي الشجر التي تُزهر بعيداً عن الطُرقات، ولكنّ أتى لها أن تدري بسعادتها؟».

استقبل الملك «ماني» في حجرة ذات باب واطيء، نسخة صادقة عن التي تقابلا فيها للمرة الأولى على انفراد. وكان يُغطّي ركبتيه بدثار من الصوف. وكان شعره الطويل المعقوص ولحيته بلون يشبه في حمرة لون الصراصير، لون الشيخوخات المتنكرة. وكان يفوح من كلماته الأولى حُفول أشدّ توافقاً مع لغة الكُتّبة منه مع لغة ملك الملوك، وربما كانت تلك طريقته في إخفاء الانفعال الناجم عن اللقاء بعد غياب.

- تقضي عادتنا منذ القِدَم بأن يطلب كلّ ملك من أمهر رسّامي عهده أن يرسم له صورته. وقد قيل لي إنه أنتَ أيها الطبيب البابلي. أفتكون يدك لا تزال ثابتة؟

- تظلّ يدي طائعة.

- لقد أحضرت إلى هنا الكتاب الذي يَضُمُّ صور أسلافي لترى أيّ طريقة ينبغي أن تتّبع.

- لي طريقي الخاصّة في الرسم.

- ظننت أني سمعت أن يدك طائعة؟.

- رأسي يرسم ويدي تُطيع. إن في وسع أيّ رسّام أن يُحاكي طريقة القدماء، لكنّه لن يُميّز عندئذٍ عاهلٌ من آخر إلا بحجم لحيته أو تاجه. وإذا رغب السيد في أن أرسمه كما هو لكي تُعرّف إلى الأبد الملامح التي هي ملاعُقه، والقيَمُ التي تُخفيها قسَماته، فسوف أرسمه على طريقي.

- افعل كما تشاء. هل عليّ أن أقف أمامك أم أنّ ملاعُحي ما تزال محفوظة في ذاكرتك؟

- لقد حفظت ذاكرتي صُوراً بيد أنها ليست الصُور التي تراها عيناي.

- ربما كان أفضل أن تُقدِّمني حسب الصُور الباقية في الذاكرة، غير أنّ هذا ليس من تقاليد أجدادي الإلهيين، لسوف أقف أمامك.

وهكذا وقف «شاهبور» للرسم في ثوب الاحتفالات خلال سبعة أيام بمعدّل ساعتين في اليوم. بلا حراك. لا ينبس بينت شفة. و«ماني» لم ينبس أيضاً بكلمة. وما إن انتهى من عمله حتى أراه للعاهل الذي ابتسم ابتسامة تنمّ عن حسرة.

- وأسفاه، هكذا أنا بالضبط الآن.

ينبغي في هذه المرحلة من رحلة «ماني» فتح هلالين. هلالان ينطويان بحدّ ذاتهما على لغز، ولكنهما ربّما كانا مفتاحاً للغز قديم.

كان يا ما كان في قديم الزمان ملكة، ألا تُحكى الأساطير على هذا النحو؟ جميلة وغنيّة وطموح حتى السُرى وموهوبة ذكاء خارقاً، غير أنه كان يتأكّلها مرض لم ينبج فيه أي دواء. وشكت ذلك يوماً إلى أختها التي نقلت إليها أقوال بعض أصحاب القوافل عن معجزات طبيب من بلاد (بابل). وعبرت الملكة عن رغبتها العارمة في لقائه، وفي الليلة نفسها رأت في منامها صورته وسمعت صوته. وعندما استيقظت في الصباح كانت قد شُفيت. واعتنقت غير دينها.

تلك هي الحكاية المحفوظة في الكتابات المانوية. إن ألف معجزة مماثلة تُحكى مسيرة الأنبياء، وفي معظم الأحيان فإن الحكايات عنها تُناقَل عن عدّة أشخاص وكانّ الأساطير تنتمي إلى مُلك مشترك يُمتاح منه من عصر إلى عصر، ومن شعب إلى شعب، ومن مُعتقَد إلى مُعتقَد. بيد أنه يُعثر فيه أحياناً على مثقال حبة من الحقيقة، أو على انعكاس مُجمل لحادثة حقيقية.

ونعرف اليوم أن الملكة كانت تُدعى «زنوبيا» [عرفها العرب باسم «الزَبَاء»]، وأن مملكتها كانت (تدمر)، وأنها اعتنقت دين «ماني» وحاولت نشره بأنحاء (مصر)، بل حتى أبعد من ذلك. فهل نعرف يوماً بفضل أيّ لقاء؟ ومهما يكن فإن هناك أسراراً أخرى قد تبدّدت. وعليه فقد طالما تساءل الناس عن معتقدات سيّدة الصحراء العظيمة، هي التي كانت تستضيف في بلاطها الفلاسفة واليهود و«الناصرين» وتترك للناس أن يمجّدوا في معابد عاصمتها أرباب جميع الأمم. إن نفحة التسامح هذه هي نفحة «ماني».

لقد كانت (تدمر) في عصرها أكثر بكثير من مدينة غنيّة تحطّ فيها القوافل رحالها. فقد كانت تصبو إلى أن تصبح الحاضرة العالمية، وكادت خلال عقد من الزمن أن تحجب (روما) ومعها (المدائن). وعليه فقد كان شخص «زنوبيا» هو المنافس المشترك لأباطرة «الشرق» و«الغرب» الذي كسبه «ماني» إلى قضيته. وإذا

كانت ملكة حرة على مدينة حرة فقد كان عليها أن تخضع في نهاية المطاف لقانون العملاقين.

بيد أن اسمها ظل أكثر إشراقاً من اسم قاهرتها.

فصلت بضعة أسابيع بين سقوط «زنوبيا» وزوال «شاهبور». وإذا كان على «ماني» أن يختار يوماً بين ولائين فإن الصراع مع النفس كان قد انتهى.

كان ذلك عام ٢٧٢ م. وكان عمر ابن (بابل) آنذاك ستة وخمسين عاماً. مبتلى؟ ناحل؟ مُضْعَضِع؟ لقد كانت حميته سليمة معافاة.

عندما أقبل المنادون يصيحون في شوارع (المدائن) بأنه ليس على أحد أن يلجأ إلى الطب في الأيام القادمة كيلا يلتبس من «السماء» شفاءً غير ما يشفي ملك الملوك ولا تتفرق «الرحمة»، فهم أن «شاهبور» كان في طور الاحتضار.

وفي اليوم التالي أعلن الحداد. مهيباً وقوراً، ولكن بلا دموع ولا نواح ولا حزن بادٍ. فبكاء ميت معناه حسب «الأفستا» الشك في «الخلاص»، وإنه لتعبير سوقي عن عدم الإيمان. بل لقد فرض الانقياء على أنفسهم إعلان فرحتهم لأن العاهل، بوصفه كائناً إلهياً، سيحظى في «الأخرة» بأكثر مما حظي به في الدنيا من امتيازات. وكان العاهل لا يزال مسجى قريباً جداً من العرش في دُخنة كثيفة من العرعر الذي يُقال إنه لطيفٌ على مناخر الأموات. وسوف يُقاد قبل المساء إلى قمة بُرج من الأجر ويُقدّم إلى الكواسر، إذ لا ينبغي قط أن تُدنّس التربةُ بجسم متحلل. وعندما تغدو عظام المرحوم سيّد «الإمبراطورية» معروفة مُبَيّضة فسوف يضعها الكهنة في الحق الذي يقوم مقام النعش.

وقبل أن يغادر العاهل قصره للمرة الأخيرة اجتمع ثلاثة رجال في حجرة مُحاذية لقاعة العرش. وكانوا يمثلون الطبقات الثلاث المهتمة بشؤون «الدولة» الكهنة والمحاربين والكتبة. وكان العاهل قد أعطى إلى كل منهم بيده كتاباً

مختوماً يُعبر فيه عن رغباته فيما يتعلق بوراثة العرش. ثلاث وثائق يُفترض أن تكون متماثلة ومتطابقة لتحاشي كل تزوير.

ظَلَّ البلاغ سراً حتى اللحظة الأخيرة. لأنه إذا كانت صياغته متوافقة على الدوام وبعض أعراف الكتابة فإن مضمونه كان يخضع لرغبات العاهل وحدها. وكان في وسعه أن يقتصر على تعداد الصفات المطلوبة في خَلْفه، «الاستقامة» و«البسالة» و«التقوى»، من غير تسمية أحد؛ وعندها يتحول مسؤولو الطوائف إلى ناخبين لاختيار عضو السُلالة الذي يحكمون بأنه الأشدّ توافقاً مع هذه المتطلبات الغامضة؛ وإذا لم يتوصلوا إلى اتفاق فيما بينهم كانت الكلمة الفصل لرئيس الكهنة، «بعد استشارة الملائكة». وتلكم كانت التقاليد التي حفظتها الكتابات المقدسة ووافق عليها مؤسس «الإمبراطورية».

وإذا كان الأمر يتعلق بـ «شاهبور» فقد انتظر أن يُعين خَلْفه في أثناء حياته، بل أن يُشركه في الحكم كما فعل به هو بالذات «أردشير». ولم يفعل. وذلك لأنه كان قد احتفظ ولا شك بذكرى مريرة عن تلك الحقبة التي قام فيها نفور كثيب بينه وبين أبيه؛ فما إن عيّنه «أردشير» حتى أخذ يكرمه وكأنه يقرأ في عينيه موته بالذات. وبالإمكان التصور أن «شاهبور» قد خشي أن يعيش التجربة نفسها مع وريثه هو.

وقد يكون تردّد أيضاً حتى النهاية في أمر الشخص الذي يسمّيه. أفلم يُقلّ إنه استدعى خلال مرضه الأخير الناصحين الثلاثة في قابل الأيام ليستردّ منهم الرسائل المعهود بها إليهم قبل بضع سنوات واستبداها بأخرى أكثر توافقاً مع تقلبات عواطفه الجديدة؟.

كان الستار قد أُسْدِل في قاعة العرش لإخفاء التاج المعلق. وفي المكان الذي يختر فيه الزوّار في العادة نُصِبَت قاعدة جنازية ماثلة لإبقاء رأس العاهل الميت مرفوعاً. وجلس حواليه الكهنة المبخرون والمصلّون. وجلس أهل البلاط في مكانهم المعتاد. وكان الجمهور الحقيقي في الخارج، في حدائق القصر وبالقرب

من السياج. وأخذ الشعب المديني يراقب تحرك النافذين الناعم متسللاً بالحدس باسم السيد المقبل.

وفُتحت قاعة المداولات آخر الأمر. وخرج الأعيان الثلاثة حسب الريب المتوافق مع مقاماتهم، الكاهن الأكبر «كردير» أولاً ثم عميد المحاربين وبعدهما رئيس الكتبة. وكلّ منهم يحمل في راحتيه المبسوطتين رقاً ملفوفاً منذ سَوْضَ الختم. وفتحوا الرُّقاق معاً دفعة واحدة، بيد أن «كردير» وحده هو الذي قرأ بصوت مرتفع، واكتفى رفيقه بالتحقق بالنظر من صحّة نُسختيهما.

- «أنا، عابد «أهورا - مازدا»، «شاهبور» ملك ملوك «إيران» و«غير إيران»، ابن الإلهي «أردشير»، قد فتحتُ من المناطق أكثر ممّا في وسعي أن أُسمّي وخدمت الربّ بإخلاص. فلتقدّر «الساء» أن يتخلّد ذِكرِي.

«لقد اخترتُ في هذه الساعة التي أتأهب فيها للانضمام إلى الصينو السماوي لـ «إمبراطوريّتي»، إلى جانب أسلافي الأجداد، أن أعهد بالصولجان والتاج إلى أحقّ أفراد السُلالة، ابني العزيز...».

تنحني الكاهن وتضاعف الصمت الذي كان شاملاً.

- «ابني العزيز، الإلهي «هرمز»، ملك (أرمينيا) الأكبر، فليقدّر له أن ينال صيت البسالة نفسه...».

ضاعت الكلمات الأخيرة في ضوضاء المتافات وصرفت الحاشية أبصارها إلى منصّة الأمراء، ونظرت أوّل ما نظرت إلى العاهل الجديد الذي تقدّم بشكل عفويّ خطوتين خارج الصفّ. ثم إلى أخيه البكر «بهرام» الذي اتّكأ على أقرب كتفٍ منه. وتبدلت نظرة مُقتَضِبة بينه وبين «كردير» الذي ارتسمت على وجهه تكشيرة تنمّ عن العجز.

كان «ماني» أيضاً على وشك أن يتداعى لأسباب أخرى تماماً. فقد كان حتى هذه اللحظة مقتنعاً، شأنه شأن سائر الرعايا، بأن العرش سيؤول إلى «بهرام» الذي كان حديثاً قد تقرب كثيراً من أبيه، والذي كان يتمتع بدعم الكهنة، في

حين كان «هرمز» يعيش نصف حرمان من الخطوة في مملكته البعيدة في (أرمينيا) وعلاقته بملك الملوك من السوء بحيث لم يفكر حتى في القدوم لزيارته لو لم يعلم أنه كان يُحتَضَر.

وكان «ماني» لا يزال يشعر حتى ذلك الصباح وهو يتلقى نبأ موت العاهل العجوز بأن الدنيا أخذت تُظلم حوالته. وكانت عمليات الاضطهاد قد تكاثفت خلال الأسابيع السابقة، بما في ذلك داخل العاصمة، بسبب مرض «شاهبور» الذي ظلّ في نظر المؤمنين آخرَ حاجزٍ يقيهم، وقد كان قليل اللهفة ولكنّ مخلصاً على الدوام لوعده بالحماية.

باح ابن (بابل) قبل ذهابه إلى القصر بشيء من «موم» إلى «تروأمه» السامري الذي لم يسعَ قطّ إلى طمأنته. وقد قال له: «إذا كانت النهاية قريبة فعليك أن تُدعين لها وتعيّن تلاميذك لمواجهةها. أفنكون قد كتبت ورسمت وعلمت من أجل معاصريك وحدهم؟».

وها هو ذا الكابوس قد تبدّد، وها هو ذا الأمل ينبعث من جديد، بفضل كلمات خرجت، يا للمفارقة، من فم «كردير» بالذات: «... ابني العزيز، الإلهي «هرمز»...».

تابع الكاهن المتورّط خطابه على كل حال، من غير احترام للطقس المكرّس. - لقد وافقت الملائكة على أن يكون للعاهل هو «هرمز» الإلهي، ابن الإلهي «شاهبور». فوّضوا إليه أمرهم أيها الخلق، ولنبتهج!

أشار إلى الأمير المنتخب بالاقتراب وأمسك بيده وهو يسأله بصوت مرتفع: - أُنقبل من «العلي» دينَ «زرادشت» الذي رسّخه «قيشسب» وأحياه «أردشير»؟

- سأكون في خدمة الربّ وأسمى إلى خير رعائيا.

حمل العاهل الجديد إلى العرش، وكان احتفالاً من غير آبهة، احتفال مخصّص وحسب لتقصير أمد شغور الحكم. وسوف يتمّ الاحتفال الرسمي

الحقيقي يوم التويج، بعد هذا اليوم بكثير، وفي غير هذا المكان. وكانت العادة تقضي بأن يجري في عيد «التيروز» القادم مع بداية السنة الجديدة. بعيداً عن (المدائن)، في مشهد مخصص في (برسيديا) مهد السلاطة السامانية.

ومع ذلك فقد كان الحكم بالنسبة إلى «هرمز» قد نيل. وقد هرع رعاياه عند قدميه. و«جهرام» بالذات ألزم نفسه بالسجود فدعاه أخوه إلى ارتقاء درجات العرش ليضمه إليه وسط التهليل. ولم يتحرك «ماني» في زحمة التهاني الصادرة عن الحاشية. ومع ذلك فقد كان تابعوه في الخارج وجميع الذين يشاطرونهم الأمل نفسه راغبين في الابتهاج والغناء والاحتفال؛ وسوف تلقى «ديناغ» التي كان العاهل الجديد أباً ثانياً بالنسبة إليها بصفيرتها المزينة بخيوط فضية طويلة إلى الأمام فوق كتفها اليسرى. . . وهنا في القصر بالذات، وسط أعيان «الإمبراطورية» كانت لسعادة أصدقاء «الرسول» نبرات مُميزة.

أخذ «هرمز» يبحث بعينه شخصياً وقد تخلّص من الإعصار عنّ كان يدعو «المُعَلِّم». ورمقه برهة وجهه في الإشارة إليه خفية، غير أن ابن (بابل) لم يكن ينظر إلا إلى داخل ذاته. مهموماً في لحظة السعادة هذه وكأنه مُعَذَّب.

وقادته خطاه إلى جثمان «شاهبور» الذي كان كلّ أحد قد أشاح عنه باستثناء المُبحرين. ولقد أراد أن يكشف في القَسَمات الجامدة للذي كان قريباً جداً منه مفتاح السرّ الذي كان يجري تحت بصره. وأبطأ في ذلك التأمل صامتاً أذنيه عن كل شيء وغائباً عن الوجدان. ثم تسلّل بأنجاء باب الخروج من غير أن يُعير نظرة إلى ملك الملوك الجديد.

ولحق به القِيم على أمر الستار وهو يلهث عند طرف ردهة الانتظار. فقد كان العاهل يرغب في استقباله غداً عند مطلع الشمس.

قال «هرمز» وهو يرحّب به:

.. أأكون قد فقدت المُعَلِّم والصديق؟ لقد كان من الممكن القول أمس إنَّ

وجه حمار الوحش «كردير» كان أبهج من وجهك، وأن أخي «بهرام» كان أقلّ أسفاً منك. تُرى هل تخشى جميع الانتصارات؟ وهل تحذر كل أنواع السعادة؟.

بدا «ماني» نادماً. ولقد كان كذلك لأنه، منذ لقائهما على ضفاف «السند» قبل ثلاثين عاماً، فإن «هرمز» لم يُظهر له قطُّ غيرَ أصدق الودِّ حتى ولو كان عليه أن يُخاصم الدنيا بأسرها لأجله.

- لا يمكن تفسير سلوكي بغير الدهشة المتناهية. لقد جادت «السماء» لي ولـ «ديناغ» ولجميع أخصائي، كما لـ «الإمبراطورية» بأسرها، هدية. فلقد كنا نخشى عهد الاضطهاد، وقد حصلنا على عهد البساحة. أليس في هذا ما يجعل صوابنا يطير من السعادة؟

- لم يُنبئك إذن «رفيقك» السماوي!

- لم يدعني أرجو أيّ شيء.

- لم يُرد ولا شك أن يحرمك فرحة المفاجأة.

على الرغم من تجاوز «هرمز» الخمسين من العمر فقد كان في عينيه سداجة طفل كانت تثير في نفس ابن (بابل) رقة عارمة.

- والآن وقد انقضت دهشتك فإن باستطاعتك تماماً أن تُعبر لي عن سعادتك!

- أياكون في مقدور سيّد «الإمبراطورية» أن يرتاب في ذلك؟

أجال «هرمز» بصره علناً في الحجرة الخاوية.

- أتكلمني أنا على هذا النحو يا «ماني»؟ أنا سيّد «الإمبراطورية»! من المناسب أن تتوجّه إليّ بهذه الكلمات في الجلسات العامة، ولكن حين نكون وحدنا فإنني أمرك بوصفي سيّد «الإمبراطورية» بأن تحدّثني كما قد فعلت على الدوام. بحق جميع «السموات»، هل تسعى فعلاً إلى الابتعاد عني في اللحظة التي أنا بأمس الحاجة فيها إلى وجودك، إلى صداقتك، إلى نصائحك؟ لقد كان

أبي مُحِقّاً في أن يسمّيكَ فارّاً، ذاك هو أنت بالفعل. بيد أنه لن يكون لي مقدار صبره ولا ما كان له من ضبط النفس. أريد أن تقول لي في هذه اللحظة، بشرفك وباسم «الذي» جعلك «رسولاً» ما إذا كنت ستكون أولاً، حتى آخر مهمة في عمرك، الصديق والسند والإلهام و«النور» للمكي. أجبني وإلاً فاختفِ إلى الأبد. ولا أسمعنُ أبداً باسمك ولا باسم أخصائك.

- «هرمز»، إنك الصديق الذي دافع عنيّ ظلم العالم. وإنني حتى لو ضربتني يذكُ إلى أن أموت فلن ألعنّها أبداً.

- تضربك؟ يدي؟

كانت عينا الملك نديتين.

وتناول يد «ماني» ورفعها إلى شفّتيه كما كان قد فعل أحياناً فيما مضى. بيد أنه لم يكن حينها ملك الملوك!

- أيكون رفيقك السماوي قد قال لك أن تحذرنِي؟

- لا يا «هرمز»، ولكنّه لو نوّه باسمك فقط لكأنت وساوسي هذأت.

- أتكون قد هذأت الآن؟

- لم يسبق قط أن ارتبْتُ بك.

- لقد انقضى زمن الشك يا «ماني». وكذلك زمن التردّد في اتخاذ القرار. وعلينا أن نبيّ معاً. ولسوف أجعل المنادين يُعلنون منذ هذا المساء أن ملك الملوك يعتنق دين «ماني».

- لا يا «هرمز»! إنّه هكذا ضللنا الطريق أنا وأبوك. فلقد انتظرتُ منه الكثير وانتظر مني الكثير. وليس هذا هو الطريق الرشيد. فلسوف ترغب يوماً في أن تجعلني أُنخذ قرارات ملك، وأرغب في أن أجعلك تتبني هواجس «رسول». وستقوم بيننا المارة ويغدو أحَدُنا غريباً عن الآخر، بل ربما غدونا عدوين. وسوف تجحد نفسك وأنت تقتل من تحبّ، من غير أن تكون قد تمّنيّت قطّ ذلك.

ثم تبيخني بدموع مُخْلِصه . لا يا «هرمز»، لا تدفعني إلى ارتكاب الخطأ نفسه مرتين، فلن تغفر لي «الساء» إخفاقاً جديداً.

- لقد قلتَ لي يوماً إن حكم «النور» لم يتمكّن من التصاقب مع حكم «شاهبور»، ولقد رجوتُ أن يتصاقب مع حكمي .

- ليس الأمرُ أمرُك يا «هرمز» ولا هو أمر «شاهبور» ولا أمري . فالذنبُ ذنبُ هذا العصر . ففي كل مكان ينتصب حولنا أتباع الآلهة المتعصّبين وأنا أحمل صوت الربوبية السُّمّحة . وسوف تكون ديانتِي، زمناً طويلاً بعدُ، ديانةً حَفَنَةً من «المختارين» الزاهدين في متاع هذا العالم . ولن يكن في مقدور «الإمبراطورية» اعتناقها . غير أنه بإمكاننا أن نبني كثيراً من الأشياء معاً إذا تمسك كلُّ منا بالدور الخاصِّ به . إذا حكمتُ بالعدل، وتصرفتُ لخير رعاياك، كما أقسمتُ على ذلك، وأمنتُ للجميع حرية المعتقد . وإذا عملتُ من جهتي، مع التلاميذ الذين ارتضوا الانخراط في «أملي»، على إرشاد الأمم إلى «النور» .

- وهل يمنعنا ذلك من أن نظلَّ صديقين؟

- لقد كنتُ بالفعل صديقاً للملك (أرمينيا)، فلماذا لا أكون صديقاً لسيد «الإمبراطورية»؟ وسوف نلتقي كلما شئتُ، بمفردنا كما في هذه الصبيحة، ونتحدث عن العالم و«حداثق النور» والرسم، وعن الطبِّ والتناسق . غير أنني سوف أعود في اللحظة التي أغادر فيها القصر «رسولاً» ولا شيء غير ذلك، وتعود أنت ملكُ الملوك، وكلُّ منّا في طريقه، بأسلحته الخاصة وأعبائه الخاصة .

عرفت ديانة «ماني» في الأشهر التي تلت أعظم انتشار مشهود عبر «الإمبراطورية» وفيما وراءها . فقد انضمَّ عدد كبير من الفرسان والكهنة المعادين لمعتقدات «كردير» وناسٌ من جميع الطبقات إلى «المختارين» أو المريدين أو مجرد المستمعين . ولم يَسعَ «الرسول» إلى تفسير هذه الاندفاعة المفاجئة . فلقد أسهم فيها كثيراً تعاطفُ «هرمز» البديهيّ مُضَاعَفاً بما يكنه الناس من ودِّ لعاهلهم الجديد الذي تَكشف عن إنسان رحيم من غير ضعف بدا أن وجوده على

العرش قد نَشَرَ، بشيء من السحر الخلال، الرخاء والسعادة. فما من وباء ولا مجاعة ولا طوفان مدمر، ولا أي كارثة من الكوارث التي تأخذ عادة بالحناق. وأعرب طالع العهد عن خير النجوم.

كانت الاستعدادات لحفلة التتويج سخية، باهظة الكلفة بالتأكيد، بيد أن الشعب لم يَشْتَكَ، فلقد حُرِص على أن يُوزَّع على الفقراء ما به يحتلفون بشكل لائق وكريم. وبدأ صبر «هرمز» يتفد مع اقتراب «النيروز». وكان يطالب كل صباح بـ «ماني» ليبوح إليه بما كابد البارحة من تَحُمُّس وانتظار. ولقد كان يتمنى كثيراً أن يصحبه في الرحلة إلى (پرميديا). غير أن ابن (بابل) أقنعه بأن يُعفيه من ذلك، فلم يكن له من مكان في مثل ذلك الحفل.

تمثل المشهد في صورة عمرَ ضَيِّق بين صخرتين شاهقتين، وهناك كان «أردشير» وبعده «شاهبور» قد نقشا في الصخر صورتَي تنويجهما. وعلى بُعد خطوات من المؤسسين كانت مساحة ملساء من غير نقش جاهزة لاستقبال أثر العاهل الجديد ثالث الأسرة الساسانية. وكانت أرض الممر المقدس المُحَصَّبة قد فُرِشت بالبُسْط، وغُطيت الجدران الصخرية إلى ارتفاع ثلاث قامات بالحرائر المنقوشة بشعارات السُلالة، شمس ونار وقمر وتيوس وحمُر وحشية وكلاب وأسود وخنازير بريّة. وفي الوسط، في المكان الذي يتسع فيه الممر ويستنبر، نُصِبَتْ منصّة انحدرت أطرافها انحداراً خفيفاً نحو الأرض. وعلى المنصّة تاج لم يُلبس.

أخذ يتقدّم موكب من كلا الجانبين. أحدهما يقوده «هرمز» على صهوة جواد. وكان شعره الطويل المعقوص يفيض تحت تاج بشكل خوذة تعلوها كُرة رُبِطت بها أشرطة ملوّنة مرفقة إلى الخلف؛ والحلقة التي تضمّ لحيته كانت الآن من الذهب والدرّ. وكان يتبعه، ولكن عن بُعدٍ قليل، ضباط حرسه والأمراء من ذوي المُحتد والأخصاء والموسيقيون ثم مجموع رجال الحاشية؛ ومن الجهة المقابلة قِدم الكهنة وعلى رأسهم «كردير». ولسوف يحلّ لمّة مباركة محلّ

«الرب الأعلى»، محل «أهورا - مازدا»، ليُضفي على الملك الجلال الأعظم.

كان الموكبان سيران خطوة بخطوة، وكان بطوهما يمدّ في أجل الاحتفال. زينات وأدخنة وعطور وأهازيج. أناشيد ملحمية في صفّ العاهل ورقصات مقدّسة في جمّع الكاهن الأكبر. وفي نهاية المسيرة بعض الحماصات المنتظرة، مشاجرات سلمية وعربدات. موكب كرنفال رافل في الزينة والبرادع.

سار كل شيء على هذا النحو إلى أن التقى الجوادان اللذان على رأس الموكبين عند المنصّة. إلى أن كان الصمت المفاجيء. وها هو ذا «كردير» يمسك بيده اليمنى الحلقة المزيّنة بالأشرطة، رمز الملكية الإلهية، وفي يده اليسرى الصولجان. وعندئذٍ تناول «هرمز» الحلقة يسراه ومدّ اليمنى إلى الأمام وسبّابتها تحنيّة أمارّة على الخضوع لـ «أهورا - مازدا»؛ ثم تناول الصولجان وجاء دور «كردير»، وقد عاد مجرد إنسان عاديّ، للقيام بحركة الخضوع بأنجاء من تزوّد منذ اللحظة بالسلطة الإلهية.

ترك ملك الملوك عندئذٍ زمام مطيّة فترجّل رئيس الكهنة وأمسك به وأخذ يُدير «هرمز» بتمهّل حول نفسه وسط هتافات رعاياه. ثم ذهب العاهل للجلوس على العرش. وقُدّم إليه «كردير» كأساً ذهبية على شكل قَرْن فرمها إلى شفّتيه. وكان ذلك آخر حركة في الاحتفال العام. وعاد الموكبان من حيث جاءا، على عجل هذه المرّة. وأقفر المشهد. وبقي الملك وحيداً. مع كأسه. ورفيق واحد هو عبد عجوز أصمّ مزوّد بمذبة. وفي مواجهته، وفي كل مكان حوالبه، وعمّا قريب داخل ذاته، الأجداد والأرباب.

لأن الكأس تحتوي على شراب الآلهة، الـ «هَوُوما»، وقد حضّره البارحة «كردير» ومعاونوه تبعاً لطقس مُغرّق في القِدَم. وكانت أغصان نبتة الـ «هَوُوما» قد طُهرت وسُجّنت في هاون مقدّس ثم مُزجت باللبن والأعشاب التي كان كبار الكهنة وحدهم يتناقلون سرّها. وإنه لشراب مقدّس من (الهند) القديمة ومن (فارس) يُدخل الكائن الإلهي الذي يشربه في النشوة الصوفية التي بها يتحد بالأرباب الآخرين.

ويتلوى العاهل من التشنّج بتأثير الـ «هَومَا»، غير أنه لا يُفترض في أيّ شخص عاديّ أن يُوقف هذه الإفراطات الخارقة. ويستسلم العاهل للهذيان، بيد أنه لا يُفترض في أيّ شخص عاديّ أن يسمع ما يصيح به أو يُغمّغم؛ ويقول عنه المؤمنون إنه في حديث سرّي مع أجداده.

وفاضت روح ملك الملوك في أثناء ممارسته ربوبيّته تحت غيبي الخادم العجوز الأصمّ الجامدتين الساهرتين.

وفي الليل، وبينما كان الشعب والأعيان لا يزالون يشربون في صحّة الإلهي «هرمز»، كان رؤساء الطبقات المجتمعون للانتخاب قد عيّنوا ملك الملوك الجديد. «بهرام». ذلك الذي كان الكهنة يؤثرونه.

تُرى من كان يستطيع أن يخطيء في هويّة المُسمّين؟ ولكن من يستطيع أيضاً أن يُعاقبهم أو أن يُقدّم الدليل على تجريمهم؟ وتقرّر أن العاهل لم يتحمّل شراب الآلهة، أو أنه ربما لم يكن جديراً بشربه، أو ربما لم يوافق ملاك الـ «هَومَا» على تنويمه. بل لقد قدّمت بداهة الجريمة حجة للقتل: لو أراد «كردير» أن يقتل فهل كان يفعل ذلك بيديه أمام البلد مجتمِعاً؟

إذا كان «هرمز» قد قُتل فلأن وصوله إلى العرش بدا للكهنة والمحاربين وكأنه مدخل إلى انتصار «ماني». بيد أن هذا الأخير لم يُرد قطّ تصديق مثل هذه المعجزة. وعندما بدت «ديناخ» نشوى بالأمل والسعادة فقد جهد في إفهامها أن انحراف العالم لن يدع نفسه يُصرَّع على هذا النحو، وحثّها عن الألم والصبر والمِحن. لقد علّمتها السنوات الطويلة التي قضاها بجوار «شاهبور» أن يجتري من جميع الأوهام. فماذا أفاده جلفه الواعد مع «الساساني» الأعظم ما دام «الرسول» لم يستطع منع الحروب ولا أعمال الاضطهاد، وما دام أقوى عاهل في عصره لم يجرؤ على تحدّي الطبقات أو الوفاء بوعدته بتغيير ديانته؟.

كانت نفس «ماني» عامرة بالمرارة في ذلك العام المضطرب. وبالإعياء أيضاً. وبوغي مُقيم. فحكم «هرمز» ما كان ليكون في نظره سوى فُرْجَة متأخرة وعابرة في سماء من الظلّلمات. وإذا كان قد حزن عندما تلقى نبأ موته واختم وثار فلأنه أراد أن يمنع أخصاءه من الانتحاب. وقد قال لهم:

- لسوف تبدأ المحنة الكبرى. ورغبتني هي ألا يصحبني أيّ منكم على هذا القسم المُضني من الطريق الذي لا يزال ينبغي أن يقطعه جسدي.

لم يشأ «مالكوس» أن يتعد. إلا أن «ماني» طلب منه بحزم أن يأخذ

«كُلوريه» وجميع أبنائهما للعيش في (صور). وهكذا عاد عدد كبير من أتباعه إلى بلدانهم الأصلية.

عندما عاد «بهرام» بعد تنويجه إلى (المدائن) حضر أحد الرسل النبلاء يُعلن لـ «الرسول» القرار الخاصّ به. «يُطرد «مانى» ابن «پاتىغ»، من عِرْق «الپارتيين» وطبقة المحاربين، الطبيب حالياً، ابتداء من هذا التاريخ من أراضي (ما بين النهرين) و(أرمينيا) و(پرسيديا) لنشره آراء مختلفة مخالفة لـ «الدين الصحيح»...».

مطرود؟ مطرود وَحَسْبُ؟ إن «ديناغ» وجميع من اختاروا البقاء إلى جانب «مانى» جاؤوا يلمسون كتفه وركبته، ثم رفعوا أصابعهم المصدّقة إلى شفاههم. فهم الذين أمضوا أياماً في التوسّل إليه بأن يهرب، هم الذين كانوا قد رأوه مذبحاً بيد العاهل قاتل أخيه، ها هم أولاء يَعْتَرُونَ عليه من جديد.

ولا سيّما أَنَّهُ حَدَّثَهُم بحديث تحدّ أدخل الفرحة إلى قلوبهم. يغادر (ما بين النهرين) و(أرمينيا) و(پرسيديا)، ولم هذه البلاد وَحَسْبُ؟ ذلك ما قاله لهم. إِنَّهُ سوف يبتعد عن «الإمبراطورية» بأسرها! لقد كان قد تباطأ كثيراً في كنف «الساسانيين»، ولقد فسد عمره فوق أراضيهم! ولم يكن قد رغب في الذهاب إلى (تدمر) كيلاً يُسَخِّط «شاهيور». ولا حتى إلى (روما) التي كان يشعر بأنه مدعو إليها. ولا إلى (مصر) ولا إلى بلاد «الأحباش». ولن يَدَع نفسه منذ الآن تكون عرضة للعراقيل التي تشكّلها وعود الملوك، بل سيذهب! إلى (الهند) أولاً، (الهند) التي لم يكن قد فعل سوى ملامسة تُربتها الواعدة. ثم إلى (التيبت) فـ (طرقان) فـ (قشغر) فـ (الصين).

مطرود؟ بل مُحَرَّر بالحرّي من الأغلال الكثيرة التي كانت تُلصقه بـ «إمبراطورية» واحدة، بسُلالة واحدة.

واستأنف طريقه يتبعه أخلص خلصائه. لا مثل محكومٍ فارٍّ، بل بخاتانٍ

أحد الغُزاة. ولم يكن يتوقّف إلّا في ساعات النوم، عاثراً في كل مرحلة، كما في الماضي، على منزل مفتوح فخور بإيوائه ومعترف له بالجميل.

وكان قد سلك نحو «الشرق» واجتاز (قنغفار) و(أيكبتان) وأوغل في طريق القوافل نحو (أبرشهر) عندما التقى وجهاً إلى وجه مع «توأمه» أثناء استراحة عند مجرى ماء في رابعة النهار، وكان قد جلس للتأمل.

قال له «الأخر»:

«إنك تجري وتجري، فهل تفكّر على هذا النحو في الإفلات من إعيائك؟»

- إني مُتلهّف على اكتشاف جميع تلك الأمم التي لم أحمل إليها رسالتي بعد.
ألسنت أنت من قال لي....

«كلا يا «ماني»، لقد فات الأوان. وقد ضاع منك طريقك. وعليك أن ترجع».

- إلى المناطق التي قد طُردت منها؟.

«سوف تجتاز المدن التي اسمك فيها أكثر الأسماء تبجيلاً، (كرخا) و(سوزا)، و(غوخاي) و(خُلَصْر)... فسوف يهرع الناس في كل مكان للقائك، وهناك آلاف الرجال والنساء يرغبون في الانضمام إلى ركبك. ولكنك ستقول لهم وخسبُ: تأملوني، أشبعوا نفوسكم من صوري، لأنكم لن تروني أبداً على هذا الشكل!»

* * *

كان الحشد يقف تحت سور (خُلَصْر) من جهتي باب (سوزا). الحشد اليومي القادم للوداع. وقد أصبحت تهاليل البارحة دموعاً كريمة في الوقت الحاضر. لقد مرّ «الرسول» ثم حاشيته. وكانت ثلّة من الفرسان بانتظاره منذ الفجر. ودنا الضابط.

- أحمل أمراً بأن أقود «ماني» ابن «باتينغ» إلى الإلهي «هبرام» ملك الملوك.

- وأين هو سيدك؟

- في مقره الصيفي.

- في (بيت - لابات)؟ هناك بالضبط تكتمل حلقة جولتي. اذهب وقل لسيدك إن «ماني» في الطريق إليك!

كان ابن (بابل) قد تكلم بلهجة لا مجال معها للرد. وبتريبة على خاصرة مطبته استأنف سيره من غير أن يحفل قط بمخاطبه. وإذ دُهل هذا الأخير فقد تردّد دقيقة ضاعت سدى ثم لوى عنان جواده بصحبة رجاله. وإذ كان قد حضر لاعتقال «الرسول» الثائر فقد اكتفى بوعده من فمه.

حرّاً بلغ «ماني» (بيت - لابات). وحرّاً طاف في الشوارع المحفوفة بالمؤمنين، حرّاً حتى سياج القصر، حتى جناح العاهل. واكتفى كاتب عجوز من الديوان بأن يفسح له الطريق خلال الردهات المحروسة؛ ثم رجاه بصوت ينم عن التوقير أن يجلس ريثما يُخيطر الملك بوجوده.

كان «بهرام» جالساً مع أخصائه لتناول وجبة الغسق. وانحنى الموظف حتى لامس بلاط الغرفة.

- ليُصفَح «جلاله الإلهي» لي تدخل. لقد وصل «ماني».

كان أول ما فعله العاهل هو أن استند على ذراع مقعده لينهض. ولكن عينيه التقتا عيني «كردير»، مُستشاره الدائم، وترك نفسه يعود إلى جلسته.

- أعلم أن السيد قد عبّر عن رغبته في استقباله. هل عليّ أن أدخله؟

- تُدخله؟ تُرغمه على الانتقال إلى هنا، شخص في مثل شهرته؟ يا له من حُكم خاطيء! سوف أذهب بنفسه لرؤيته!

وأصاف خوفاً من أن يكون الكاتب قد احتقر تهكمه الرفيق:

- لينتظر ذلك الرجل حيث هو! سوف أراه حين أفرغ من تناول طعامي .
ولسوف أفسح لنفسي في الوقت .

كان العامل عندما تقدّم من «ماني» قد استغرق الوقت الكافي للأكل ولكثير من الشراب . وكانت السنون قد زادت به بدانة وأثقلت خُطوة من غير أن تُضفي عليه مع ذلك الوقارّ العفوي الذي كان يتحلّى به «شاهبور» ولا سهولة خُلُق «هرمز» الخلابّة . وكانت ذراعه اليسرى تحيط كضفي عشيقته المراهقة، تلك التي تُطلق عليها الكتابات التاريخية اسم «ملكة الساقين»، وهي تصغره بأربعين عاماً، وقد سعى إلى تزويجها لحفيده . ويعيداً خطوتين كان يلوح ثوب رئيس الكهنة الأصفر .

- لا مرحباً بك ! .

كانت تلك كلمات «بهرام» الأولى . ويديهي أن «ماني» كان يُوحى إليه بدعر حقيقي كان يسيطر عليه بمضاعفة عدوانيته . ورمق ابن (بابل) ملياً هذا الابن الشائخ البدين غير العزيز الذي تعادل قسوته حالة الرناء له . وأجابه من غير غلّ:

- لقد أظهر لي بعض الأشخاص العداء على الدوام من غير أن أكون قد سببت أيّ أذى .

- قل لي قبل أن نتحدّث عن الأذى الذي سببته ما هو الخير الذي قدّمته يوماً إلى سُلَائننا؟ إنه لا نفع فيك لا في الحرب ولا في القنص! تدّعي أنك طبيب ولم يسبق أن شفيت أحداً!

- كل أحد يعرف أنني عاجلٌ وشفيتُ . . .

- لقد عيّنتك أبي الإلهي «شاهبور» طبيب القصر، غير أنك لم تُفلح في نجيبه نوبات الحمى ولا الآلام . وعندما طالب بك على فراش موته فلنك لم ترَ من الخير أن تحضر! .

لقد أراد «شاهبور» إذن أن يراه لآخر مرة، غير أن أحداً قد اعترض السبيل

لمنع وصول الرسالة إليه. ومن يستطيع ارتكاب مثل هذه الخيانة غير «كردير» و«بهرام» وشركاؤهما في التآمر؟ وأحسّ «ماني» بجيشان اشتمتازا وسُخِطَ أرغم نفسه على كبجتهما. وصمت.

وشعر الملك بما يشجّع على المتابعة.

- وأخي، الإلهي «هرمز»؟ لقد كنتَ طبيبه، وكنتَ تزعم أنك صديقه، غير أنه عندما ساءت حاله لم تكن كذلك إلى جانبه، إذ لم تجد فائدة في مصاحبته كما كان قد طلب منك. فربما كنتَ خففتَ من وطأة آلامه.

حتى «كردير» بدا مُحَرَّجاً من هذا التلميح، من هذا الاعتراف المبطن، غير أن «بهرام» رماه بغمزة واثقة. ما الذي يمكن أن يخشاه؟ لقد كان أحدهما رئيس الكهنة الذي له اليد العليا في تدبير العدالة؛ وكان الآخر ملكاً.

- أنت لا تحبب!.

تنهّد «ماني».

- غيري يملكون الإجابات. في قلبهم وفي أيديهم.

لم يزد على ذلك. وإذا كان من الواجب تمحيص دعوى قتلة «هرمز» فلن يكون ذلك أمام مثل هذه المحكمة! وبدا «بهرام» خائب الفأل بأن يكون «ماني» قد اكتفى برّد بمثل هذا التلميح. وحده بنظرة أراد أن يضمنها كلّ ما في وسعه من ازدراء. ثم توجّه إلى مثالب أخرى.

- عندما يطلبك ملك الملوك فإنك لا تكون موجوداً على الإطلاق. ولكنّه عندما يحظر عليك زيارة هذه المنطقة أو تلك فإنك لا تلبث أن تظهر في الأماكن التي تمّ طردك منها. وإنما لطريقة غريبة في خدمة سادتك!

تركه «ماني» يقول عنه ما يريد. فقد مثّلت في ذهنه من جديد صورة «شاهبور» مُحْتَضِراً ومُغْمِغاً باسمه في حين كان عند فراش مرضه كائنات ظلّوا يتظاهرون بأنهم لا يسمعون. وإنما لصورة مُكْرِبة، ولكنها تحمل كذلك عزاء

حازاً. فلم يكن ابن (بابل) يأسف قط في هذه اللحظة على السنوات التي قضاها بجوار «الساساني» الأعظم.
وفيا كان «بهرام» لا يزال يطن:

- لقد قرّرت طردك وعصيتني!

- لقد أطعتُ صوتاً سوايأ أمرني بالقيام برحلة أخيرة.

- صوت سهاوي! ذلك ما كنت تدّعيه على الدوام! لماذا تكلمك «السماء» تُرى؟ لماذا تختار تُرى من هذه «الإمبراطورية» أحد الرعايا البائسين بساق ملتوية بدلاً من التوجّه مباشرة إلى ملك الملوك؟ .

كان «ماني» منذ بدء المقابلة يمنح نفسه عند كل سؤال من «بهرام» بضع لحظات من الانتظار قبل أن يجيب. وهي طريقته في الإشارة إلى أنه كان قد رغب كل الرغبة في إسلام نفسه إلى السلطة الدنيوية لا إلى الشخص الضعيف الذي يُجسّدها. ولكنه أطلّ انتظاره هذه المرّة وعيناه غائصتان في عيني الملك.

- لا بدّ أن لي «السماء» دواعيها، «هي» التي تعرف الناس بعيداً عن هياتهم.

لم يصدر عن «بهرام» أي ردّ فعل. وبدا فجأة وقد اهتزّت أعطافه وثاب إلى رشده. وأراد «كردير» تأجيج غضبه:

- ألا يسعى هذا الرجل إلى القول إنه أولى بالشرف من أفراد السُلالة الإلهيين؟.

لم ينبس العاهل بكلمة. وظلّ مُستغرقاً. واقترب منه الكاهن ومست كتفه كتفه وكأنّما من غير انتباه. وابتسم «ماني». فما كان أيّ شخص ليجرؤ على فعل هذا مع «شاهبور» أو «هرمز»! بيد أن «بهرام» نفّض رأسه وكأنّه يُفبق من قيلولة. واستأنف مساءلته من حيث تركها.

- ذلك إذن هو الصوت الذي أمرك بمعصية ملك الملوك. وبأن تتمرّد وتثور.

- لم يحدث قط أن شهر أحد سيف الثورة باسمي !

- لقد زرعَت القلاقل. وصرفت المحاربين عن واجبهم والحرفيين عن مهنتهم. ودعوت الناس إلى احتقار الفواصل بين الطبقات والأعراق. وها هم أولاء التجار ينظرون الآن في عيون الفرسان. ولم تُعد كلمة الكهنة مسموعة. أليس في هذا ثورة؟

- لم يحكم الإلهي «شاهبور» بأن تعاليمي ضارة وإلا لما سمح لي بنشرها مادام قد كتب إلى الأعيان في جميع الأقاليم بأن يمدّوا لي يد العون. أفيمكن قد شجع تصرفات مُنافية لمصالح «الإمبراطورية» والسُلالة؟

- لقد هدهدتُ حَذَره.

- هدهدتُ حَذَره طوال ثلاثين عاماً؟ هو الفاتح، هو الملك المرهوب الجانب في عهده، يَدْع نفسه يُخدع بأقوالِي طوال ثلاثين عاماً؟ ثم يطلبني وهو على فراش الموت؟ ويسمّي خَلْفاً شرعياً له في آخر نسمة من حياته الابن الذي يعرف كلُّ أحد أنه صديقي وحاميّ، ذلك الذي كان أعدائي يخشونه؟ أفيُسمى اليوم إلى تلطيخ اسمي أم إلى تلطيخ اسم كبار الملوك؟

- لا تزد كلمة واحدة!

تقدّم «بهرام» من «ماني» وكأنه يريد أن يأخذ بتلابيبه، ثم إنّه تذكّر مقامه الإمبراطوري فاكتفى بإطلاق لعنة لم تُسمع.

حلّ «كردير» محلّ الملك ريشا يستعيد هدوءه. من أجل أن يصوغ تهمة محدّدة.

- لقد اقترفت يا «ماني» بن «باتيغ» بتخليك عن «الدين الصحيح»، دين أسلافك، ذنب المروق. واقترفت بنشر آراء تجديدية زعزعت المؤمنين ذنب الهرطقة. جريمتان في حقّ «السماء».

- لقد ابتعدتُ بالتأكيد عن آراء «كردير» غير أنني لا أزال مُخلصاً لـ «زرادشت».

ثاب العاهل بغتة إلى رشده .

- إن ما سمعته يكفيني . الاتهام بين والدفاع يضارعه بياناً . وإذا ثبت اتهام «ماني» بالهرطقة والمروق فجزاؤه الموت . وإذا كان لا يزال أميناً لتعاليم «زرادشت» ، كما يؤكد ، فلني استتكف عن عقابه وأتعهد بالعفو عن عصيانه أمري . أليس هذا موافقاً لشريعتنا؟ .

أمن «كردير» على قوله . ولم يقل ابن (بابل) شيئاً . فلم يكن يدرك المساومة المقترحة . وعلى كل حال فإن الملك لم يكن ينتظر موافقته . بل قال :
- لنبدأ المحاكمة .

ثم ذهب يجلس . ودعا «ماني» للجلوس على أريكة قبالته . وكان الشخص الذي بدأ المشهد يروقه هو عشيقته الملك الشابّة . وقد جاءت تلتصق به وهي تسأله أن يشرح لها كيف ستجري الأمور .

- سوف يعرض الطيب البابلي الكريم آراءه ، وإذا حكم بأنها مغلصمة لـ «الدين الصحيح» خرج من هنا حراً وأفاد من حمايتنا . «ماني» ، إننا مُصغنون إليك .

بيد أن المراهقة لم تكن قد فهمت جيداً .

- من ذا الذي سيحكم بعد سماع هذا الرجل بما إذا كان مُخلصاً أو مُهرطقاً؟
- الشخص الوحيد الذي يتمتع بميزة الحسم في هذه القضايا : الكاهن الأكبر «كردير» الذي يُسعدنا الحظ بأن يكون بيننا .
أصاب «ماني» مرة أخرى غُرجاً للضحك .

- أفضل بدلاً من الاستسلام لمساخركم أن أتلقى من يديك كأس «هَوم» ممزوجة بسم «الانتيار» القتال . أم كان ذلك السم هو الشوكران؟ .

وأصدر «كردير» حكمه :

- لقد دانتك هذه العبارة .

- لأنه كان قد عُفي عني قبل أن أُلْقَظَ بها؟ .

واعترف «هبرام» من غير مواربة :

- كلاً ، لأنني كنت قد أقسمت بأجدادي أن تموت . غير أن خيانتك تستحق
أن تتألم من أجلها .

أُسْلِمَ «ماني» للتعذيب بالحديد. فقد رُبِطَتْ سلسلة ثقيلة حول عنقه وثلاث آخر حول جذعه وثلاث في كل ساق وثلاث أيضاً في كل ذراع. من غير أي نوع آخر من العنف أو التعذيب أو السُجْن. فقد كان مُحْتَجِزاً وحسب في فناء مبلط بالقرب من موقع للحراسة.

لم تكن الزيارات ممنوعة عنه. ما إن عُلِمَ أمر الحكم في أحياء (بيت - لايات) حتى بدأ الناس يتقاطرون. فكان هناك التلاميذ الذين يقتربون منه بقدر ما يسمح به الحراس ليقذفوا بزهرة عند قَدَمَي «الرسول». غير أنه كان هناك أيضاً، كما في كل تعذيب علني، جمهور المتسكعين. فما كان من أحد من أهل المدينة أو الجوار يريد أن يفوته مشهد شخص يُعَذَّب. وكان الناس يَفْدُون عائلات بأجمعها، وإذا حدث أن ارتاع الأطفال فإن ذويهم كانوا يُهْدُّون روعهم بضحكة خفيفة.

وأخذ بعضهم على عواتقهم واجب تائب المحكوم أو وعظه. بدافع التفاني أو بدافع عداوة متأصل، وبعضهم لمجرد الحرص على الاستقامة، ولكنهم لم يكونوا جميعاً يستطيعون العزم على الإفادة على هذا النحو من التسلية الممنوحة من الملك من غير أن يدفعوا كلمة ما ثمناً لذلك.

في اليوم الثالث من بَلْيَةِ «ماني» الأخيرة كان أهل المدينة لا يزالون يتقاطرون. حتى غروب الشمس حين كان يُغلق الباب الخشبي الكبير لسجنه الكائن في العراء. وظلَّ بحراسة جنديين أُمَرَدَيْن كانا يحيطان به عن كَتَب وهما يتحاشيان أن تلتقي نظراتهما بنظراته. وبغته انطرحا ووجهاهما إلى الأرض بقدر من العنف انسلخ معه جلد راحتهما. فلقد مثل أمامها العاهل بلحمه ودمه. وحده.

وأمرهما بَتَنَحُّنْة أن يتواريا. وبعد شيء من التردد اختار الجلوس على حافة إفريز من الحجر مُشْرِفاً على «ماني» وقيوده.

- وددت أن أحدثك أيها الطبيب البابلي. فهناك سؤال يُحِيرُنِي منذ لقائنا الأول.

بدت نبرة «ههرام» ويا للغرابة مجرّدة من كل غِلٍّ. ودودة أو شبه ودودة. وكلف السجين نفسه رفع عينيه.

- ذلك الصوت السماوي الذي يتحدث إليك يا «ماني»...

كان في كلماته حَرَج، بل شبه ضراعة صادرة عن طفل.

- سبق أن أجبتي ذلك اليوم. بيد أن فضولي لم يشبع.

تأمل «ماني» مرّة أخرى بغیر اهتمام، ولكن من غير شرارات عداء. ثم أخذ يقصّ عليه بهدوء بدايات رسالته، «التَّوَام» وبستان النخيل و(الهند) حتى أول لقاء مع «شاهبور». وكان صوته يشي بإعياء حاملٍ صليب. واقترب الملك وانحنى ليسمع بشكل أفضل. وعندما قاطعه كان ذلك بهمس صادر عن شخص حميم.

- لكن، لِمَ أنت يا «ماني»؟ لماذا لم يحدث أن كلّمت «السماء» الإلهي «شاهبور» مباشرة؟

- كيف كان الناس سيدركون أن الجلال النابع منه صادر عن «السماء» لا

عن قوّته الدنيوية الخاصّة؟ في حين يُشهد الرجل الوضع على نفسه ما إن يتألّق.

هزّ «بهرام» رأسه هزّة تُنبئ باطمئنان نفسه. قبل أن يتابع.
- سؤال آخر يشغلني. ما الذي تراك قلته لأبي ولأخي «هرمز» ولأعمامي،
ولتلك المرأة، «ديناغ»، فيعاملوك بمثل هذا القدر من التجلّة؟ أفلا تكون قد
كشفت لهم شيئاً من سرّ الكون؟

- لقد سمعوا من فمي الحقائق التي كانت في أنفسهم. فالمرء لا يسمع قطّ
إلاّ صوت نفسه.

كان «ماني» قد غمغم بهذه العبارة الأخيرة بنبرة تشي بالاعتراف، فزاد
«بهرام» من انحنائه. ولقد كانا بعمر واحد تقريباً، غير أن ابن (بابل) ظلّ
نحيلاً. ومنذ الذي كان في وسعه أن يرتاب وهو يراهما يتحدّثان على هذا النحو
في أن مَنْ كان يستجدي راحة البال كان هو السّجان. وأن من هو ضحيّته
استطاع الرّد بمثل هذا القدر الضئيل من الوجد. من غير تعاطف مع ذلك،
ومن غير كلمة تسعى إلى استثارة الشفقة. ولا العفو. بل لكأنّ عذاب «ماني»
ما كان ليكون موضوعاً جديراً بأن يطرّقه الرجلان في هذه الأمسية.

في اليوم الثامن تلقّى «الرسول» زيارة «زراف» عازف العود الذي كان قد
ظلّ أربعين عاماً موسيقيّ «شاهبور» الأثير، وقبله موسيقيّ «أردشير» الأثير.
وكان رجلاً أبيضاً طويلاً ممشوق القامة، وكانت أصابع الثمانينيّ الذي كانه
معروقة. بيد أنّها كانت تستعيد نضارتها لدى ملاسة الأوتار.

لقد كان على الدوام يُقدّر حكمة ابن (بابل)، وكانت قد جرت بينهما قديماً
مناقشات طويلة وادعة. ولقد أحفظه الحكم عليه. وكان قد قدّم بصحبة عوده
بوصفه لوناً من ألوان الاحتجاج. وكان دخوله مرموقاً. وسار مباشرة إلى
«ماني» وقبّل يده المغلولة ثم تربّع بقربه وأخذ يعزف بعض الأنغام الشجيّة.
وران الصمت على الجمهور.

ولما كانت هيئته الأميرية قد تركت الجنود الشبان بلا حَوْل ولا قُوَّة فلإنهم لم يجسروا على التدخّل . وما لبث أن حضر لنجدتهم أحد وجهاء البلاط . وكان هو نفسه يشعر بالضيق أمام هذا النُصْب الحيّ من أنصاب «الإمبراطورية» . وتمتم قائلاً إنه من غير اللائق برجل له مثل مقام «زراف» أن يأتي للعزف في مكان بمثل هذه الحِسة .

ودهش الموسيقيّ العجوز:

- أولستُ في حَرَم القصر؟

- بلا شك . ولكنّ هذا فناء التعذيب!

- إن هذا المكان هو اليوم في نظري أكثر أمكنة القصر احتراماً وأضوَعها عِطراً .

- إن من عزف للملوك لا يقدر على العزف لمحكوم بالتعذيب ! .

وقبل أن يردّ «زراف» سمع صوت «ماني» اللاهث . ولم يكن يتدخّل في النقاش . على الإطلاق . بل لم يكن ليُشعر بأنه أصغى إليه . ولقد بدا وكأنه يتابع مع الموسيقيّ حديثاً بعيد العهد .

- اعلم يا زراف» أنه في فجر الكون كانت جميع المخلوقات تسبح في نغم علويّ ، وقد أنسانا إياه سديم الخلق . غير أن عوداً مدوزناً مع روح الفنّان قادر على بعث تلك النغمات الأصليّة . . .

وصاح «زراف» :

- ما أعذب وقع كلمات الحكيم في مسامعي ! .

وإذ نسي التهديدات والكلامَ المنمّق فقد استأنف العزف نَشِطاً ومُلْهاً حتى المساء .

ويقال إنّ «بهرام» كان في القنص ذلك اليوم ، وأنّ أحداً لم يجرؤ في غيابه أن يأخذ على عاتقه مهمّة الإساءة إلى موسيقيّ الملوك الجليل .

وعندما رجع الملك في اليوم التالي ذهب بعض الجنود إلى عازف البعود لاستدعائه فاکشفوا أنه قضى ليلاً في دَعَةِ سريره الضيقة، وكان موته موقفاً أخيراً من مواقف الاحتجاج.

وفي اليوم الرابع عشر كان المتسكعون قد تعبوا وازداد تجمع المخلصين عدداً. ومنعهم الحراس من الجلوس وأرغموهم على الاستعراض بصمت، وكانت سهرة نهائية طويلة كان يبدو «ماني» خلالها مُتملّجاً. وكان يُغني ثم يستيقظ ويتحرك ساعياً إلى فكفكة أطرافه المتيسّة. ولكنّه ما إن كان يصل إلى وضع حتى يسعى إلى العودة إلى الوضع السابق.

وخيّل في لحظة من اللحظات أنه سَمِع يقول:

- لقد كتبت وكتبت ولم يقرأوا. وقلت شيئاً وفهموا شيئاً آخر. لقد أراد الناس شيئاً آخر.

وكانت دموعه تسيل فينظر المؤمنون بعضهم إلى بعض ويتساءلون عما إذا كان يعينهم هم بحديثه.

وفي اليوم السابع عشر ظنّ أنها النهاية الوشيكة وترك الحرس التلاميذ يقتربون. وكان هناك سؤال واحد من بين جميع الأسئلة ينبغي أن يُطرح، غير أن قلب «ماني» كان ينبض في شفته السفلى، وعدّل المؤمنون عن جعله يتكلّم خوفاً من زيادة لهاته.

وكأنما كان قد سمع ما ضاقت به صدورهم ولم يعبروا عنه ففتح عينيه. ليقول بنبرة جليّة:

- وبَعْدُ؟ إنّ ما كان في من «ظلمات» سوف يعود إلى الظلمات، وما في من «نور» سوف يبقى «نوراً».

لم يرو غليل أيّ منهم. إلّا أن كلام «الرسول» كان مُترنّحاً فأذعن التلاميذ.

ومع ذلك فقد عاودته صحوة نشاط عند العصر قبل موعد إقفال الأبواب بقليل. وشمخ رأسه عالياً وبلغ صوته الأسماح. أم أنه كان صوت «التَّوأم»؟

- عندما تُغمض عينيك للمرة الأخيرة فإنها لن تلبث أن تفتحا من غير أن تكون قد قصدت. وستكون لحظتك الأولى مصنوعة من عدم التصديق. مهما يكن إيمانك. فالشك موجود حتى لدى أرسخ المؤمنين إيماناً؛ وفي أشد أنواع عدم الإيمان صفاقةً يسكن الأمل الذي لم يُسح به. ويلزاء «عالم الغيب» فإن الناس لا يقومون بغير أداء أدوار، وإيمانهم المشترك مكتوب في تعب أجسادهم.

وتوقع الحاضرون أن يستعيد أنفاسه بصعوبة، ومع ذلك فقد تابع:

- ثم يأتي دور التجربة.

وإذ همس أحدهم حول «ماني» بكلمة «حساب» فإنه أجفل وكأنه أهين.

- أي «حساب»؟ عندما تُغمض عينيك فإن الحكم يكون قد لُفّظ به! بشفيتك بالذات.

كان وجهه بأسره قد استعاد حيويته. وراحته وأصابه وحجرته وجذعه.

- وما إن تنقضي لحظة عدم التصديق حتى يستعيد كل أحد عيوبه وعاداته. وتبدأ الغريزة بين بني البشر. من غير ما حاجة إلى محكمة. فمن عاش بالهيمنة اشتكى من أنه لم يعد يُطاع؛ ومن عاش بالمظهر فقد كل مظهر؛ ومن عاش لأجل الامتلاك غدا لا يملك شيئاً، ويذه تُطبق على العدم. وما كان له فهو من الآن فصاعداً لغيره. وسوف يغشى على الدوام، شأن الكلب المربوط بسلسلته، أمكنة إقامته الدنيوية، مقيداً، متسوِّلاً مجهولاً في المكان الذي كان فيه سيِّداً.

«وحدات النور تخص من عاشوا مُتحرِّرين من القيود».

صمت وغمضت عيناه. ثم عادت شفتاه تتحرَّكان في وجه مُشرق، وكأن عظمته كانت تتابع له هو نفسه. وكان جزءٌ غير متماسك من عبارة يُقلت منه من حين إلى آخر.

«... لن تجرح الشمس عينيك بعد... أنت يا من يعرف التأمل في سعادة

الآخرين... كل عطور الحبيبة... لن تشيخ هذه المرأة أبداً... هرم ضائع
القمة... سوف تجد فيه جميع الكتب... وتلك التي لم يكتبها أحد... سوف
تتعلم أعمار الكون... سوف تذهب إلى (مصر) التي في «العالم الآخر»...
كان تلاميذه منحنين فوقه لالتقاط هذه الشذرات. وكانوا جميعاً يطمعون في
اللحظة التي أخذ يعيش فيها.

في اليوم العشرين أمر تخلصيه بالرحيل. جميع الرجال والنساء الشباب،
أولئك الذين يمكن أن ينالهم الاضطهاد.

عندها حدثت تلك الجلبة السامية. وانتشرت كلمة من غير أن يُعرف قط
أيّ فم هتف بها. ولم تكن من ابن (بابل)، فقد همس فقط: «ابتعدوا، تفرقوا،
دعوا سبل الانتقام يمرّ، وفيما بعد تعودون إلى النهوض». غير أن التلاميذ أذاعوا
وصيةً مختلفة: «كتابة اسم «ماني» في كل مكان!».

كتابه بالفحم، بالطباشير، ولكن نقشه فوق ذلك. نقش الحروف المحفورة
عميقاً في الخشب والحديد والحجر. وعلى صُوى مفارق الطرق، على جدران
المدن، على جميع مباني «الإمبراطورية» من سجون وقصور وثكنات، وفي جميع
أماكن العبادة، كانت أيدي كثيرة قد خطّت، كلّ بلغتها، اسم «ماني». بحمّة،
كيلا يتمكن أحد من محوه.

ضد الموت. ضد القيود. ضد قيود «ماني».

* * *

في اليوم السادس والعشرين انتهى آخر فصل من معاناته. ولن يلبث
تلاميذه أن يتحدثوا عن تعذيب، عن شهادة، عن صلب؛ ولكن «ماني» قال
ببساطة: «طَرْدِي».

كان لا يزال يسهر عليه نساء ذوات شعور رمادية. مدهولات خرساوات
مقهورات غارقات قبل الأوان في الحِداد الآتي عما قريب. فلم يُعدّ يستطيع

الحراك، وهو يتنفس بصخب، غير أن نظرتَه لا تزال حيّة .
وقد التقت نظرة «ديناغ» . وأدركت ما يريد فذهبت تهمس في آذان النساء .
فنهضن . واستعدن صورة وجوههن .
وكان بينهما تلميذة تُدعى ابنة «أثيبار» . وشرعت تغني بصوت عذب الأقوال
المحفوظة .

يا شمسنا الكريمة التي تُغديق الدفء
وتُغديق معه الظل الذي يظلّلنا
أيّتها الشمس التي تُنضج العناقيد والأجساد ليوم العيد
ثم تتسحب لكي نتمكن من الاحتفال
أيّتها الشمس التي تُغمض عينيها عن إفراطاتنا، وعلى ما
نرتكبه، نحن الزائلين، من حماقات
وتحضر في اليوم التالي بمزاج رائق، وبالسخاء نفسه
ولا تنتظر منا حمداً ولا خضوعاً
كريمة هي شمسنا عندما تُشرق
وكريمة هي عندما تغرب . . .

كانت ابنة «أثيبار» قد بلغت هذه الكلمات عندما توقّف عذاب «ماني» .
وأسبلت «ديناغ» ، وكانت أقربهنّ منه، جفنيه . ثم طبعت على شفّتيه آخر قبلة
حيّة . وحاكتها النساء الأخريات .

كان ذلك عام ٥٨٤ من تقويم فلكنّي (بابل)، في اليوم الرابع من شهر
«آذار» - وفي التقويم المسيحي في اليوم الثاني من «مارس» (آذار) عام ٢٧٤ م ،
وكان يوم اثنين .

ومذاك تختلط معاناة «ماني» بمعاناتنا . [تطلق لفظة «معاناة» على ما قاساه
السيد المسيح من عذاب وآلام] .

خاتمة

رفض الملك أن يُسلم جثمان «ماني» إلى تابعيه خوفاً من أن يتحوّل قبره إلى مزار؛ وأمر أيضاً بأن يُعلّق جثمانه قبل زواله مدة ثلاثة أيام على مدخل (بيت - لاپات) محشواً قشاً وعارياً للتعرف عليه من ساقه الملتوية. ولتقديم البرهان إلى جميع الناس بأنه قد مات.

غير أن جزء الجدار غداً بحدّ ذاته مزاراً، وهو شاهدة قبر عملاقة ما كان بالإمكان نزع طيف «الرسول» عنها. وأقسم المؤمنون بها على تحدّي الموت بالآ يعرفوه إلا باسم «ماني الحي». وهما كلمتان أضحتا متلازمتين في حكاياتهم وصلواتهم، حتى إن الإغريق لن يسمعا سوى كلمة واحدة سوف يكتبونها على هذا الشكل: «مانيايوس». وسيقول آخرون «مانيايوس» أو حتى «مانياي».

هل حُرّف اسمه؟

حبّذا لو توقّف الأمر عند هذا الحدّ.

فمن كتّبه، ومن الأعمال الفنية التي تفانى في إبداعها، ومن دياناته السمّحة، ومن سعيه المضني لنشر دعوته، ومن رسالته الداعية إلى الانسجام بين الناس، بين الطبيعة والألوهية، فإنه لم يبقَ أيّ شيء. ولم نحفظ من دين الجمال الذي أتى به، من دين النور - الظلمة المُرهَف، بغير هاتين الكلمتين، «مانوي»

و«مانوية»، اللتين أمستا في أفواهنا مَسْبُتَيْن. لأن جميع رجال محاكم التفتيش في (روما) و(فارس) قد تضافروا على تشويه «ماني» لإخاده وطمسه. ففي أيّ الأمور كان خطراً بحيث وجبت مطاردته على هذا النحو حتى في ذاكرتنا؟

لقد كان يقول «قَدِمْتُ من بلاد (بابل) لأجعل صبيحة تدوي في أرجاء العالم».

ولقد سُمِعَتْ صبيحته خلال ألف عام. ففي (مصر) كان يُدعى «حَوَارِي يسوع»؛ وفي (الصين) كان يُطلق عليه لقب «بوذا النور»؛ وكان أمله يُزهر على ضفاف ثلاثة محيطات. ولكن لم يلبث أن حلّ الحقد وأن احتدم الهجوم. فلقد لعنه أمراء هذا العالم، وغدا في نظرهم «الشیطان الكذاب» و«الوعاء الناضح بـ» الشرّ»، وفي دعاياتهم المسعورة «المُخْبِل»؛ وصوته «سِحْرٌ خَوْون»؛ ورسالته «طيرة خبيثة» و«هَرْطقة نَتْنَة». ثم فعلت المحارق فعلها مبتلعة في نارِ ضَلَامِيَّةٍ واحدة كتاباته وأيقوناته وأكمل تلاميذه وأولئك النسوة الأبيات اللاتي كنّ يرفضن أن يبصقن على اسمه.

إن هذا الكتاب مُهدى إلى «ماني». وقد سعى إلى سرد حياته. أو ما لا يزال بالإمكان تخمينه منها بعد هذا القَدْر من عصور الكذب والنسيان.

الفهرس

٧ تمهيد ●



٢٥ بستان نخيل «أصحاب الميعة»

القسم الثاني Alexandria Library (GOAL)
القسم الثاني

٨٩ من «دجلة» إلى «السند»

القسم الثالث

١٥٩ بجوار الملوك

القسم الرابع

٢٢١ طرد الحكيم

٢٨٦ خاتمة ●



حدائق النور، قصة مابني، ذلك الرجل الطبيب الرسام والرسول، الذي وضع في القرن الثالث من تاريخنا، رؤية جديدة للعالم.

لقد كان يقول «قدمت من بلاد بابل لأجعل صيحة تدوي في أرجاء العالم». ولقد سمعت صيحته خلال ألف عام. ففي (مصر) كان يدعى «حواري يسوع»؛ وفي (الصين) كان يطلق عليه لقب «بوذا النور»؛ وكان أمله يزهر على ضفاف ثلاثة محيطات. ولكن لم يلبث أن حلّ الحقد وأن احتدم الهجوم. فلقد لعنه أمراء هذا العالم، وغدا في نظرهم «الشیطان الكذاب» و«الوعاء الناضج ب الشر»، وفي دعاياتهم المسعورة «المُخْبَل»؛ وصوته «سِحْرٌ خَوْفٌ»؛ ورسالته «طيرة خبيثة» و«هرطقة نتنة». ثم فعلت المحارق فعلها مبتلعة في نار ظلامية واحدة كتاباته وأيقوناته وأكمل تلاميذه وأولئك النسوة الأبيات اللائي كن يرفضن أن يبصقن على اسمه. إن هذا الكتاب مهدي إلى «ماني». وقد سعى إلى سرد حياته. أو ما لا يزال بالإمكان تخمينه منها بعد هذا القدر من عصور الكذب والنسيان.